كتاب دون صور

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

كتاب دون صور

تأليف : سيرغي شارغونوف
ترجمة : د. مقداد عبود

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٢م

العنوان الأصلي للكتاب:

Книга без фотографий

الكاتب: Сергей Шарганов

تاريخ النشر: Твердый переплет,2015

المترجم : د. مقداد عبود

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر **(**بالضرورةِ**)** عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها**.**

ألبوم سرّيّ

لا تترك الصور الإنسان وشأنه طوال الحياة، حتى بعد الموت. المقبرة ألبوم صور، فيها عدد كبير من الوجوه، وهي عموماً احتفاليةٌ ومرحِّبةٌ. في لحظة تشغيل فلاش آلة التصوير لا يكاد يتمكّن الناس من التفكير إلى أين ستذهب صورهم. وهذه الابتسامات! العائلات، وسنوات الحياة، والوجه الهادئ المؤمن بالخلود. في المحيط طنين الذباب، النباتات، وجوه أخرى، هي لا تدرك أنها أقنعةٌ يمور وراءها انهيار.

وهكذا، وأنا أمشي في مقبرة موسكو الواسعة، التقيت جاراً في فسحة الدرج، وقد صوّب نظرةً إليّ، التفتُّ إلى اليسار فالتقت عيني مع إيفان فرولوفيتش سوكوف من الشقة ١١٠. كان في يوم العيد في بذلة الجنرال. أصبحت الصورة على الرخام الأسود المصقول. وكان انعكاس الشمس يعمي. «ها نحن نلتقي من جديد - فكّرت - لقاء بالمصادفة، لا فرق حتى لو كان في حشد المارّة أو في أي مكان في المترو...».

ولكن يصوروننا، يصوروننا حتى قبل أن نولد.

أتذكّر: آنيا جاءت من عيادة الطبيب ومعها لوحة بلاستيكية كبيرة، جَمدتْ عليها توزيعات ضوء وظلالٍ موحشة.

هذا هو! هتفتْ.

كان هذا ولدنا. جنينُ رَحِمي. هو الذي سيكون فانشكا مستقبلاً.

بدأت حياتي حين رُفع من شأن الصور. أناسٌ محبو - السحر منعزلون في الغرف المظلمة ظهّروا صور الفيلم، ما أثار لدى الأطفال الحسد والتبجيل. في السنوات السبع الأولى من الحياة صورتُ بالأسود والأبيض فقط. في حين سَرَتْ لاحقاً الصوُر الملونة، رغم أنها ورقيّة. بعد الخامسة والعشرين صارت الصور إلكترونية، وبكميّة لا يُستهان بها.

أنا أومن بسرّ الصورة التي ما زالت تحمل اللغز.

لقطات الصور الفضائية تتيح رؤية طبقات الأرض الداخلية. ويمكن من خلال صور الإنسان يمكن تحديد مرضه. على الصور يمارسون السحر: يسْبون العقل، ويسببون العطب. لا يكاد يكون نجاحاً متكرراً، ورغم وجود متعة شريرة متجذرةٍ في الناس: تقديم صورة عفنة إلى العدو. والآن من المحتمل أنّ هذا السحر يسهّل إمكان برنامج تعديل الصور «فوتوشوب».

إحدى الخالات بائعة في مخزن ريفيّ أسرّت لي بطيب قلب: - لديّ بطاطا، كومة كاملة. سأجلس في ليلة يوم الأحد قرب الموقد، وأفردها وأرتبها، وأضعها في النار. وهذا كي أصبح صبية! ولكي تذهب مني التجاعيد... وضحكت بغنج.

الصور هي التيارات الجارفة، وكذلك شرائط الفيديو، العالم ممتلئٌ بها. العالم موضوعٌ على اللقطات التصويرية. ولكن في الوقت عينه ما يزعج أن هذه الصور هي موضة قديمة. فهي تظهر بسهولة بالغة، وضيّعت قيمتها. لعلّ هذه الصور بقيت في القرن العشرين، وشيئاً فشيئاً تصبح زبالة...

الصور التي بحوزتي قليلة. لا أجمعها ولا أحفظها. وهذا ليس مهمّاً. وبين الحين والآخر أعود إلى الأحداث والناس المطبوعين صوراً في الدماغ. وهذا الكتاب، ربما يشكل متابعة.

يخيّل إلي أحياناً، أن جميع صوري المفقودة، والغائبة وغير المحققة هي محفوظة في مكان ما. وفي وقت ما يظهرونها.

ربما حين لن يكون هناك مخرج (في الحرب القريبة أو في فراش الشيخوخة) سأرى ألبوم صور حياتي التي كانت على عجل وبلا رحمة.

وهكذا سأفهم، حينها، سراً ما أساسيّاً، وأتحسّر مبهوتاً ويأخذني الموت بشكل سهل.

طفولتي السوفييتية

هربت في خريف عام ١٩٩٣ من البيت إلى المتاريس. هنا يوجد من جميع أنواع الناس وليس الفقراء فقط، والشعار الأوحد الذي يتلقفونه جميعهم مع التأهّب الكامل: «الاتحاد السوفييتي!».

أقف في الساحة قرب بناية بيضاء كبيرة، مغمورة بشكل كامل بالبخار والدخان، وفي المحيط - في الرذاذ والدخان - تُستبدل روسيا الآفلة. حبٌّ وألم وجوه مؤمنة، تلويحات حادّة للأيدي، لافتات مجروفة. ضوءٌ حارٌّ للهزيمة يتأتّى من الأعلام الحمراء.

الاتحاد الس - س - سوفييتي!... تتدحرج الصيحات، موجة وراء موجة.

- الاتحاد الس- س- سوفييتي!... بيأس وغيظ يحشرجون، يغني الميدان، يتأوّه ويئنّ.

بالقرب مني مباشرة امرأة عجوز، طاعنة في السن ومقرورة، وهي لا تنشد، ولكنها بمدّ تنشج باسم وطنها.

من شرفة بعيدة يعدوننا بقدوم سريع إلى هنا - في الضباب والدخان - من القطعات العسكرية الموثوقة المؤتمنة.

في الطفولة لم أحب الاتحاد السوفييتي، لم أستطع أن أحبه، لأني نُشّئت على هذا.

في الثالثة عشرة من عمري، عندما حصل ومات الاتحاد السوفييتي، وتبعاً للهبّة ركضتُ إلى ميدان الرافضين الذين كان صراخهم بأنّ هناك قوى استحضرت روحه.

تعلمت القراءة قبل تعلم الكتابة. أخذت كتباً معطرة مع أغلفة قماشية دون عناوين، في حقائب مخاطة، بيتيّة يدويّة. فتحت ورأيت لوحات مبهمة داكنة بالأبيض - والأسود، كتبت الحروف. حدث أن هناك حرفاً عُقِف كضوء الشمعة: تنضيد سيِّئ. مع حظرها، صارت الكتب عظيمة. وبالنسبة لحياة القديسين، الذين قتلهم البلاشفة، فقد جُمّعوا في أمريكا في رهبانية تايسي. هكذا صرت أقرأ بالتدريج.

كان عمري أربع سنوات، أذكر مرة حينذاك أن أمي طلبت من أبي مع ضيفنا، عمي ساشا صاحب اللحية الحمراء، القيام إلى العشاء، ومشينا في الممر الضيق، وأنا في إثرهما.

- سيكون من الضروري أخذ الكتب... - تمتم الضيف، وفجأة توقفا كما المسمّرين، لأن أبي مسكه بحدة من كوعه.

- كُتب؟ - سأل بصوت متحجر - أي كتب؟

تبادلا النظرات لثانية. عمي ساشا اقتلع نفسه من أرضية البيت وفي قفزة خفيفة لمس بأصابعه سقف الممر الواطئ. وانفجر:

- كتب للأطفال - بسعادة ورعب.

بعد ذلك، مشينا، برقصة غريبة وبلا ضجيج، إلى المطبخ، وقد مدّ كلاهما اليدّ اليمنى مع السبابة، بإثارة موجهين إلى زاوية حرف النافذة السفلي، إذ اخضرّ بتواضع جهاز التلفون.

ركضتُ إلى عتبة المطبخ قاطعاً إلى الأمام، مغامراً أن أكون مُداساً تحت الأقدام، متذكراً هذه الأصابع التي اخترقت الهواء الدافئ المُشبع.

أتذكر المشهد كما لو كنت أشاهده منذ دقيقة. مرّ كل شيء بسرعة، ولكن بشكل مشرق إلى حدٍّ جعلني أشتعل حماساً من هذه الاحتفالية.

رميت نفسي إلى الهاتف، انتزعت السماعة وصرخت بابتهاج.

- الكتب! الكتب! الكتب!

أوقعت أمي المقلاة، انتزع أبي القابس من مأخذ الكهرباء وعلّق صفحة القادح، أما الضيف فقد خطفني، أنا الباكي، من كوعي بحركة ضارية. هيّأ عينين جاحظتين جافتين بارقتين وأصدر صريراً مع صفير من لحية صهباء:

- أنت تريد أن يسجنوا أباك؟ لن يكون لديك أبٌ...

بعد مرور عدة سنوات علمت أن أبي، الذي سيصبح رجل دين، امتلك آلة طباعة صغيرة مخبأة في بيت فلاحيّ قرب مدينة ريازان. كان هناك

عدد من رجال الدين، بما في ذلك الضيوف، طبعوا كتباً: كتب الصلاة وحياة القديسين (بصورة أساسية - الشهداء الجدد، ومن ضمنهم العائلة القيصرية الأخيرة)، مرسلة نماذجها من مدينة جوردانفيل، ولاية نيويورك الأمريكية.

ولاحقاً ترحّلتْ هذه الكتب التبشيرية في روسيا، جيئةً وذهاباً. وفقاً للتسريبة التي سمعت، مفادها: كأني أصبحت ابناً للسجين. الهاتف - السلاح الرئيس لاستراق السمع - اعتقد العاملون السريون. هو حيّ. حتى إنه يسمع حين تكون السماعة موضوعة على العتلة.«الكتب، الكتب» - كانت تلك الكلمات المفتاحية الحلوة والكلمات المفتاحية التي يجب ألا تُقال.

كان عمري خمس سنوات حين اعتقلوا في كييف زوج إيرينا، وهي إحدى العائلات من معارفنا. فقد أتت لزيارتنا مع ابنتها كسينيا. كانت طفلة رمادية اللون، خائفة مذعورة بعينين كبيرتين جدّيتين. لقد سجنوا أباها بسبب كتاب. كان طبّل على الآلة الكاتبة، ظهر كما لو أن هناك تنصّتوا على الشقة عبر الهاتف، ثم جاؤوا للتفتيش عن صوت مفاتيح الآلة.

وأنا أيضاً، في العام السادس من عمري، تعلقتُ بالكتاب. ليس لأني أردت التوجه إلى ما وراء القضبان، بل لأن الحظر جذبني. لقد رسمت رجال دين مختلفين، ورهباناً، وموظفين في المطرانية كانوا مظلومين في أيام السلطة السوفياتية. صادر أهلي مني هذا الكتاب مع الخربشات الطفولية غير المتقنة، والوجوه الملتحية المعتمرة للقلنسوات والقبعات الكهنوتية. ما أردت أن أعطيهم الدفتر الطويل، خبأته تحت غطاء البطانية، ولكنهم لاقوه وأخفوه. طارت إليَّ رائحة الورقة المحروقة من المطبخ. خاف أهلي ولذلك احترزوا.

ولكني تابعت الرسم وكتابة كراريس الاحتجاجات والعيش المحظور. في أحد الأيام وبينما كنت غارقا في الخوف قررت تحطيم الخزانة التي رسمتها منذ هنيهة، وكانت مغطاة بالكتابة - وقد كان هذا تدريباً على ما إذا بدأت تتحطم الشقة بالتفتيش. لقد رأيت - ألا أحرق الأوراق، بل أن أغرقها. كدستها ووضعتها في لعبة وهي في شكل حوض حمام أطفال، هناك أيضاً ولسبب ما أوجدتُ مكانا لصورتي من ذلك الوقت الذي لا أذكر: حين كان يغطّس الصدرَ مني والغبطة [من الشعور الديني] في جرن المعمودية الأب المبجّل ذو الشعر الأشيب نيكولاي ستينكوف. ولسبب ما، فكرت أن هذه الصورة أيضاً دليل. بعد ترتيب الأوراق والصور، صبّبتُ عليها الماء وانحلّتْ التلويناتُ وبسرعة صار المحظور طبخةً ملونةً من الورق. لاحظ أهلي فقدان الصور، لكن لم أعترف لهم بما حصل لها.

وبعد ذلك، كما لو في فيلم الـ «خنجر» لريابكوف (أخذت دور الطفل - بيانكي، ابن الخوري في الثورة المضادة)، انتقلت إلينا، إلى الشقة رفاة العائلة القيصرية الأخيرة. نبش أحد الأدباء أولئك الناس الذين تمّ رميهم بالرصاص حينذاك وسط مستنقعات الأورال. وحفظ قسماً منها عند رجل دين.

أزرار، أقمشة، دبابيس، ثياب للزينة، جماجم وعظام - تلقفت العينان الطفوليتان كل هذا، ولكن شفاه الأطفال كانت مغلقة. لم يعرف العالم حتى الآن شيئاً عن هذه اللقية. لم يعرف الاتحاد السوفياتي، موسكو، فرونزة الساحلية، الفناء، ولم يعرف جار فانكا.

هكذا قضيت طفولتي السوفياتية - في شقة واحدة مع أسرة قيصرية.

(التناقض: جدتي فاليريا؛ أم أمي تعلمتْ في المدرسة الثانوية في يكترينبورغ في صف واحد مع ابنة يوروفسكي الذي قتل القيصر رميا بالرصاص).

خلال عام بعد أن ظهرت الرفات، (وأذكر الآن، وكان وقتها يهطل مطر قوي) جاءت إلى عندنا جانّا الدبلوماسية الفرنسية صاحبة الوجه الوردي المتواضع المسيحي. هي كاثوليكية، مؤمنة بالأرثوذكسية. كان من غير المسموح للأجانب أن يغادروا موسكو، ولكنها رابطة وشاحاً غادرت بالحافلة الكهربائية إلى زاكورسك في الصباح وعلى رأسها وشاح. وقفتْ طوال الموعظة في دير ترويتسكايا، واستدارتْ راجعةً. ربما يكون المدققون قد تعاونوا بصورة متهاونة مع أجنبية مؤمنة بالله.

لقد أهدتني كيساً من السكاكر، وقد رفضتْ أن تشرب الشاي، وتوجهت مباشرة نحو المكتب إلى أبي. وتشاجرا هناك. وقد تناهى إلى سمعي كما لو أنه تراشق الجندب الغبي. فاقد الصبر فتحتُ الباب، ودخلتُ على أصابع قدميّ. وكانت جانّا تغيّر وضعيتها باستمرار، وقد دارت حول الطاولة. واحدة من عينيها كانت مغمضة وإلى الأخرى حملت آلة تصوير سوداء كبيرة مطلقة مع الشقشقة ومضات الفلاش الغبية. كانت الطاولة مغطاة بغطاء أحمر لعيد الفصح، الذي فوقه، وبمسافة متساوية بينها، وضعوا العظام والجماجم، التي كانت معروفة لي مسبقاً.

اقتربت. وقف الأب لسبب ما في الزيّ الأرثوذكسي الأسود عند جدار الأيقونات أمام المذبح، الموضوع فوق صندوق بارز، حيث تنتظر دورها لتُخرَجَ وتُوضَعَ على الطاولة خزنة أزرار نحاسية، دبوس كبير بالأحجار الكريمة، وسواران فضيان، وقصاصات خضراء.

لوح بيده بصمت عندما شاهدني، طارداً إياي. أكمام بزته الأرثوذكسية تفتحت كالجناح.

في ذلك الوقت كان عمي صنع مستقبله بشكل ممنهج. كان عمي يسافر إلينا مرة كل نصف عام من مدينة سفيردلوف، حيث كان يعمل في لجنة المنطقة.

كان عمي رجلاً سوفياتياً نموذجيّاً، غاغارينيّ الأسلوب[1] قرير العين، مشدوداً، نشطاً، مرحّباً، مع وجه دائم الاستعداد للابتسامة. ابتسامة رجولية واسعة وناصية سوداء. غمازاتان على الوجه في عينيه مثل لمعان الشمبانيا. كان له صوت متفائل. العم «غينا» حفظ عن ظهر قلب كل الهتافات السوفياتية، واستطاع بنجاح أن يغنّيها. عندما وصل فاحت منه رائحة العطر. شرب هو وأبي عدة كؤوس من الخمر. عمي تغطى بفستان أحمر وبري، وبحلول العتمة نهض، أجرى تمارين رياضية لمدة نصف ساعة، وحلق ذقنه وبالماء نفَّ، وذهب مرتدياً بذلته، متأهباً وأنيقاً طوال اليوم، لأعمال وظيفية.

ولكن دخل مرةً ولسبب ما بلا ابتسامات. رمى معطفه على الأريكة في المدخل ولم ينتعل خفاً ومشى بالجوارب، جلس على مدفأة المطبخ منكمشاً، حتى إنه لم يجلب لي هدية في حين كان سابقاً أهداني كوز صنوبر ممتلئاً وكذلك جلب لي الجوز اللذيذ.

- أخي لقد قتلتني... - تهدّج صوت عمي ثم صار لطيفاً بشكل مخيف.

- لقد حطّمت سمعتي، لم أستطع أن أتحدث عن هذا بالهاتف. لقد انتصر الآن ستروتشكوف. كل شيء عندي مشى كالسكين بالزبدة.

---

(١) [نسبة إلى رائد الفضاء يوري غاغارين]. [المترجم].

استدعاني يلتسن. يقول: «هذا أخوك، هل هو رجل دين؟ كيف يكون هكذا ؟ كيف؟» وداس عليّ برجليه.

خطف عمي كؤيس الخمرة ودلقه في جوفه، نظر إلى الداخل، ربما سأل بشكل متوتر عن الأكثر أهمية لديه:

- لماذا لا تصبُّ؟

- من يكون يلتسن هذا؟ سأل أبي.

- هو رئيسي، هل نسيتَ؟ - أخذ عمي نفساً بشكل صاخب، فتح الزجاجة، وملأ الكؤيس.

- هل لك أن تعرف أن حياتي بالنسبة لك مثل الطبل لا قيمة لها؟ هل تعرف كم أكل من الناس أحياءً؟ كان عندنا فوروبايف. وبتوخينا ظلّ يشرب إلى أن أصيب بالذبحة القلبية. يلتسن صخرة جامدة! ستسمع عنه أكثر أيضاً! هو لا يرى... حتى لو وضعت أصبعك في فمه... هو ذبح كازلوف بيتر نيكولايفيتش في يوم عيد ميلاده؛ هنؤوه بصرفه من الخدمة، وأية تهنئة؟ - قبل أن يكمل كلامه قلب عمي بحزم المنتحر كؤيس الخمرة كلها في جوفه، وفي الحال قفز، ودخل إلى المطبخ.

قالت ماما بتعقّل:

- اجلس يا غنادي، لماذا أنت قلق هكذا. ألا يبدو لك يا ترى بأن كل هذا على نحو ما، ليس جدياً في مجال الحياة: كازلوف، بتوخن، ومن سمّيته أيضاً؟ سوتشكوف، نعم ؟ يلكين...

- ليس يلكين، بل يلتسن! ليس سوتشكوف، بل سترتشكوف - خطا عمي بالجوارب على مشمع الأرضية. - هل هذا جهاز! هذه سلطة! - هذا قدركم وقدري، وكذلك الجميع! لماذا أصبحت خورياً؟ ليس من أجل نفسك... وليس من أجل الناس... وليس وحدك ستجف، ولا حياة للوطن!

بعد ذلك جلستُ في غرفة أخرى، وتسمّعتُ إلى دويّ التحليل الآتي من المطبخ.

وهكذا، عرفت منذ سنيني المبكرة أنه فقط مع عدد قليل من الناس يمكن التحدث بشكل صريح.

كان هناك رجل دين اشتبه به أهلي على أنه عميل ك. غ. ب[1]. وقالوا: «سامحنا يا رب، إذا كنا عبثاً نخطئ بحق رجل بريء!». وقد زار أبي بكثرة ملحّة، وكلما وصل، كان يقول لي: «صه!». كان اسمه الأب تيرينتي. لقد فاحت منه رائحة البخور. لقد باركني فوضع يده على رأسي، تنشقت الدفء العطر ليديه الناعمتين ، ولكني شخصياً لم أجرِ حديثاً معه . وقد كان بشعر طويل أسود - أشيب ووجه بتعبير ثعلبي. دائماً كان يعود في حديثه دائماً إلى التاريخ بشكل مختصر، إلى قرون قديمة. وكان مصاباً بزكام مزمن. وكان يمسح ما يرشح منه بمنديل. وبسبب هذا الزكام كان لديه صوت رطب منهك.

- الأب تيرينتي، قالت له أمي مودعةً إياه،: لماذا تزورنا وأنت في حالة المرض؟ عندنا ابن صغير.

---

(١) [رجل مخابرات سوفييتية]. [المترجم].

وقد صدر تلميح في كلماتها إلى شيء آخر - هل تأتي إلينا بضمير نقي يا عزيزي الأب تيرينتي؟

سمعت أحاديث بشر ناضجين عن الخارج. ولكن في جميع أحلامي لم أكن يوماً في الخارج، عُجنتُ وعُفّرتُ هنا. لقد قدّرتُ عالياً شقتنا في البيت الكبير مع البيت الخشبي البرجي في المصيف. أحببت حفر الحفر والزحف في الخنادق، وأن أحرس مزوداً ببندقية وراء شجرة شوح عاضّاً غصناً، متذوقاً من على أسناني العصير الممضوغ الحامض - الطري والدائم الخضرة. تراب وغبار الطرق - هكذا كانت «زيارة» الحرب المرغوبة. كنت معفّراً بالتراب والغبار ... نعم، تقافزتُ لساعات على الأريكة مسبباً أعمدة الغبار الصغيرة كما لو أني مسافرٌ على عربة نقل محاطة بالرفوف ونحن نتحرك في البلدان. طلقات، مركبات مدرّعة، هتاف، فلاشات بيضاء في سماء ليلية، جرحى، ولكن ليس بشكل مميت، أصدقاء، وفتاة روسية صغيرة من جيلي ألقت رأسها على قلب القائد. عمرنا ست سنوات. حملة صليبية للأطفال. والقلبان لدينا يعملان بشكل دقيق، مثل المحركات الصغيرة: توك، توك، توك. وفلاش أبيض صغير ربط بعضنا ببعضٍ.

احتلال موسكو. ريح وانتصار. أيام طويلة. وفقاً للرسوم نعيد من جديد بناء معبد المسيح المخلّص. نجهّز بعثة لنقل المذبحِ المنقَذِ للهجرة إلى الخارج، نقتلع النقوش البارزة المحفوظة من كاتدرائية الدون. ساهم أبي في خدمة إقامة الصلاة على نهر موسكو، يرش مع الماء المقدس ماءً مدينياً مالحاً ثقيلاً، ويبدأ بناء معبد ضخم. وفي الوقت نفسه تبدأ الخدمات الدينية الخاصة لتنظيف هذا النهر القذر، لكي ينبعث من الموت، يُسعد وتصبح فيه السباحة ممكنة باطمئنان، كما في العهد القديم.

هكذا حلمت.

الآن أتخيل على نحو مغاير. لو كنت كاتباً سوفياتيّاً. لا، اسمعوا: نفترض كاتباً سوفياتيّاً. وماذا يعني هذا؟

والآخرون؟ عضو في المزرعة التعاونية؟ عامل؟ عامل منجم؟ عالم؟ عسكري؟ معلم؟ طبيب؟ اعتقد، أنه يحدث أن كل واحد ينتقل إلى ذلك الزمن، ويتخيل نفسه هناك .

كنت على عداوة طوال طفولتي مع الاتحاد السوفياتي، وما انخرطت في أكتوبر [ثورة أكتوبر] - وكنت أول واحد في كل تاريخ المدرسة يفعل ذلك. وأيضاً ما انخرطت في الطلائع الحزبية.

ومع هذا كله أشعر بالأسف لوطن طفولتي. أذكر إحساس الأصالة: الشتاء هو شتاء، والخريف خريف، والصيف صيف. أذكر من حولي جوّ الضيعة الكبيرة، حيث الفضائح بين الذين لا يعرف بعضهم بعضاً، كما لو أنهم أهلي، وغناء الأصوات النسوية، وجعير الأصوات الرجالية، والأصوات التي تصدر بلا اكتراث وبشكل هادئ، بحيث لا تخفى حتى على الطفل.

في خريف عام ٩٣، ورغم أنه كان متأخراً، عندما كنت مراهقاً، رددت الواجب إلى الاتحاد السوفياتي. هربت من البيت و اندفعت إلى الساحة.

كان المجتمعون هنا مرطّبين بالماء، بخار امتزج مع الدخان. عبر الغشاوة الرطبة لمعت المواقد من حين لآخر، هكذا، كما لو أن الشمس هلّت من المستنقع.

في اليوم التالي ظهرت الصورة الصحفية لتلك الساحة؛ وهو الاجتماع الأخير قبل أن تكون البناية البيضاء قد أحيطت بالأسلاك الشائكة. الصورة

مأخوذة من الشرفة. كانت صورة موفقة رغم أنها بالأسود والأبيض. الوجوه ملتفتة إلى الوراء، القبضات مشدودة، الأعلام مرفوعة، الشعب يصيح: «الاتحاد السوفياتي!».

هناك، حيث وقفت، دخان كثيف انبسط خافياً خمسين من الرؤوس، لذلك لم أكن ظاهراً في الصور.

كيف كنت خادم المذبح

عاصرت، ليس فقط التنظيم السري المعادي للاتحاد السوفياتي، لكنني عاصرت الكنيسة الحمراء - جزء مهمّ من الإمبراطورية السوفياتية.

في الرابعة من عمري في جمعة الفصح ظهرت أول مرة في المذبح. في معبد جميع متلهفي السعادة، نحن نشبه الكعك الصخري لعيد الفصح، مع دويّ كبير، وقبة دائرية وملائكة درامية رخامية في الداخل على الجدران.

بعد أعوام سأعيد الصورة لنفسي.

كان رئيس الدير الممثل (من ناحية الثقافة والدعوة) الأسقف كبريان، هو العم البحار في البحر الأسود كان أشيب ليس طويلاً، ممتلئاً. أحبّ المسرح، المطعم، والجلوس في حوض الحمام. كان كبريان سوفياتياً وسوفياتياً، رغم أنه، كما يقال مؤمن بشكل حار. هو من الطراز الساحر كمصطاف حازم. لقد خرج إلى مصطبة المصلين في الكنيسة، وفضح القنبلة النترونية التي تقتل البشر، ولكنها تبقي على الأشياء. هذا رمز الغرب. (حتى إنه سافر لزيارة رجل الدين منيو والأكاديمي شفاريفتش، كي ينشر دعاية من أجل «الحمر»). دعا في ليلة رأس السنة إلى عدم مراعاة صيام الميلاد: «غنوا بشكل حلو، كلوا النقانق!»

وهو أيضاً قال عن الجنة: «لدينا ما يمكن أن يذهب إليه المرء. جنة المجلس! جنة اللجنة! جنة المحادثة!». لم تربكه نهاية الكلمة الأخيرة. لقد حكى لأبي كيف غنى فراشيلوف في الحفلة التي جرت في الكرِملن. اقترب، وبصوت جهوري وعن ظهر قلب غنى مقطعاً غنائياً كنَسِيّاً مركباً لنقل آثار القديس نيكولاي. ولكن أمي تذكرت كبريان الشاب ذا الشعر الأسود الفاحم. عاشت بالجوار عندما كانت فتاة صغيرة، وجاءت إلى هنا. «جثوا على الركبة! ستالين مريض!»، وانهار الناس على البلاطات الحجرية لهذا المعبد الكبير. بلاطات حجرية مغطاة في بعض الأماكن بالحديد المزخرف.

في أحد الأيام نقلنا كبريان في سيارته «الفولغا» إلى البيت.

- هل يسمح لكِ زوجكِ بالذهاب إلى المسرح؟ أو إلى السينما؟ سأل أمي.

وسألني، متى وصلنا من السفر:

- هل أبوك قاسٍ ؟

- هو طيب - زقزقت على أن أهلي مسرورون مني .

- هل يسمح لك بمشاهدة التلفاز؟

- نعم - كذبت رغم أنه لا يوجد تلفاز.

وها أنا في عامي الرابع، في يوم تغيير أندروبوف ووضع تشرننكا مكانه، في السنة السابعة المضيئة من عمري، كنت أول مرة أدخل إلى مذبح الكنيسة.

الزي الكهنوتي، بمعنى اللباس، لم يتوفر لمثل خادم صغير كهذا، وبهذا بقيت في القميص ومّالات السروال. أحاط القس رأسي منحنياً مع تأوه:

غدة ذقن، أحمر شفاه، قبعة شتوية ذهبية اللون فاخرة، مع أيقونات مطلية مركبة عليها. مقبّلاً خديّ، («المسيح قام! ماذا يجب أن يكون الجواب؟ هل نسيت؟ يا بطل»). جالساً على كرسيّ حديدي وضع على ركبتيّ إنجيلاً قديماً مُحزّماً. وقد كان بحجم بدني.

بعد ذلك وقف بالقرب مني، انحنى، معانقاً إياي من رقبتي (كانت أكمام لباسه ناعمة بشكل لطيف)، وأنشد:

- انظر عزيزي ، السمكة ستنطلق بالسباحة!

راهبة في اللباس الأسود مع جهاز تصوير فولاذي، أصدرت نقرة لا تكاد تُسمع.

سأذكر للأبد أن كبريان قال بدلاً عن العصفورة - سمكة. ذلك ممكن لأننا وُجدنا في المذبح، والسمكة هي رمز قديم للكنيسة .

وبالتمايز مع أبي، صاحب النظر المتمعّن، والجديّ، الذي يُقوّم السلطة السوفياتية بصورة سلبية، بدا الباقون في المذبح متحررين من الأغلال. كان هناك الشماس غينادي، محبٌّ للفرح بشكل عظيم، خداه كبيران، وبنظارة دائرية صغيرة. وقد قصد أن يكون حليق الذقن («الملائكة كما هو معروف بدون لحىً»). «وكان هناك حبل مرفوع إلى السماء - وقد قرأ أمامي بشكل ممدود ملأ أرجاء المعبد، مشوّشاً كلمة ما للكنيسة الأرثوذكسية السلافية. وبعد أن قهقه بسبب غلطته، هازاً وجنتيه وممسداً كرشه فوق القماش الحريري، وأخيرا سأل نفسه بنفسه «أفي المصعد نحن؟».

في سنوات الحرية الآتية بعد ذلك، يبرحونه ضرباً في الحافلة الكهربائية ويفقؤون عينيه محطمين العدسات الزجاجية لنظاراته.

في المذبح كانت تلك العجوز عينها في اللباس الأسود، ماريا التي خبزت لي بشكل لطيف، وسقتني خمر الكاغروم مع الشراب المغلي من كأس فضي؛ كان المشروب من اللون عينه الذي على غلاف كتاب ماياكوفسكي «تنمو عنديَ السنوات» الذي أهدتني إياه على شرف أول أيار.

- أمي الصغيرة ماريا، أين صورتي؟ سألتُ.

- أية صورة؟

- هيا، تلك التي كانت مع فلاديكا! حين كنت أول مرة عندكم!

اخفض، اخفض صوتك، لا تضجّ أكثر من جوقة المعبد تصيح... في بيتي بطاطا في مكان آمن. سوف أشكل ألبوم صور مهماً. فلاديكا بارَكَ. سوف أرتب وضع جميع الذين يخدمون عندنا: الكبير و الصغير...

في آخر عمرها يحرمها المسؤولون الفاسدون من شقتها.

أفكر بخوف: ماذا لو لم يأوِها أيّ واحد من الأديرة؟ أين ستكمل أيام حياتها؟ وماذا عن ألبوم الصور؟ هل رموه في حفرة المجارير؟

كان هناك أيضاً في المذبح الراهب بوريس الراهب الأكبر في الكنيسة الأرثوذكسية، الذي سيصبح رئيس ديرٍ، محبّ البورش [الحساء]، وفطائر لحم أمعاء السمك (لقد خبزتها أمه بشكل ممتاز). وجه قرصان مكتنز باللحم فيه أثر جرح مقوس، يرتدي الكنزة الصوفية الأرخص. زمجر على العاملين في المذبح: «كثرة الطباخين يفسد الطبخة». حاكى الهيئة الكنسية بشكل مسرحي، صلى بغمغمة ونشيج، منقّلاً عينيه على الشمعدان المُسَبّع : يداه مرفوعتان مع كفين مفتوحتين. تمايلتْ وراء ظهره ستارة أرجوانية. تابعتُ في إثره كاتماً نفسي.

في عام ١٩٩١ يستلم الأب بوريس اللجنة الحكومية لحالة الطوارئ . وعندما تغادر الدبابات موسكو، يهرم فوراً، ويصبح نوّاماً وغير مبالٍ بأيّ شيء.

وراء عتبة المذبح كان هناك أيضاً عميد الجميع ذو الوجه المسالم المُعيّن من قبل السلطات («رجل مخابرات السوفياتية» - (همس الأهل)، ابن النعمة الكونت الإسكتلندي بجمجمته العارية، الصموت الأسيان، ولكنه كان يهديني قطعة كراميل في كل مرة نتلاقى، مع غمزة بحماس.

هنا، مات كبريان فلاديكا، في هذا المعبد الواسع الجميل، في الطوابق العليا إلى حيث تقود درجات حجرية طويلة، في صباح آذاريّ قبل البرسترويكا[1] بوقت قصير. توقف القلب. بين العجائز لمعت أسطورة، بأنه تعثّر على الدرجات، وتدحرج، ولكن الأمر لم يكن هكذا طبعاً.

في البرسترويكا سمحوا للكنائس أن تدق نواقيسها. ما كانوا علقوا النواقيس، بعد.

القائدة المرتلة للجوقة اليسارية، العمة الصهباء ذات الأنف المدبب أخذتني معها - تحت السماء إلى الاستطلاع. كان الطريق لسبب ما صعباً بشكل موحش. ظللنا نصف ساعة نرتقي سلالم صدئة. أصابنا العطاس وسط أكوام من الصحف الستالينية الصفراء، اختنقنا في ممرات ضيقة بدون نهاية، لكن بكل الأحوال وصلنا إلى الأرض الجرداء، كانت زلقة - بلون لُؤْلُئِيّ بسبب ذرق الطيور. وقفتُ على ذروة السلم مخرجاً رأسي من الكوة. عندما قفزت المرأة بإقدام، استدارت على رجل واحدة وكادت تطير إلى الأسفل، ولكن إنقاذاً خطفتها من رجلها الأخرى، وتنورتها الرمادية غطت رأسي كما الخيمة.

---

(١) [إعادة البناء في زمن غورباتشوف] . [المترجم].

أحببت هذا المعبد الكبير المهيب، هناك تقريباً لم أملّ، رغم أني كنت ألعب دور الأب الخوري دون إرادتي. تابعت الخدمة العبادية في البيت لعبت فقط دور رجل دين، نادى للصلاة، لوّح بالساعة المعلقة بالسلسلة كمبخرة، هازّاً بمنديل أمي فوق علبة الصفيح مع الإبرِ، كما لو أنها هضبة فوق وعاء...

وفي إحدى المرات مساء، بعد أن شبعت من لعب لعبة دور البابا الخوري، الذي هو في العمل، ألقيت نظرة على الحمام، حيث رعد ميكانيكي التصليحات.

- تلعب لعبة البابا! قال متعباً ومتوتراً، مرّغِماً إياي أن أجمد دون حراك. حسناً، لا تَحّتَلّ. لديّ أذنان في القمة. تذكر كلماتي: لا تؤمن في هذا العمل! أنا أيضاً كنت في الماضي أذهب إلى الكنيسة، أمي مؤمنة بالله بشكل عميق. بعد ذلك سمعت برنامجاً في الإذاعة أمعنت النظر، أيّ أناس هناك، هم كبار في السن وأغبياء، نعم، أولئك الذين منهم يسحبون المال، وإلى اللقاء. شكراً، أُتخمتُ! - مرر بحافة كفّه الأسود قرب حنجرتي.

غادرت الحمام، لا حياً ولا ميتاً، وجلست في الغرفة، صامتاً، مدققاً السمع، متى سيذهب حقّاً.

في سن التاسعة، أخيراً، ألبسوني اللباس الكهنوتي الذي خيط للراهبة ماريا، أبيض مدروز بخيوط ذهبية مع كرات ذهبية للأزرار على الجانبين، وحذاء طويل مغطى بالجلباب.

صرت أخرج مع شمعة كبيرة إلى الناس في وقت قراءة الإنجيل. أذكر، كيف وقفتُ أول مرة والشمعة ثقيلة، تأرجحتْ، بعد أن سال الشمع

على يديّ، تماماً مثل قطة تخدش، ولكن كان من الضروري الصبر. بعد ذلك كان بالمقابل ممتعاً الاستجابة للرغبة في حك جسمي، كانت عميقة وجامدة. في سن التاسعة نفسه، قرأت الصلاة - للقربان لأول مرة أمام كل من في المعبد. شرقتُ، غرقتُ، عمتُ، رنّ صوتي لديّ في أذنيّ - مائلاً للبكاء والقرف، وتقلّبت بين السطور السلافية فكرة واحدة: ماذا لو أضمن الأمان لنفسي وأسكت، ماذا لو أرجو، وأنهي كلمات الصلاة الآن، وأخرج راكضاً منصرفاً إلى ضجيج السيارات - ماذا حينئذٍ؟

عشية انهيار الاتحاد السوفياتي أعطوا أبي المعبد الأبيض الذي بالجوار، كنت في سن الحادية عشرة عاماً. كان في الداخل ورشة خياطة، كانت الماكينات في طابقين، لم يرغب العمال بالذهاب، وتشاجروا مع الجماعة التي اضطهدتهم - مستشعرين بشكل صحيح بأن الواقعية لم تعد ضرورية. أذكر الصلاة الأولى في المعبد. صلى الحشد بين الخرائب، ثبتوا الشموع بين القرميد. الجزء الصغير منه كان مغطى بالخشب المعاكس، من هناك ورغم أصوات المبخرة رنّ التلفون، وبخلاف الجوقة تناهى صوت نسائي شرير: «ألو!، ألْ! بصوت عال» - ورغم البخور تسرّب دخان التنباك، ولكن أيام المكتب مع التسمية الطويلة الصعبة كانت قد انتهت.

أُنشأتِ الكنيسة بسرعة. بعد الحقبة السوفياتية، كما لو أنه بتأثير تعويذة افتُتِحَ العهد ما قبل السوفياتي. على القبة زحفت لوحة جدارية: أعجوبة على بحيرة تيفريادسكي، واقعية نهاية القرن التاسع عشر: كثير من الأزرق، أجسام ذات عضلات، أسراب سمك تحت الماء، قارب صغير. في الفناء إذ غيّروا الأنابيب، ظهرت مقبرة، وعلبة كرتون ملأى بعظام ذات لون غامق، حوفِظَ عليها من الطقس، فوق سيارة الشحن، ودفنوها بعد إقامة قداس الميت.

أشعلت الفحم من أجل المبخرة وحرقت أصبعي، فاسودّ الظفر وكان الدمع. في المعبد عينه ظهر صرصار لا يمكن القبض عليه - سوقيّ، أحب الإجابة عن هتافات القديس، على مبادرته بشكل أسرع من جوقة الإنشاد. الطريق إلى قبة الناقوس لم تكن صعبة. رفعوا الجرس طوال اليوم. في الصباح التالي وكان ظلاماً ضربت الحديد بالحديد [الناقوس]، واحتدمت غيظاً مُصدراً قرقعة، وقد استيقظ من البيت القريب إنسان من عالم جديد، اندفع إلى المعبد متوسلاً السماح له بالنوم.

بدأت، كابن لرئيس الدير، أخدم في المذبح وظانّاً حقاً أن كل من هو بالقرب - الصغار والرجال - محكومون بقوانين هذه الحياة الجارية، وفق قواعد أي مجتمع إنساني، عاجلاً أم آجلاً سوف يختفي. الصغار سيكبرون ويرمون أمهاتهم الورعات.

أحد ما يُشتم لسبب ما ويمزق البدلة الكهنوتية، أحد ما يترسّم في الرهبانية أو يصبح رجل دين، ومن ثمّ يذهب إلى معتقد آخر. أحد ما يموت مثل ذاك الإنسان القديس صاحب العينين الزرقاوين واللحية السوداء، رقيق الصوت، المحبّ كثيراً لأمّ الإله. وقد دافع عن نفسه لسنوات ضد الإدمان على المخدرات، ولكن عرّجت إليه صديقة من الماضي فقامت بزيارته، تدهور ومات بسرعة.

في الثانية عشرة صرت أشعر بالضجر في المعبد، ولكني كنت ابناً مطيعاً. حلمت بشكل كامل بمغامرة: حريق أو هجوم على المعبد، الشيطانيون - قاطعو الرؤوس - حينها ألعب دور البطل وأنقذ الجميع، وبإبهار تتورّد الفتاة تونيا التي هي من أسرة كثيرة الأولاد. منمنمة، رقيقة، حريرية، تقف واضعة

نظارات أمها وإخوتها وأخواتها الثمانية بالقرابة وبالتبنّي، على الطرف الأمامي من الناس: أسترقُ النظر إليها عبر شقوق باب المذبح، وأجرف كتلة الشمع من بين الأصابع.

على نحو ما، في خريف عام ١٩٩٢، عندما وصلت مع أبي إلى الخدمة المسائية، كما هو دائماً، مبكرين، وقعت لي مغامرة.

كان الناس قليلين، عشرات. اختفى أبي في المذبح، أنا تباطأتُ، وفجأة التفتّ إلى الضجيج اللافت. ومن طرف بعيد اقترب إنسان راكضاً، ضاغطاً على صدره شيئاً مربعاً. أيقونة! شقّ الباب الحديدي. «يا إلهي» - زفرت الخادمة بغيظ من الشمعدان، وهي شخص مغتبط. بوثبتين وصلت الباب وقفزت وراءه.

لم أحس بالبرد وأنا مرتدٍ نصف كم، مستهدفاً اللحاق بالسترة الزرقاء. عبر صاحبها القطيع الكبير راكضاً. الأطفال يركضون على مهل، وأنا تقريباً وصلت إليه .ألقى نظرة من فوق كتفيه ومضى فوراً بخطاً واسعة. وأنا بلمح البصر توقفت ثم ركضت بسرعة أكبر أيضاً، علماً أني رأيت نفسي من زاوية: صغير ودون حماية.

وقف قرب البوابة الحجرية لدير مارفومارسكايا، واليدان على الصدر. توقفت بعد خمس خطى مع قبضتين منقبضتين وقلب واثب.

نادى بهدوء:

- هيا أيها الجرو! تعال إلى هنا.

- أعطني الأيقونة - صرخت مستخدماً الضمير «أنتم».

أدار رأسه بسرعة، مغادراً الشارع. لم تأت المساعدة ورائي بسرعة. مسارات تلك الأمسية - الخريفية كانت عديمة النفع. تناثرت ذقنه الشبيهة بالبلطة. ربما تكون متروكة هكذا خصيصاً كيلا تثير الاشتباه داخل المعابد.

- أية أيقونة قال هو بصورة أخفض أكثر.

- أيقونتنا! - قمت بخطوة وأضفت بشك. - هي لديكم تحت السترة.

- تصبح على خير، أيها الفتى الصغير - قال بشكل متقطع.

ارتجف بحدة، ونشاط غير متوقع، تابع العدو بَعْدُ من جديد، قاطعاً الشارع، واختفى.

ركضت وراءه مقترباً - ثمّ قفلت راجعاً. رنّ الناقوس. لدى الدخول في المعبد، كان هناك كثير من الناس، دلفوا إليه، حيّوني بنوع من الرجاء دون أن يدركوا طبيعة ما حدث. انحنيت لهم، ولسبب ما لم أقرر فوراً أن أدلف إلى الداخل، مخافة أنهم سيعتبرونني لصّاً.

هناك أيضاً في المعبد، في أحد الأيام، رأيت ماذا يحدث مع الأيقونة. الواعظ نيكولاي تغطى بالبلل، والأب أقام الصلاة. وقفت مديراً جانبي إلى الأيقونة، ممسكاً أمام الأب كتاباً. هنا حين يكمل قراءة البسط، كنت أقلب له الصفحة. لمست الزي السحري، البني - الأصفر، اللزج كنقطة العسل، الذي تمدَّدَتْ فيه أطوال متلألئة لمواليد جدد. وبعد، مقتفياً الآخرين، قبّلت، مستنشقاً بعمق رائحة ناعمة حلوة، وعن قصد فكرت: «لماذا، لماذا أنا غير مبالٍ؟».

في تلك الصلاة، صورونا مع الأيقونة، ولكنه مفهوم أكثر للأيقونة نفسها كما يقولون، وقد هدأت صورةٌ واحدة أيضاً.

أخذوني إلى أمكنة مقدسة مختلفة، أديرة، وأروني وجوهاً جبارة وباكية، عرفت الكثير من الكبار المشهورين، رجال الدين، وبرأسي غطست إلى المصادر الحارقة البرودة، ولكنني بقيت سلبياً.

كنت في كل مكان، ألم أكن في عيد الفصح في معبد بيت المقدس لنعش الرب، حيث، كما يُعتقد، النار السماوية لا تخفتُ والبروق الإلهية تمتزج مع ومضات أضواء آلات التصوير...

هل كانت هناك أي رؤى ولمسات نعمة؟

كان هناك شيء آخر. مع هذا اليوم الصيفي الخانق، خدم طوال الموعظة، وحقّاً في الصلاة، في أصواته الأخيرة ترقرقت الدموع في عينيه. في مكان مطبق العتمة دنا من طاولة الكنيسة حاملاً أيقونة العيد، ملقياً جبهته مع نقرة، وعارفاً بشكل حدسي امرأة طيبة في الحشد - قارعة الناقوس، يتملق راجياً: «أنا أموت...» ووقع عليها.

في صباحٍ باكرٍ، باردٍ وقاسٍ، لسع الجليد قرب مدخل الكنيسة، وخزتِ الشمسُ الحمراء العيون الناعسة. وقف على ركبتيه في حشد المذبح، انبسط مطأطأً الرأس وسط دخان البخور القابض، لم يلاحظ كيف غرق في غفوة.

وكان هناك أيضاً: مدبّر مسيحي وداعية. أنا ذو السبعة عشر عاماً، مشيت في مقدمة العملية، معي عصا خشبية، متوجة بمصباح من أربع زجاجات ملونة، الذي بداخله تعارك الضوء على فتيلة الشعلة. عشية التخرج المدرسي، تكاسلت منذ أمد بعيد عن الكنيسة، ولكن في هذه العشية ارتديت اللباس الكهنوتي الأصفر - البرّاق مع لون الشكولاتة، وذهبت لأجل العيد لكي أمنح السعادة لأبي.

مسكت المصباح بشكل متوازن وقوي، كمهنة، وأخذت أنشد، أغنية صلاتية أعرفها منذ الطفولة. وعلى الأثر تحرك رجال الدين بثيابهم الثقيلة الحمراء مع الشموع الحمراء. تطايرت فلاشات التصوير. حملت نسمة دافئة غناء جويقة الفتيات، وصفير كثير من الناس، الذين (رأيت هذا وبدون نظر) مشوا بشكل مقوس، ذلك لأنهم أشعلوا الشموع واحداً من الآخر، وأن الواحد في كل لحظة من المسير حتماً يضيع شعلته، وحتماً يعود من جديد، هكذا عدة مرات. أما مصباحي فقد كان محمياً بالزجاجات. سرت بهدوء وثقة، منشداً، والأفكار كانت سارحة بعيداً...

الشباب كانوا في المقدمة، بشكل ليس شبيه بالطفولة، وحرفت عينيّ إلى البقعة الساطعة. لوحة الإعلان وراء الحاجز: «الليلة ليلتك! زدّ ضرام النار». «أهنئ بعيد الفصح عدة مرات، بعد ذلك أخرج لأدخن» - فكرت بفرح ذاتيّ صامت كمراهق ومددت بصوت أعلى قليلاً: «الملائكة يغنون في السماء...»، وفجأة وخزني شيء ما في مكان ما في داخلي.

وتذكرت للأبد تلك الأمسية الربيعية، قبل عيد الفصح بخمس دقائق، صرخت «حقّاً قام!» وغنيت بصوت عالٍ، وتوهجت الخدود احمراراً، وتبادلتُ التهنئة بعيد الفصح مع كل واحد.

ولم أخرج إلى أيّ مكان طوال الخدمة الدينية، كما لو أنها شدت إلى حقيقة عارية.

ولكن بعد ذلك كانت مرحلة الشباب، وهي في كل الأحوال غير شبيهة بالطفولة.

المدارس

تعلمت في ثلاث مدارس - مأجورة، وكنيسيّة، وعاديّة. كانت الأولى اختصاص إنكليزي، قرب حديقة الثقافة. أجريت المقابلة بشكل جيد.

خلال سنوات كثيرة بعد الطفولة، قمت بزيارة لزميلة لي في الصف، لوّلا، هي الآن راقصة باليه في مسرح «البلشوي»، وقد وضعتْ شريطاً مصوراً. كان مسجلاً هناك أول يوم لنا في صفنا الأول. نقل مصور التلفزيون السوفياتي نسخة الشريط إلى أبي لوّلا الصارم.

من المثير، أني كنت مغرماً تحديداً بلولا إلى حد الجنون في الصف الأول ذاك. عشقتها بلمح البصر، ما إن جلست قربي في المطعم، هذه الصغيرة الحجم الحنطية، ذات العينين الدائريتين.«كيف يسمعون بدخول مثل هؤلاء الصغار - إلى هناك!» - فكّرت بإعجاب.

صورة ملونة. الأول من أيلول عام ١٩٨٧ . مدخل المدرسة. الأهل السوفيتيون أنفسهم كما أطفالهم. هكذا هم أطفال ممطوطون منشَّؤون طوال في كل البلد: الوجوه ساذجة وشقراء. قصات شعورهم متشابهة، رقة الوجوه تتطابق مع الأجسام المنمنمة. تلقي المديرة كلمة عبر مكبر الصوت، نظرة محنّكة، لفات شعر حمراء. الصوت يتضخم بشكل متزامن مع السلطة والهستيريا: «معاً مع وطننا وحزبنا بدأت المدرسة البروستوريكا صرنا منذ أمد قريب نساعد أطفال نيكاراغوا!» رجل ما أصلع بنظارات ضخمة كان يدخن، بخجل، في قبضته.

وجدت نفسي في الصورة - لولا تتخذ الوضعية عينها.

لم يظهر الأهل في الصورة، ولكن ها أنا في المشهد، واحد من خارج الكوكب، وجه حساس يقظ. حتى الغدة تحت الذقن - ألوان قرمزية جليلة.

يبدو، أن هذه الأزهار - هي متابعتي الوداعية فيها. عبر الأزهار ألحق بأهل الدنيا المحيطين في بوابة المدرسة.

لولا من جديد تقبض على آلية الحركة، يبعدوننا عن أهلنا...

أذكر بشكل ممتاز، كيف وقعتُ على واحدة طويلة في الكومسمول[1]، التي كررت ضاغطة على يدي، طوال الوقت ونحن راكضون:

- لا تخف مني، لا تخف مني.

- ولكن أنا لا أخاف.

أسرعنا، في اللقاء تهادت أغنية «ريح سعيدة»، هواء دافئ تمرّغ بالشعر، وكانت مبادرة حلوة، كما لو أن وراء عتبة المدرسة تنتظر معجزة مستحيلة. الأصح، كثير من المعاجز، الواحدة مستحيلة أكثر من الأخرى. لقد كان حبوراً خائناً، بدا أن الأهل بقوا وراءنا منذ قرون، ومنذ اللحظة كل شيء سيكون على نحو جديد.

لقد ارتقينا في المدرسة صفين اثنين، بلغنا الصف الفسيح، لقد وضعت باقة ورد فوق كومة من الورود الغريبة. أجلستني الكومسمولية وراء المقعد الأخير من الطرف، أعطتني كتيباً رقيقاً مبرقشاً مع توقيع «بيم - بوم» وتمنّت بكلام سريع: «تعلم من أجل سعادة الأم، ولإخافة الأعداء!» واختفتْ. فتحت الكتاب، كان فيها الجد، والفلاحة، ودجاجة الحكايات الشعبية. أجلسوا بالقرب مني ولداً صغيراً، منفّشاً، منفوخاً، مورّدَ الخدين، ذكر اسمه بصوت خفيض: «أرتيوم الطرشان».

---

(١) الكومسمول: اتحاد منظمات الشباب السوفييتي، أسست بعد الثورة البلشفية عام ١٩١٨ في المراكز الحضرية. [المترجم].

ظهرت آلكساندرا غافريلوفنا، أولى معلماتي. كان واضحاً لي من النظرة الأولى: هي تجمع الطيبة والقسوة. هي تشكّلت من شلل الصوف الاحتفالية: شلة كبيرة - البدن أقل - الرأس هو الأصغر - شلة مشيبة على الرأس. لاحقاً سوف ألاحظ كفيها: موردة بشكل مرضي، الخطوط فيها ثلجية البياض من التمارين المستمرة مع الصابون والممسحة.

- اكتبوا جميع الكلمات، التي تعرفونها!

أرتيوم لم يعرف الكتابة. ملأتُ ورقةً كاملة من الوجهين. على سبيل المثال، كتبت لسبب ما، «كبار السن». يبدو أن «الجد والجدة» المشاهَدَيْنِ في الكتاب ألهماني.

ومن جديد يقدم شريط التسجيل القضايا الممحوَّة من الذاكرة.

- في لبنان لا يوجد استقرار، تقول آلكساندرا غافريلوفنا باهتمام وتتنهّد.

هي تشير إلى مجموعة الصغار على قرب اللوح:

- يا شباب، قولوا بماذا هم يتمايزون عنكم؟ صمت عام.

- ربطات العنق الحمراء! رنين الأصوات.

الكاميرا ترحل إلى الزاوية البعيدة.

- انهض أيها الولد، ماذا لاحظت أيها الولد؟

أقف قلقاً.

- يرتدون ربطات عنق حمراء...

أقول، عارفاً، لن تكون لديّ ربطة عنق حمراء. أبي لا يسمح. لماذا، أقول؟ كجاسوس، من اللحظات الأولى في المدرسة السوفياتية، أتغلغل في

النظام؟ إما ورائي، فجأة اندفاعٌ: الانفضاض عن المسائل البيتية والالتصاق بكل شيء؟ وإما إنني ببساطة، أرى بشكل قوي، ولم أقوَ على الامتناع عن أن أكون الأول في الإجابة؟

- ما اسمك؟

- سيريوجا.

- ما كنيتك؟

- شارغونوف.

- يتغير بسهولة وجه المعلمة، وتتكدر. هي بطرقة ما تعرف لمن يكون هذا الابن. أنا أحب هذه المعلمة، وهي تبدأ بأن تصبح وصية عليّ، موضحة، أني أكتب وأقرأ، بصورة أفضل من الجميع.«رأساً ذهبيةً - ستكون يا سريوجا، تقول آلكساندرا غافريلوفنا، متبخترةً ذهاباً وإياباً قرب اللوح، - أنت تشبه كثيراً سريوجا غورفشكوف. كان عندي مثل هذا التلميذ، وهو حفيد الأدميرال!»

جاءت إلى المدرسة وهي ما زالت في الثلاثين. أذكر: وهي تحدثنا عن الحرب، وباحترام مميَّزة عبر تقطعات قصيرة، قالت اسم: «ستالين»، وسُمع الصدى. الآن أخجل إذ أتذكر كيف من صف إلى صف، كيف بوقاحة أكثر وأكثر عاكستُ دعاوى ألكساندرا غافريلوفنا، وهي وافقت بكل عجز قائلة: لقد حلّت البريسترويكا.

في الصف الأول أعدت الحديث كثيراً عن ملخص من النصوص المختارة عن لينين الطيب، والطيور المغنية، أو عن «مجتمع الصحون النظيفة»، الذي

حاصره إليتش لينين. ولكن في الصف الثالث مددت يدي واقفاً، سخرت من أغنية «دوبينونوشكا» التي صدحت عن آلة التسجيل المشغّلة من قبل المعلمة، وشتمت لينين بكلمات نابية تحت ضحك الصف، الذي يرتدي من البدلات والألبسة المألوفة خِرَقاً كيفما اتفق. (بالمناسبة، بهذه الخرق المختلفة يصير واضحاً بشكل جليّ من هو الفقير ومن هو الغني).

كنت مازلت في الصف الأول مطيعاً. حدثتنا آلكساندرا غافريلوفنا بصوت مدوّر مهم عن أن العالم منقسم. أرتنا فاتحة الكتاب الثقيل الذي هو هدية، الصورة التي تُحصد فيها حنطتنا الذهبية، وصورة أمريكا، حيث وسط دخان الغاز تحت ناطحات السحاب جلس المشردون أصحاب البشرة السوداء. «روسيا - نهار، أمريكا - ليل»، هكذا باختصار، علّمت المعلمة.

في الصباحات، غنى لنا وفد الطلائع المسرور أغان عن الثورة. مدرستهم سعيدة و مفلطحة الوجه صاحت بشكل رنان: «القيصر نام فقط على فراش من الريش وأكل الكعك!»[1].

فوق ذلك، أدخلوا إلى الدرس فخر المدرسة - عميد الصف الشاعر، وهو هجين بييرو ودورميرا[2]. ومن المحتمل أنه سعى إلى الميدالية الذهبية. كان له صوت مزكوم يمايل رأسه مع خصلات صدغية وزعق : «لينين مات، لينين مات، لينين مات...».

في دروس الموسيقا تقريباً كل الأولاد استعروا بشكل شنيع؛ أصدروا أصواتاً خنزيرية، وزحفوا من المقاعد، شاعرين لسبب ما، أن كل شيء مباح لهم تماماً. قادت الموسيقا، امرأة متوترة ذات عينين جاحظتين مع قصة سوداء مربعة.

---

(١) (العظام القيصرية كانت قد حُفظت حقّاً في ذلك الوقت في البيت). [المترجم].

(٢) [شخصيتان في الكوميديا الإيطالية]. [المترجم].

كيف لا تصير هنا متوتراً! أنا لسبب ما أشفقت عليها بشكل فظيع، حتى إنها تراءت لي في الحلم، وأفقت مع الدموع. كنت في دروسها أفضل الجميع، أكثر هدوءاً وأكثر موسيقية. بعد ثلاث سنوات ماتت بمرض سرطان الحنجرة.

لقد حكى لي جدي،

كيف خدم في الكرملن،

كيف الغرفةَ اللينينيةَ،

حرستُ ومعي البندقية...

بي... ي... ي - دوّى صوت شقيّ كامل، أندرويشا دروغوف، يشبه عجلاً أبله، بجوابٍ شرير يقطعه، باشا إيكيموف الشبيه بقطعة نقانق مهترئة، ابن الشرطي.

تضرب المعلمة براحة كفها أعلى البيانو بحنق تجديفي شتائمي متعصب. الجميع يصمتون، وعدة أصوات مسموعة، وهي بصورة أساسية - من الفتيات اللائي يتابعن الغناء: وها هو على الصورة.

جدي وسط الجنود،

يخطو معاً مع لينين،

مع البندقية في مسيرة العرض...

لقد كان أدائي سيئاً في دروس الرياضة. لم أتمكن من القفز فوق تيس القفز، ولم أستطع القيام بتمرين الضغط. وبحسب الطول وضعوني قبل الأخير، لقد كنت قصيراً. بعد حين سأتعلم القفز والضغط. أصبح الأخير، متخلف طهران، صغيرٌ جدّاً، كثيرُ العروق في عمر السبع سنوات مغطى بالشعر الأسود.

هو زأر، وكشّر باحتيال على البنات، وارتمى إليهن فاتحاً حضنه القصير، لكنه مكين... في الحمام شعرت بصدمة، عندما رأيته تزحلق بانتصار، وتبوّل بخرير مقرف، ليس في جورة المرحاض، بل على الأرض.

أستاذنا لمادة الرياضة عجوز أشيب مبحوح، طوال الوقت يتنهد بصفير منهك، لم يحبني أكثر من الجميع: كنت في درس الرياضة، في ذلك الوقت، الأضعف. نلاحظ، لأجل الصدق، أني حقّاً عندما كنت في العاشرة وثبت إلى ثلاثية الأفضل، رغم أنه مع درس الرياضة الذي جاء بديلاً للمعهود الميت، أيضاً لم أستحسنه. الآن العجوز ما زال حيّاً، بعد إخفاقي بالقفز فوق التيس، صعدت في الاستراحة إلى الصف. لدى مشاهدتي العجوز اختبأت بخوف تحت المقعد. سأل عني. قال كلاماً بذيئاً. «ولكنه في الحق هو يقرأ بصورة جيدة!» - سمعت صوت الجنية آلكساندرا غافريلوفنا. تمتم الساحر شيئاً ما وخرج مبتعداً.

تأمّرت آلكساندرا غافريلوفنا علينا بهدوء وثقة. سيطرت في الصف الموازي امرأة ليست كبيرة بالسن، وكانت مزينة بشكل مرقّش، وكانت تغلي من الانزعاج. لقد نقلوا لنا وحشيتها - هي صرخت، مشت مصدرة صوت خطوها، وكانت تنفجر لأدنى ذنب. عندما تقاطعتُ معها بالممر حينها، أشحت عنها - نظرتها أحرقت بشراسة، لم تكن متوقعة مسبقاً. كانت تتملّص آلكساندرا غافريلوفنا بشكل ناعم، ولكن بإيحاء جاد، اتخذت دور ممثلة. استطاعت أن تسحق بملامة. نعم كانت فنانة. أذكر أنها كانت مثلت بطة - هي تشبهها كثيراً جداً.

كان الصف من دون جدال من اليوم الأول عينه، مقسوماً. لوّلا على سبيل المثال، جلست على المقعد الأول، وتظهر الصورة كيف أن ألكساندرا غافريلوفنا تتوصّى، بشكل خاص، على البنت، تنثر المدائح، غير قادرة على تحمل سحر

السلطة. مدققاً النظر، وقف على الباب أبو لولا، الذي لُقبه الأرنبي معروف اليوم للجميع، هو الوحيد من الأهل الذي يسمح له بالدخول إلينا. والحقيقة أن الكاميرا تلتقط وجهه القوي الجامد.

لم يكن التلاميذ متساويين. لولا صوصٌ شرقيٌّ، مشت بالقرب من سيريوجا سوكولوف ذي العينين الزرقاوين، ابن الدبلوماسي، هي برعم وهو مخنّث وقح، دائماً كان يقوّس ظهره، وبهذا كان يمرّ على أنه أمير. كان هناك أيضاً الثري أركاشا. الشفة السفلى متدلية، كانت تلمع، طرف الفم معوجّ. متكبّر ودنيء. عندما كان صاحب الفم الكبير في التاسعة قام برحلة وحده من موسكو إلى نيويورك. في العاشرة جلب إلى درس البيولوجيا مجلة عراة. ولكن في الصف الأول كان لدى أركاشا عدد لا يُحصى من ملاحق المجلات.

الملاحق - التسلية الأهم، هي مغزى المدرسة! سمعنا في الدروس عن أمريكا السافلة، بحيث نرش بالبصاق في الاستراحات أسفل النوافذ، ونضرب بقبضاتنا الأوراق الملونة من العلكات الأمريكية - من يرجع الورقة بضربة، هي تصبح له. على قطع الأوراق ذات الرائحة الحلوة، التي هي أحياناً مرشوشة منذ هنيهة ببودرة عطرة من العلكة، كانت لوحات بيضاء اللون وصوراً.

بشكل ما، في الاستراحة، قرب دورة المياه، اصطادني ساشا ماليشيف، الذي كما بدا أن الفقر قدّم له جائزة من الشحوب. هو صاحب الشكل اللطيف، والأكثر وجلاً، فرز بأصابعه الرقيقة من مجلة كوريا الشمالية: شيء ما من البنفسجي لُوّنَ، ومتزلجون حملوا أعلاماً قرمزية.

- لقد اشترت أمي مجلة وخاطت لي. أتعتقدين أنه سيناسب؟ - سألت، خجِلاً وآملاً.

- جربي - قلت وذهبت متابعاً اللعب.

ساشا مرتجفاً بالقرب من اقتتالنا الهائج، بشكّ طوى الأوراق اعتباطيّاً، لم نعره انتباهنا، وأنا نعم تظاهرت كما لو أني لا ألاحظ. وها هو عندما صار بمحاذاة أسفل النافذة، انحنى الأطفال فوق القصاصات الساطعة التي مدّها (أوه، لحظة انتصار خاطفة للمسكين!) ولكن في البرهة الخاطفة التالية مسكين آخر وهو الطالب صاحب الدرجتين[1] أندري دروغوف بسرعة الطالب الممتاز صرخ - خذْ: برازك!

ضحك الجميع. دفعوا جانباً ساشا مع الضحك، لقد دسّ الأوراق بعجلة في الجيوب وهدأ، مقرراً ألا يذهب، وألا يقترب. كل اليوم، وفي كل استراحة، عاضّاً على شفتيه، تسكّع على حواف العراك. وقد صاح صوت من وقت لآخر: «أنت مجدداً مع تابعيك، لا تُعق اللعب بصورة طبيعية». - «موافق... أنا أيضاً - سأكون طبيعياً...» تمتم واصفرّ تماماً.

الطالب الضعيف أندريه صاحب الدرجتين مع ذلك، صار ساخراً أيضاً؛ «أمي تذهب إلى المصنع. لدى أمي توجد وسادة» - قرأت آلكساندرا غافريلوفنا موضوعه هذا أمام الصف المزعّق. وصاحب الدرجتين العبقري هذا، ذو الشعر المجعد، والعينين الجاحظتين، مع فتحتي أنف مدورتين، أيضاً سيفصلونه في الصف الثاني - سينقلونه، بحسب الشائعة إلى مدرسة المعوقين.

في الصف الأول ذاك رسمت كثيراً من اللوحات الصغيرة، ولصقتها في شريط واحد طويل، مشكِّلاً فيلمَ صورٍ متحركة كاملاً. حول واحد من كوكب

---

(١) [تسمية تطلق على الطالب الضعيف دراسيّاً في نظام التعليم الروسي]. [المترجم].

آخر، الذي وصل طائراً إلى الغابة، بعد ذلك وجد في المدينة. في الاستراحة أحاطوا بي، لفّوا الشريط، منهم من حاول أن يضحك مستهزئاً، وكانوا جاهزين ليمزقوا الرسومات، أما الآخرون فقد ساندوا بشكل حائر. أركاشا مثلاً، ماضغاً شفتيه (استيقظ فيه التاجر)، اقترح شراء كل الشريط مقابل سبعة ملاحق مع صور للاعبي كرة قدم أمريكيين. ولكني رفضت صور لاعبي كرة القدم. لقد أهديت هذا الشريط للولا. لقد طوته بصورة اعتباطية و حشرته في الحقيبة، وهكذا فهمت: لن يعيش إنتاجي ليوم واحد.

- كان عندي قمل - أسّر لي أرتيوم كلوخوف. - لا بأس، نُقلوا الكيروسين مدة يومين. تقول الجدة: هذا يعني أن الأمريكيين يصيبوننا بالعدوى. يأتون إلى المدرسة وينشرون القمل...

في ذلك العام عينه - ٨٧ شاهدتُ أمريكية في المدرسة. سجلوها في فترة الاستراحة وباعتبارها أمريكية، لديها الهدايا في رزمة كبيرة، وكان عليها أن تقدمها في الدرس، وهذا كان مفهوماً بذاته للجميع بشكل من الأشكال. ولكن هل من الممكن انتظار خمس دقائق؟ هل يمكن أن تصبحَ مقتنعاً بأن الهدية القائمة ستصل إليك؟ التفّ حشد طويل متسوّل مزدحم مطبق حول المرأة الأمريكية.

حقّاً حينئذٍ، بذهول، نظرت إلى هذا الفعل، إذ تجمّع أطفال ميسورون مختلفون، استشرسوا وكذلك البنات. «أوه! هيا! هيا!» - تعالى من العراك. تمزقت العلبة، صراخ السعادة! تاركين المبشِّرة، خادشين رجليها وزاعقين، تعاركوا لأجل جراء الدب الزرقاء والبنية. كانت جراء الدبب صغيرة بحجم جرو الكلب. وقد كانت قيمة الزرق السماوية أعلى؛ لونها أكثر سروراً.

لم أنتسب لطلائعيي أكتوبر. الوحيد في المدرسة طوال تاريخها. هكذا كانت إرادة أبي رجل الدين، ولكن إرادتي كانت مختلطة.

- لماذا لم تكن بالاستقبال؟ - تغلّب عليّ زملائي في الصف.

- مرضتُ.

- وأين شارتك؟

- ضيعتُها.

- إلى المعلمة، سبح سرب من البنات:

- ألكساندرا غافريلوفنا، اقبلي سيروجا! أجابتهن على نحو ما موحٍ ومداورٍ ولكن في روحي أسفت لأني لم أكن في العيد الاحتفالي، ولم أسافر إلى غوركي اللينينية، ولا أذهب إلى الساحة الحمراء إلى العرض. ولكن عندما كنت في السنة السادسة، العلم الأحمر المُهدى لي، في باحة البيت مع الصديق فانكا، مخفيّ في البيت بين الألعاب، وقد هَتكَ سرّه إشبينة. ومع فضيحة يرمونه في مجرور الصرف الصحي.

بكل الأحوال تمددتُ إلى المحظور؛ صوب السوفياتي. ولكن الكتب السرية المضادة للسوفياتي، والمجلات وأصوات المذياع، كانت جاذبة أيضاً. الازدواجية عاشت فيّ.

أنا واحد- منعزل بدون ربطة عنق طلائعيّة في الصور الجماعية الكبيرة للمجموعة الثانية «ب» من الصف.

عاشت الصورة معي ليس طويلاً، وضعتها بعد مسحها على الكنبة، حيث فجأة وثبت لولبيا من الأرض القطة الرمادية - المخططة بومكا، وببراثنها

الأمامية انتزعت كسرة. وضعتها جانباً، وأزمعت على لصقها في مكانها، ولكن كلّ هذا امتطّ، وضاعتْ. والصورة المثقوبة حتى الآن تتمرغ في مكان ما. أيُّ مغزى يبقى لها، الوحش قتلني، وأيضاً ثمانية أشخاص، ولولا من جملتهم.

في خريف عام ٩١ في غرفة موسيقا يتيمة كان مُنتظراً منا أن نرتّبَ ونعدَّ «الشعلة». كَنَست الفتيات ومسَحْنَ الغبار، وعبر النافذة المفتوحة تدفق الهواء.

على البيانو وبين النوتات وجد أحد ما صورة إيليتش[١]، لوحات إعلان مع الطلائعيين وصورة حادة بالأبيض والأسود: لينين، فاصل الضوء عن الظلام، مقطباً جبينه ينظر بشكل خارق مباشرة في القلب. ربطة عنق لينين سوداء فيها حبات بازلاء بيضاء.

باستسهال وغضب هائج انحنى الأولاد على هذه الأوراق! مزقوها كوموها خرّقوها، ومدّوها في الجهات، رشوا بعضهم بعضاً بالقصاصات.

نظرت، بدون مشاركة، مبتسماً. الحقيقة البنات اعترضْنَ، وفوق هذا تأوّهنَ بغنج، يبدو أنهنَّ مسرورات بهذه العربدة.

أما النوتات - فهذا ممنوع - تمتم ساشا ماليشييف.

ما المكتوب هنا، أيتها الحمقاء - صرخ باشا إيكموف، ممزقاً فوراً كل الرزمة، وأخذ وتصفح الممزق، مغمغاً: يلوتشكا، تشبوراشكا[٢]، رياح مرحة... ألقِ نظرة، من جديد عن لينين، العاهرة! - ومنحنياً، تحت ضحك الجميع، مثّل: «وهنا على الصورة / جدي بين الجنود / يخطو مع لينن /، ووقع في القرف...» - وشدّ بقوة من الحرف ومزق الرزمة نصفين.

---

(١) [المقصود فلاديمير إيليتش لينين] . [المترجم].

(٢) [شتيمة مُزاحية باللغة العاميّة]. [المترجم].

وحلَّ الأسوأ بصور لينن: خربشوها، ركّبوا قروناً، أنياباً وقلعوا العيون، على الجبين الحاد كتبوا كلمة ومن ثلاثة حروف [كلمة نابية باللغة بالروسية]، وفي النهاية - ألصقوها على الحائط بعلكة.

وصاروا يبصقون من مسافة عدة خطوات، متبارين - من يبصق عليها بشكل أفضل.

لقد صرت على غير طبيعتي. الشفقة على معلمة الموسيقا التي ماتت، ومن الواضح أن هذا هو الخريف الأخير بالنسبة للبلد السوفياتي، والخيبة من الانتصار الذي لا يُدفّئ - كل شيء انخلط في مرارة مستحكمة، تدفّق وانسدّ بشكل وقح:

- إي أنتم ! على رسلكم! أنتم...أنتم حقّاً! أنتم كنتم مع الأكتوبريين [ثوار ثورة أكتوبر]، أليس كذلك؟ وطلائعيين أليس كذلك [قيل بالإنجليزية: yes؟] لقد كذبتم، أليس كذلك؟! تراجعوا عنه!

هم لم يسمعوا. شاتمين متعجّبين، بصقوا بحقدٍ أكبر، وسرور وكثافة...

- إي، يكفي.

- أيها الرمادي، ماذا بك، أجننت؟ - استجاب أنطون كوجميا كوف بشخير وهو يشد مخاطه، وهو الذي كان بالغ الجمال، أشقر الشعر، وعقدة وصل.

انكسر شيء ما فيّ. وصلت طائراً إلى الحائط، مزقت صورة لينين، دنيئاً متورماً رغوةً، اندفعت في جهة وقفزت إلى طرف النافذة السفلي.

- تقفز؟ - سأل ساشا ماليشيف، مسلوب العقل رافعاً رأسه.

التقطني من رجليّ، ولكن تمكنت حقًّا من إنزال الصورة.

متأرجحاً على مهل، لينين المخيف المدنّس سبح من هذه المدرسة، وحملت الريح معه ورقة الشجر الميتة.

صفنا تفرّق بالتدريج. دخل طلابٌ جدد في الاستراحة الفاصلة. في الصف الثالث ذهبت لولا إلى معهد الباليه. عضّ الكلب بأعجوبة ساشا ماليشيف، وبدأ يدرس في النظام الخارجي. باشا يكيموف ذهب إلى المدرسة الرياضية، الآن يتحول إلى أب. وفقط كان مورّد الخدين أرتيوم الذي أجلسوني معه في أول أيلول وراء كتيبات «بيم - بوم»، أكملت دراستي حتى التخرج. إذا صُدِّقت صفحته على موقع «طلاب الصف الواحد»، وفقاً للصور لم يتغير بقوة جراء هذه السنين - بقي كما كان منفوخاً، مورداً، منفوش الريش، كما في ذلك اليوم حين كان لم يزل لا يعرف الكتابة.

أذكر الفتيات الجذابات وليس كثيراً. كانت جينا ميركولوفا طويلة ومتضجّرة، من الانطباع الأول عرفت أن خبرتها الحياتية شائنة في نظري. في أول أيلول عام ٨٧ وقفت فارعة الطول وسألت بتشاؤم: «هل لي أن أدخل الحمام؟ أما عندكم ورق حمام»، فوق ذلك كانت زيّنت شفتيها بشكل محموم. كانت هناك أيضاً فيرا سيرغييفنا المقاتلة التي لا تتراجع، التي كما لو أنها وصلت في الحلم، وهي ابنة عاملة النظافة في المدرسة. يوجد مثل هذا النمط من النشطاء المشائين في نومهم، الذين في عيونهم غشاوة وفي فمهم عصيدة الحبوب. لقد مشيت مع هذه الفيرا في وقت ما، مدعياً أني عاشق، ولكن أنا نفسي أحببت لولا. ولم أنظر إلى فتيات أخريات. أحببت فقط لولا وحدها.

حدث الانفصال عن مدرسة البلطجة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. انتقلت إلى مدرسة ثانوية مفتتحة حديثاً - قرر أهلي: هكذا سيكون أفضل. كانت المدرسة في واحد من دور أستوجنكي، في قبو بيت بالغ القدم. سقف منخفض، أرضيات معوجة مع مشمع مخرق.

مشيت إلى المدرسة الثانوية عبر فناءات البيوت، بين الأبنية التي حافظت عليها موسكو القديمة إلى موسكو أوائل التسعينيات.

لقد ظهرت المدرسة الثانوية خيّرة، ولكن بلا عقل. تعاديت هناك بسرعة مع الجميع لقد كانوا أطفالاً قدموا من مصدر واحد، أما قدومي فقد كان غريباً. إضافة لذلك ابتسمت عندما بأصوات رنانة أجابوا قرب المقاعد عن يسوع و شجرة التين، كما لو عن إيليتش وطيور الدوري. رغم أني كنت أجيب في حياتي المدرسية عن إيليتش، وعن المسيح. ولكن أنا واحد فعل ذلك بهدوء، بدون لمعان كاذب للعينين، بدون حماس صأصئيّ، هكذا بدا لي! بدأ كل صباح بموعظة صغيرة. قرأها ذلك التلميذ الذي أشار إليه أصبع رجل الدين - المدير. انتهى اليوم بصلاة النصف ساعة.

قبل الصلاة صورونا. الصورة الرئيسة، إذ إن الجميع متشابهون بشيء ما فيما بينهم، كعائلة كبيرة، من الواضح بسبب مثابرة الوجوه الجليلة. أما في المركز، رئيس العائلة، رجل الدين المبجّل والواثق صاحب الذقن الكستنائية المجعدة.

تعلقت الصورة في الممر بالقرب من برنامج الدروس طوال السنتين اللتين تعلمت فيهما. رجل الدين هذا كان طيب القلب، ومحبّاً للحياة، رقيق الجسم والصوت والرؤية. لقد علّم قانون الرب.

- كم مخيفٍ أن تسيء لأخيك! يجب علينا أن نتذكر أن المسيح يُعَدُّ بالنسبة لنا في هيئة أي إنسان. المسيح في كل شخص. وشتمنا الآخر يعني أننا نشتم المسيح.

أجاب الجميع في هذا الدرس بشكل رنان وخانع. ولكن حلّت الاستراحة، وتناثرنا في الفناء، أنا ابتعدت عن الثانوية، وقطعوا عليّ الطريق. وبدأ إطلاق النار بدون أي مبرر. تواطؤوا، وفتحوا إطلاق النار. أبرحوني ضرباً بكتل الثلج مباشرة، السبعة كلهم. في الوجه، في الرأس! صرخوا: «تيس! أحمق! شيطان!»، ولكنهم كانوا خائفين من الشتائم: الضربة الإضافية المؤلمة. «أشعلتُ وجهه المقرف بكتلة ثلج!» - ابتهج أوزلوف ذو العينين الجاحظتين صاحب القَصَّة القصيرة. «لا تتركوه!» - بتهيّج صرخ جورا الحنطي ذو الشعر الأسود.

- قفوا! أنتم كذبتم بكل شيء! على القانون الإلهي! - صرخت وأنا كلي أبيض من قدميّ إلى الرأس.

هم استشرسوا وقوّوا إطلاق النار.

على أساس أنا أخوكم! أنتم تضربون المسيح! - كتلة ثلج، متينة، على نحو نادر مرّغتني على شفتيّ. من المحتمل أن يكون إطلاق النار قد منحهم السعادة في زمنهم الحاضر الكئيب المفروض قسراً.

أيها الحمقى السخيفون! - ركضت إليهم بشفاه مهشمة من الضرب، وقبضتين مشدودتين، ووجه مشوّه بالصقيع. غادروا متناثرين في جهات مختلفة، مقهقهين بسعادة.

كان في الثانوية عدد من الفتيات لطيفات الوجوه، رغم أنهن كبيرات في السن، لهن عيون سمكية بارزة وضفائر شعر سميكة، وفي هذه الضفائر، في العطفات والجديلات، قُرِئ المستقبل: دخان كثير.

كان هناك أستاذ لغة إنكليزية ممتاز قاسٍ ذو وجنتين بشاربين أشيبين، مع صلعة لجنتلمان لطيف. وكانت هناك معلمة مخبولة للأدب واللغة الروسية، عجوز صفراء - هستيرية مغلوبة بالأفكار اللاعقلية التي قدمتها بسرور. هي تحدثت عن العلاج بالبول، وأن أم الرب ترعى آلا بوغتشوفا[1]. علماً أنها عرفت موادها التدريسية بشكل دقيق وكانت عظيمة على طريقتها. كما أذكر أيضاً عمّةً ما ضخمة غريبة لها وجه فيه بقع من توت العليق - في الممر، بعد الدروس أخذت تستكشف: ما إذا كنت التزمُ في جميع شروط الصوم، وعندما طلبت إليها شيئاً ما بخفة عقل ضربت الأرض برجليها، وطلبت مني دفتر يومياتي، وكَتَبتْ فيه بخط ممطوط بحبر أحمر: «لم تتعلم التخاطب مع الكبار!!!» لقد كانت شبيهة بربّة منزل مهوسة من فيلم «الضئيل»! أذكر، في الممر عينه ولدا مقلفطاً، كان ينقّل عينيه وينادي«أناخيما» (وكان موقناً بأن «الحرمان» [الكنسي] يلفظ هكذا تحديداً)، مرة وراء مرة وقع المهرج على مشمع الأرضية.

أيضاً فلاش كاميرا: الصيام العظيم، شمس حمراء داكنة، برد قارس مُقشعِر، سيرورة طلاب الثانوية. الثلج الذائب يبلغ كيلومتر. كل صباح نفعل هكذا. بالنهاية ترشح قرميدات دير بلدة زاتشاتا، ووراء حيطانه مدرسة للتدريس، حيث يطعموننا. لدينا طعامنا الخاص بنا: ملفوف مخلل، سميد الحنطة. يطعموننا بشكل منفصل عن التلاميذ المحليين بعد حادثة ليست بعيدة، حين أظهر أولئك التلاميذ بأصابعهم إشارة بذيئة المعنى من الطاولة المجاورة، ورموا بقطع النقانق، وتعاركنا معهم من طاولة إلى طاولة.

بعد فطورنا، مشينا إلى معبد الدير. وصل البطريرك. وقفنا دون تدافع على سلم خشبي مع الأوراق والفقراء وأولادهم. «من الشيشان هربوا للنجاة،

---

(١) [المغنية الروسية الشهيرة]. [المترجم].

ونحن تسممنا» - يقدم رجل يرتدي معطف من جلد خاروف بري تقريره بصوت عال. «يا رمادي، اعذرني ...أنك تراشقت بالجليد...» - يهمس أزلوف وينفض رأسه المجمّد ذات الحلاقة القصيرة . القداس منته، يمشي على الدرج، وبشكل رقيق ولطيف يبتسم البطريرك ألكسي، يضيئنا، يقبّل أوزلوف في قذاله المجمّد. بعد ذلك - يظهر المتلألئ رئيس الأساقفة أرسيني، بثياب العبادة والحرس مع كرة سوداء، وديم ديمتش فاسيلييف، هو رئيس جمعية الذاكرة. أوه، موسكو عام ٩٣...

بالمناسبة، نصف الطلاب من ثانويتنا صاروا شخصيات روحية. ذقون وذُقيْنات، وأثواب، أرى على موقع «زملاء الصف الواحد».

فتاتان صارتا زوجتين لخوريين.

لقد سئمت قيود الثانوية في السنتين الأخيرتين. وقد انتقلت إلى مدرسة متواضعة قرب محطة ميترو «فروزينسكايا». تعلمت فيها الوقت الأطول. وقد اعتبرتها وطناً لي.

بشكل سريع، بعد خروجي من المدرسة، حصل حريق في الثانوية: قصر دارة. ليلاً، حين لم يكن أحدٌ. لم يكن وقت للنار كي تصل إلى المكتب:

وصل رجال الإطفاء بإشارة الإستغاثة. ولكن احترق الممر بكامله. جالت الشعلة على الجدران، وهذا أمرٌ مفهوم، نزلت الصورة المقدسة من علٍ.

لقد استقبلتني المدرسة الجديدة بأحضان فظّة. كان الكثيرون أبناء عمال من «مصنع المطاط». تقرّبت بصورة غريزية من شقيٍّ عاصفٍ سيِّئ السمعة. أذكرك يا كوليتشييف، شاب دائري، شوارب جديدة، والملاكم المجدول

باكين... لقد شغّلت جيناتي الضارية. امتزجت مع البساطة، رغم أنه ليس في كل شيء، ليس في كل شيء...

الشقاوة أبرحت ضرباً أولئك الذين هم الأضعف. لقد حاولت مراعاة الشهامة، لم أشارك في الإرهاب. في أحد الأيام وأنا ذاهب إلى المدرسة تحاذيت مع صبي من صف أقل، ولا أعرف اسمه. لقد كان لقبه فقط معروفاً: داون. طويل محدودب، غثّ، يضع نظارات، إنسان حشرة مشى متثاقلاً إلى المدرسة، ليسمع من جديد لقبه ويأخذ لكمة.

- كيف يضيمونك! - من كل روحي المحسورة صرختُ. - وماذا أفعل، لقد اعتدت...

- فجأة اعتبرت أنه صوتٌ ذكيٌ. - كل شيء سيكون طبيعيّاً. ثلاث سنوات وستمر، وسوف أكون في جامعة موسكو الحكومية في قسم البيولوجيا...

أنا وبيمينوفا الملقّب «بِلِمين»(١) لم تسمم (السادي ريكوف، هو مغطّيه - معذّبه، كسر رجله على السلم، تعافى «بِلِمين»، نما العظم بشكل مشوّه، ورجع إلى الوراء. تحكم ريكوف بـ «بِلِمين» كما لو أنه شيء خاص به. أيتها المدرسة، أنت منطقتنا!). رغم أنه، كان من الضروري التقاتل كي تثبت نفسك دائماً.

بطريقة ما الشاب صغير سيِّء الحظ، الذي دون دم، عائلته: إيفانوف، لسبب ما، جلس في مكاني ورمى كتبي. كان ذلك تحدياً. إنسان قوي بعينين زرقاوين خارزتين خائبتين، لقد دُمّرتُ عينه. خبطته بقوة على محيّاه، إلى نقطة الاستناد، حتى الدمع ومخاطات الدم، حتى الاستسلام دون قيد أو شرط. لم

---

(١) [فطيرة اللحم] . [المترجم].

يكن بالإمكان غير ذلك. بالمقابل التقتْ أنماطٌ خيرة رائعة. كورزنين، صبي هادئ رائع ومتواضع. أخ يا كورزنين - روحك مثل الفطر البريّ، نعم مثل حَبّته. فيدروف - مُرفّه أرجواني طيّب، في الحقيقة شرب كحولاً في الخامسة عشرة من عمره، إلى حدّ لم يعرف أمه الحقيقية (حرفيا).

اشتريت بالسفاهة المستحقة ثقة البساطة الشريرة للأشقياء. أولاً، شربت الخمر في الدرس. تناولتُ من حقيبة الظهر قطرميز البيرة، واحتسيت عندما أدار أستاذ الرياضيات وجهه. أعطيت رفيقي ليحتسي جرعة... بعد الدرس شربنا والشباب معاً تقريباً، كل يوم. دخنّا في المرحاض. سكرنا... «الباصصص... الصصصيدلية...». علمني كبير الصف الذي لقبه فوفان، القفز. لقبوه كنوع من الحب فوفان صاحب نقرة اليد الجبارة. اجتاز الجميعُ التجربةَ. ولكن تنحيت عن الأصابع الملحاحة لهذا الـ بالْديّ. قفز رازوك ورائي بين المقاعد في الصف قبل بدء درس التاريخ بخمسة عشر دقيقة، وتوسّل: «هيّا أعطني، من أجل أن أهرسَ!»، وتنفس بصعوبة. من جهة أشفقتِ المناوبة - أبزياروفا الضخمة - التي تقف جانباً، ومعها مكنسة ودلو. «هيا تفاهموا - قالت غير مسرورة. سيرغي، هيا تنازل له » لم أطع، لهذا ضربني عرفاء الصفوف، في الفناء بعد نهاية الدروس. انتزعوا قبعتي، القبيحون، ورموها وراء السياج. وأنا لم أرها. ماذا يمكن أن أتذكر عن ذلك... أنا لم أكن المصيبة، أنا لم أكن حين ذاك ولا الآن، ولا قديماً...

وهكذا، اشتريت ثقة الأشقياء بالأعمال الطائشة. في الجدال دخنت، وفي درس الأدب. وراء المقعد الأول. رميت السيجارة المشتعلة في دلو البلاستيك. أججتُ فضيحة. ركضت المدرّسة إلى المدير. (وحين كانت تركض، سحبت زينوتكشا التي تعشقني ذات الشعر الذهبي والممتازة في الدراسة، واليابسة البنية،

السيجارة من الدلو وحملتها إلى المرحاض). لم يطردوني، رغم أنهم كانوا يستطيعون. بكل الأحوال كنت الأفضل بالتاريخ، والأدب ، واللغة الروسية. المدير المنهار الثقيل صاحب الذقن يشبه المسرحي إسترو فسكي، كان خيّراً معي.

مرة بدؤوا حفلة مسائية في المدرسة.

المرقص في القبو قرب قاعة الرياضة. ميلا سركسيان الضخمة الوضيعة، باللقب جوجو، تمشي رقصاً. سركسيان دائماً بالقرب مثل«الأم» - القوادة مع أليسا الجميلة العاهرة، التي تسلل إليها الأشقياء من الوراء، ليغرزوا أصابعهم تحت التنورة القصيرة. أليسا تزعق، تقفز إلى الوراء برشاقة، هي ملأى، تمتلك جمالاً جنوبيّاً قمحيّاً. ظلام وفلاشات التصوير، وأنا أشرب النبيذ على الفودكا لكسرها. أرقص مع يانا سافيليفايا الحذرة، والمتعاطفة. هي ترتدي كنزة رياضية بنصف كم عليها علم أمريكي، حين يسيطر في كل مكان طراز المستعمرات. وهي في حركة، تغني تانيا بولانوفا: «واضح يا ضوئي، اكتب لي...». يغني «الإيفانوشكيون»[1]. «نعم وفي السماء غيوم، كما الناس...». قشعريرة غناء نشط في أعوام التسعينيات، مع مجموعة من الزعران السكارى، متكئاً عليهم، أخرج من سديم ساحة الرقص، نأخذ ستراتنا من قاعة الكيمياء، ونمشي في الشارع الثلجي. نقع على الجليد نشتري زجاجة فودكا ٠,٧ «لقد صرتَ الآن فتىً حقيقيّاً»، يقول مشدوداً غوليتشيف. ينضغط «تروّ! لا تتسرع! لا تُوْقِعْ الخمر!»، يلحقه باكين. فلاشات - متتابعة. الصف، طعام مفتت على الطاولات المنزاحة. «لا تُغنّ جوقة يا أخي» - يقول ليوشا كابيشيف، الشاب الجدي الموثوق، الذي هو واحد من مجموعة الأُوائل في الصف. هو يمضغ الفطيرة وينظر بقلق. مرجعاً الرأس إلى الوراء، أدلق زجاجة في داخلي - بُلّ، بُلّ - ولا أشعر بطعم الفودكا.

---

(١) [من مدينة إيفان، المترجم].

نسيان. فلاش. عتم. تغني تانيا بولانوفا «واضح يا ضوئي...» من جديد؟ فلاش. شفاه ما، أقبل، أداعب شعراً طويلاً أوليسا؟ يانا؟ زينوتشكا؟ تانيا بولانوفا؟ فلاش تصوير. محّارة. ماءٌ باردٌ ينسكب على الوجه. فلاش. بردٌ. بردٌ قارسٌ. أقف تحت عاصفة الثلج في كنزة صوفية وحدها، هذا واضح، في الحق برد بشكل مخيف، وأتأرجح. «سيريوجا! سيريوجا ! ما اسمي؟! » أنقّل نظري من خلال العكر. «أنت لينا - بالكاد أكمل قولي - لينا كابونينكا». فلاش. يحملونني إلى البيت على الأيدي. تمرّ أمامي حروف حمراء، حرف ميم أمام الميترو، نجتاز عدوا جادة كوموسمولسكايا. يجتازون عدواً «لا توقعْه!» - يصرخ واحد. «أنت ماذا، أتخاف السيارات؟» يسأله آخر. فَشِلَ.

بعد الصف الثامن الحصة الأقوى من الزعرنة تتوجّت بالخروج من المدرسة .

كما أذكر الآن: في الربيع سوف أذهب للمدرسة. لملاقاة تغيير أستاذ الجبر والهندسة، ميخائيل نيكولايفيتش - المُدّخِن حتى النخر.

- يوجد هناك حديث - يُوقِفني، يمسك بيدي. انظروا، كم ذهب من أصدقائكم - هو يمطّ الكلمات بلطف.

- أليس كذلك؟ صوته يلفت حدّة النيابة العامة: هل أنتم واثقون أنكم تريدون الاستمرار بمتابعة الدراسة؟

- أرغب.

- ربما، سيكون لاحقاً أصعب لكم، ولا يستحق أن تعذبوا أنفسكم. هناك كليات، معاهد.

هذا هو الحديث. إذن لا دراسة متوسطة كاملة، الذهاب إلى المعهد التقني، ويصبح المرء ميكانيكاً، ربما لكان هذا يؤدي إلى الأفضل، أليس كذلك؟

لم أشرب، تقريباً، في التخرج متذكراً عن الحادثة السيئة لسكرة الشتاء. تنزهنا بالسفينة محتفلين ومنضبطين. نعم، نحن حقّاً أربكنا بعض الشيء واحدنا الآخر كما لو أننا التقينا بعد سنوات.

نشرب الشامبانيا على سطح القارب، الكرملن بمحاذاتنا يمتد مغموراً بالأضواء. «دع أطفالنا يصبحون آثاراً على الشراشف!» - يرفع كوستيان - سنكيفيتش كأسه البلاستيكي الصغير بشكل جامح شجاع غير رسمي. يلويني النخب الذي يرفعه. و أتذكر. باشا سابونوف يهزّ برأسه الشوفانيّ المسالم. يتأتى لكوستيان أن يموت خلال سبعة أعوام في رأس السنة - حادث سيارة على جادة الكومسمول. باشا سابونوف يتعفن في الجيش. أتذكر كيف على تلك الباخرة، في جواب على قول «شكراً»، ساحباً سيجارته، باشا أخذ يثغو حكايةً شعبية خرافية: «كلمة شكراً ليست مجدية، لا تطعم شيئاً مع الخبز...» مات في أيام الدراسة في منطقة نيجني نوفاغوراد.

أذكر: رجعنا إلى المدرسة، فجر أزرق، يجلس على حرف النافذة السفلي معلم «المعلوماتية والتقنية الرقمية» ليونيد إيغوروفيتش، رجل معروق، ويغني بكل قوته، بحيث صارت لثته ظاهرة: «نتمنى لكم السعادة/ السعادة في هذا العالم الكبير...»، في العام الثاني يفصلونه: أول مرة يحدث أن الغيظ يثقب أذن التلميذ النذل، ويفتحون قضية جنائية.

مشرفة الصف تاتيانا فيتالييفنا، المرأة الهادئة، مدرسة علم السياسة تقف مع الجميع مودعة، على درج المدرسة المرشوشة بالوبر. الشمس تنسرق بين رؤوس الأشجار، وتُذهِبُ الوبر المتوافر في كل مكان. «عندكم الشعر مصبوغ

أليس كذلك؟» - بصوت سكران متقطع تسأل الهيفاء والمنمشة فيكا دوبرا فولسكاي، وتسحب وبرة من شعر المرأة، كما لو أنها قررت أن تقول شتيمة في اللحظة الأخيرة على باب المدرسة. «مصبوغ» - تقول المعلمة بشكل مسالم. ستموت خلال عدة سنوات بانفجار وعاء دموي في الرأس. «نعم، بالنسبة إليَّ بكل بساطة تعجبني الصبغة، عجَباً أية شركة هذه».

- تبدأ فيكا تبرّئ نفسها.

- تاتيانا فيتاليفنا، خذيها - أمدّ آلة التصوير.

كيلا أسكر، فرضت عليّ مهمة مسؤولة: أجرُّ معي كاميرتها الغالية. وألتقطُ صورا. سويّتها؛ عشرين واحدة. على القارب كنت أوشك أن أوقع الكاميرا في الماء، بعد ذلك نسيتها في الصف، وبكل الأحوال حافظتُ عليها وأستمر بذلك.

- هل حصل شيء ما؟

- يبدو، نعم.

- ممتاز، - هي تسوي تسريحتها.

لقد أخطأتُ: شريط التصوير ظهر أنه مضاء. كيف ذلك؟

- الشيطان يعرف فقط.

عنكن، أيتها الفتيات

في طفولة قبل المدرسة التقطنا شريط تصوير في الفناء مع صديقي الألماني فانكا ميتس، من عشر قطع من الصور. في الضوء اكتشفت امرأة عارية بحجم الصرصور. تأملت وتذكرت هذا مع كل عدم خبرتي ومجهريتي في التصوير.

- سجق بالعجين[1]! - لفظ فانكا بصفير مبتهج.

هو طلب حرق ذلك الشريط بعيدان الثقاب، خوفاً من غضب الكبار. «هذا محظور من أجله يسجنون، الملتاثون عقلياً يرمون هذا» - قال حاكّاً عود الثقاب بشكل محموم. هو استعْجل، أنا ابطأت. قبل أن يحرقه، أعدت مرة أخرى رؤية كل الصور. حتى إنني مسكت الشريط الحار بيديّ، ناظراً خلال النار والضوء بحيث احترقت أصابعي.

كان لي خلال كل طفولتي حالات حب ملتهب. بشكل حار، محزن، متفان، انجررت مرة وراء هذه، ومرة وراء أخرى، التي هيأتها أزهرت داخل أعماقي ونفخت قفصي الصدري، كزهرة كلية القدرة.

وردات العشق حاولن علاقات بدون ثمار، مع أحلام مبهمة. صوتي صدح بشكل صاف، عيناي لمعتا بميل إلى المعجزة، وألّفتُ الشعر.

بعد أول قبلة طويلة دون انقطاع في طفولتي المتأخرة مع أكسانا غير الواضحة التي من جيلي، مشيت ثملاً جدّاً مدة أسبوع. لم أستطع النوم، خلال العتمة، مادّاً يديّ، أخذت من على الأرض دفتر ملاحظات وقلماً رصاصاً، بشكل أعمى رسمتُ خطوطاً، وولدتْ أشعارٌ: أيتها الأفاعي الذهبية الطائرة.

حتى إننا قبلنا بعضنا بعضاً بإيقاع.

- إيتكول... - تمتمتُ متذكراً البلدة البعيدة، حيث عاشت قريبتي العاملة الغامضة.

- فيتكا؟ - استجابت البنت، وأنا التقطت فمها المقَهقِه.

بنهم، ويدين مرتعشتين ألاعب العشق.

---

(١) [شتيمة شعبية]. [المترجم].

سمّوا الأولى عزيزة. كان عمري أربعة أعوام، وهي أحد عشر عاماً، استأجر أهلها بيتاً صيفياً قرب الحقل، الذي لي - مئتا متر قرب الدغل. ناظراً وجهها الحنطي، التصقت مثل الزنبور بالبقلاوة. لم أكن حينها أعرف الكتابة والقراءة، أمليت على أمي الإرسالية التي كان يجب أن تُنقل إلى عزيزة، رجوتها أن تأتي إليّ وتصير زوجتي. في يوم ماطر، طامراً أنفي بالزجاج، نظرت في الطريق الموحلة: ألن تظهر الحنطية. عبثاً، انتظرتُ. في الخريف في موسكو، قالوا لي إن والد عزيزة تُوفّي، الجار الذي صنّع المشبك الخشبي لحمامنا. لقد لمست الساق نقّبت حتى حفنة اليد، وفكّرت حول اليتيمة الرائعة ذات الحاجبين السوداويين مع عظم وجنتيها القاسيتين، وضحكها اللعوب الصادح في الحقل الصيفي، حين ركضتْ إلى أحضان أبيها.

في السنة الخامسة من عمري كان العشق مفروضاً عليَّ. الموضوعة الأكثر أهمية: عشق خائب. كان الأمر هكذا: جارة جدّة متاجرة بالتوت الأرضي [فراولة] نصحت حفيدتها المصأصئة ليزا باعتماد الاختيارات القلبية. «وتسأل أمي: «من أجل ماذا أحببتها؟» - قل لي: «من أجل جديلتها». تخيلت قطعة نقانق سمينة صفراء لدى المصأصئة متدلية من قذالها، وأومأت، خائفاً، برأسي بالموافقة. تحقق الذي قيل سابقاً: في البيت على سؤال أمي، من الواضح، أنه مقدم من قبل الخطيبة المرنة كتضليل، طننت بالموافقة: نعم «من أجل الجديلة». ونحن كل الصيف تنزهنا، تسكعنا، تلاحقنا الصديق وراء الصديقة، مع تلك البنت الصغيرة المدسوسة. وفي البداية كنت غير مكترث، وفي نهاية المطاف، اقتنعت بأنها بالنسبة إليَّ غالية، مع أنني لم أحبها، ولكنني بكل بساطة استسلمت للعبة التي اقترحها الكبار.

في السادسة في موسكو حدث ولع بـ غالا السمراء، وهي أكبر مني بخمس سنوات، جاؤوا بها مع أختها التي هي من عمري، ماشا الشاحبة - كلاهما تعلم الموسيقا. ليست على مثال ماشا المسالمة، كانت غالا شقية ووقحة، طويلة وساخرة، مع ابتسامة خبيثة. ولكن أيضاً. بشكل حالم. أتذكر: مساءً، شعر طويل يضطجع على الكتفين، أمسد بحميمية الشعر والكتفين، وتفحّ الشرارة المفتاحية الكهربائية، ولكني أتابع التدليك. غالينا تصالب رجليها على خديها الناعمين الحنطيين، يشتعل الاحمرار.

مات أبوها فجأة، تماماً كما الأمر بالنسبة لعزيزة، حتى إن السبب هو عينه: جُلْطة قلبية. ولكنه ليس فقط نجاراً، بل هو مغنّي أوبرا. الأختان غالا وماشا لم تعلما عن وفاته، لقد هيَّؤوهنّ، قالوا: إن الأب في مهمة رسمية، وقد سألتا أمهنّ وهنّ في هدنة: «كيف حال أبينا؟ هل سيأتي من السفر قريباً؟». - أنا أدرت وجهي، الدفن سراً. ولكن هذه اللعبة لم تلههن، حتى عندما أوكلوا لي مهمة تأخير الأختين، لأن أمهما كانت تنحب في الغرفة المجاورة، وبدأ أبي الجنّاز. أغريت الفتاتين بالذهاب إلى الحمام، فتحت الماء، قصدا، وصرخت بقلق: «تمهلا، الآن سأريكما، الآن!» - وبدأت أوخز بالأصابع بين أعواد المشبك الخشبي: «انظرن، الآن، الآن! سيظهر على سطح الماء حامل الدرع. هو يعيش في الماء». لقد تسنّى إلهاؤهن بحامل الدرع الخرافي في وقت الجنّاز، و لكن في المساء، ارتفع عندي اللهيب.

لقد صورتنا أمهما كلانا معاً بطريقة: زاوية - ابنة القيصر غالا وأنا، العفريت النهم، الذي يشذر عينيه إلى بريق الزاوية. كانت الصورة معمولة بكاميرا يابانية خارقة، تدب لقطة الصورة، وتظهر خلال خمس دقائق، أدرتها أيضاً خمس دقائق، لتبترد، ثم أخذوها.

أتذكر لسبب ما: بطريقة ما غالا احتدمت جنوناً وراء الطاولة. في نوبة الابتهاج أخذت تهزّ مع الملّاحة وفوق المزهرية مع الفواكه. مرت أعوام كثيرة، رأيت غالا، ليس من أمد بعيد، والآن انبعث من جديد على لساني طعم حبات الحصرم المملح. حصرم مملح - مرحباً عزيزة! لقد رأيت غالا في الكنيسة يوم عيد الفصح، لها أولاد كثر، لكنها تتلألأ، قدّ رقيق. سألت أين تلك الصورة؟ لم تتذكر ولا عن أية الصورة. «هل تتذكرين، ملّحت الحصرم؟». - «أس؟» [= ماذا،] - سألت ثانية مع ابتسامة خبيثة. قالت: إنها تعزف على القيثارة، وتستطيع إعطاء درس.

أريد أن أرجع مرة أخرى إلى لولا، التي من الفصل السابق، وهكذا رأيتها في مطعم قبو المدرسة، على طعام الفطور. صغيرة الحجم، حولاء العينين الدائريتين البنيتين، التهمت فوراً قطعتي جبن مطليتين بالسكر، ما جعل خديها منفوخين بشكل مدهش.

اتصل بعضنا ببعض هاتفيّاً. أنا اتصلت بها أكثر.«لوليك! - رعد صوتٍ رجولي - لكِ!» الصوت خصّ أباها. «هو على ما يبدو وزير الرياضة» - كما أخبرتْ أمي معلمتَنا آلكساندرا غافيرلوفنا بنصف همس.

وهناك في الصف الأول، مكرراً متصنعاً، عشقت فتاة شاحبة تحت كومة شقراء، وهي تشدّ رافعة سروالها طوال الوقت. ورأيت أنها مقبولة لدى البنات، وقررت عبرها أن أكون أقرب أكثر إلى لولا، ولعلني أتمكن من إثارة الغيرة لدى الصغيرة المتعجرفة لولا. فيرا سيرغييفا، لقد سميته تصنّعا للحب، وليس حقيقياً. على مدار عامين متتالين مشينا معاً عبر السخرية، وفي النهاية أجلسونا في مقعد واحد، و في البيت، استقبلت خانعاً التندّر فيما

يخص «روايتي». صبرت على كل شيء، لعشقي لـ لوّلا. بعد ذلك ذهبت لوّلا إلى معهد الباليه، وبشكل سريع تركتُ فيرا.

وللذكرى عن لولا كانت هناك صورة الصف، المعمولة في قاعة النشاط. بيننا خمس بنات. القريبة جدّاً مني فيرا بوجهها المتبدّل. لولا تبتسم بصورة غير صادقة، ولكنها ساحرة. هي قاطعةُ طريقٍ صغيرة. وفي رأسها مشبك شعر. عيناها مضيقتان منذرتان بالشؤم. يبدو ، أنها أخفت شيئاً ما. قطعة جبن مطلية بالسكر وراء الخدّ؟ حقّاً، لقد قلتُ: على الأغلب قطتي مزقت الصورة، قافزة بصورة غير موفقة على الأريكة. الصف مُبَاد ليس بالكامل، حتى المعلمة تتباسق مع كومة صفة الشعر، ولكن عشرة أشخاص من النسق الأول، ونحن من عدادهم، مكسورو مخالب الكف.

من جديد التقيت بـ لولا عندما كان عمرنا فوق العشرين، لقد مَثلتْ جديدةً بشكل تام، ولكن ممتازة حتى القشعريرة - مرنة حمراء الشفتين. بصورة رئيسة، لم تتغير، ولكن الأساسي في الإنسان - هو الإحساس. الإحساس بها كان ماسّاً كما في السابق، ومؤثّماً: قاطعة الطريق في الحكايات الخرافية، تدغدغ بسكين كبيرة حنجرة الأيل.

في العاشرة من عمري، صيف الـ ٩٠ كنت مع الشقراء يولا على طاولة واحدة في «بيت الإبداع» لكتّاب على ساحل البلطيق. في الطفولة سافرت مع أهلي عدة مرات إلى مكان للاستراحة الصيفية لكتاب السوفييت، في حين يولا وصلت من السفر إلى لاتفيا مع جدتها، الطيبة جدّاً والساخرة قليلاً. المتذمرة التي لم تكن قطّ سجينة، والتي هي الآن بياعة تذاكر في البيت المركزي للأدباء. الاتحاد السوفياتي مشى متجهاً إلى القاع، اللاتفيّون وسّخوا بشكل نشط؛ الناثر

زاليكين، الشاعر ميجيروف، الناقد لاكشين، والصحفي تشاكوفسكي في إيقاع الكارثة طنّوا بيأس بالأكاذيب. وأنا وقعت بالعشق. الآن، معيداً النظر في كل الصور المحفوظة، إذ نقف قرب بركة خضراء نتنة أو بحر (حتى إنها في الصورة باردة ووسخة، و- و) رمادي. ألاحظ بعض الانتفاخ على يولا - اللعبة المطاطية. لعبة جميلة بالقرب مني على الصور.

عينان زرقاوان كبيرتان، الفم شريط وردي، شعر ذهبي مجموع على خلفية الرأس، الفستان - أبيض و سماوي، هو مظهر متسوّلة ساذجة. وانتفاخ عام - الوجه و القامة - إلى هذا الحدّ مليحة في عمر الحادية عشرة (كانت يولا أكبر مني بعام واحد).

لقد حظيتْ بنجاح. «هل حقيقة أن يولا جميلة جداً؟» - قال لي في أذني الصبي ميشا في عتمة قاعة السينما، حين خرجنا معاً بصعوبة، تحت توقيعات نهاية فيلم عن شاولين. لقد رددت عليه في اليوم التالي على الشاطئ: «في حين أن أحد الصبية سألني...». «من؟ هيا، أي واحد، قل لي من فضلك!»، حين سألتْ عن الاسم، أطالت وتوجّعت، شعرت بإثارةٍ حلوة، رغبت بإطالتها وإطالتها. لم أتمكن من الاحتمال: «ميشا»، - مسرورةً، همهمت متشككة و كفّت عني، وأنا أحسست الحنين.

قبل وصولي من السفر، سيقت يولا من قبل اللاتفيين، وبشكل خاص - من قبل الأكبر سناً منهم، وهو يان الملفوح حتى الاحمرار، وأبيض الرأس: هو ساق على دراجته بين الكثبان، مثيراً الغبار الرملي. عندما وصلت وظهر أني معها على طاولة واحدة، تركت الطائشة البلطيقيين وتحولت إليّ بصورة كاملة. والآن في وقت التنزه في الحديقة، هاجمتنا بشكل منتظم عصابة من اللاتفيين

صغار السن. لقد كانت مظاهرة احتجاجٍ وغيّرةٍ. كشّر يان عن أسنانه القوية: «شاري... ي... ي بوبراااا...» [المقصود: صحّح يا شاري].

كجوقة إنشاد، تجمع الفتيان بسرعة وراء القائد الغيران. لقد كانت الأغنية الأكثر اختصاراً للغيران (خليط من الألوهة والكراهية)، كنت قد سمعتها في أي وقت. صرخ الغيران بشكل ممطوط: «شاري ي بوبراا...». يا شاري! صحح! لعيني شار الزرقاوين أعلنَ الحربَ - هما عينان عظيمتان جدا، صححهما [ل لولا وحبيبها]، لا تنظر، اختفي يا زرقاءَ العينين...

بطبيعة الحال، دخلت معه في عراك، وكنت مضروباً إلى حدّ ما مع أوصاف مستهجنة، وصيحات تشجيع الكلاب في مطاردة الوحوش من قبل أصدقائه. مرة أخرى التقى معي أنا الذي كنت استلمت لتوي هدية من أبي، مسدساً مائياً شفافاً بلاستيكياً، في عيد الاسم [العيد الشخصي في اليوم حين تحتفل الكنيسة الأرثوذكسية أو الكاثوليكية بذكرى أحد القديسين الحاملين للاسم]. لقد خرجت من الباب الزجاجي ملوحاً بسلاح مدهش. يان سبح في الدراجة النارية الملقاة، رفع عينين غائمتين، لفظ بضجر: «يولكا بـ - دولكا» [شتيمة شعبية]. خلال وثبتين وصل إليّ، اقتلع بكفه السوداء اللعبة من السمنة [دلالة على الصعق] - وبدأ يبتعد بقفزات واسعة احتقارية. لقد لحقت به عند البركة الخضراء، إذ غطّس يده حتى الكوع. «أعطني!» - الرامي اللاتفيّ سدّ فمي بسيل قوي مندفع من المياه المنتنة. وبعد ذلك حطم المسدس الصغير بقفزة مشؤومة.

في ذلك الصيف لولا اللعوب دعتني إلى عندها. كل يوم لعبنا بالطبيب، متحسساً كلٌّ منّا بطن الآخر. وعجنت نهديها كل يوم، باهتمام، حتى صارا منتفخين قليلاً. أتذكر: محطّماً... رقم الفنجان، هي فتحت يديها ووقعت انكباباً

على وجهها، وهكذا استلقت طوال خمس دقائق ووجهها في البطانية واليدان على الجبهتين، كما لو أنها دعت للاستلقاء و المعانقة.

هي سافرت قبلي بأسبوع، وفي البستان حيث نمت فروع الياسمين البري ذي الطعم القابض الذي يلطخ اللسان والشفاه، قالت بصوت متساءل ضعيف، بشكل مدهش: «غداً أنا مسافرة... هل علينا أن نعذر بعضنا بعضاً؟». إلى ماذا دعت، إلى قبلة أم للمكاشفة بالحب؟ آه، كم مرة قلّبت هذا المشهد غير المكتمل!

لقد التقيت يوّلا منذ سنوات. هي ضخمة متينة، مديرة شركة تأمين. لم نعرف عن ماذا نتحدث. أذكر جثة خنزير مرمية على شاطئ بحر البلطيق الوسخ. لمعت في الشمس عيون ميتة، كما رقاقات مسودات الصور. ولكن ماذا كان على الرقاقات؟ من الواضح أنها ستكون غربة يولا وسريوجا.

الشقراء التالية اسمها جانا. كنت صريعها في الفترات الصيفية من عام ٩١ إلى عام ٩٢؛ عامان متتاليان و ثلاثة أشهر اشتعلت نار حبي لها. كانت جانا خرقاء، حيوية، طفولية، صرّاخة مع أسنان أمامية بارزة.

لقد صوّرنا أبوها، الحزبيّ عشية غ. ك. تشي. ب[1]. لقد بحثت لوقت طويل، «على أية خلفية» يعيننا. واختار المتجر لسببٍ ما. تلك الصور لسبب ما لم أرها.

قرّبتنا النزهات على الدراجات الهوائية. سافرنا في الطريق المغبرة للقرية، ارتمينا بإعياء على مصطبة قروية فوق حشيش عالٍ قرب خط القطار الحديدي، ولم نقرر أن يقبِّلَ بعضنا بعضاً. الطفولة طارتْ مع عربات النقل الكهربائي... بعض الأحايين جمعنا الفطر، ولبعنا كرة الطاولة. كل مساء، قبل النوم تخيّلتُ جانا الصغيرة

---

(١) [اللجنة الحكومية لأعضاء الحزب]. [المترجم].

المستلقية تحت الأغطية وبشكل مُتخيّل، عبر الشارع، فوق الحكورات، عبر السقف أرسلت سهماً نارياً إلى قلبها اللطيف.

كان القلب الكبير، المخترق بالسهم الطويل، مرسوماً بشكل سيِّئ بالأبيض والأحمر على القبو عندها في الحاكورة، وقد حزرتُ لمن هذا السهم حقّاً، وغير شاكٍّ لمن هذا القلب.

في الصيف التالي رأيت علاقاتي مع جانا على ضوء التلفاز، إذ عرضوا حينئذٍ سلسلة حلقات ساحرة لروسيا كلها من أمريكا اللاتينية. لقد شبهت نفسي مع البطل الأفضل للمسلسل «لا أحد إلا أنت»، وهو معطاء، كريم، حماسي، لبستُ، مثله قميصاً أبيض، مفتوح لثلاثة أزرار، مثله. ابتسمت بعينيّ. وبحركات وجه موصّوصة، مرّرت لساني تحت شفتيّ فوق اللثة. للأسف لم تنبت الشوارب. ضبطتُ على جانا الشقراء نموذج البطلة المكسيكية المتوقدة التي تغوي بشكل شرير. أقلقني الرد التبادلي من قبل جانا. هي لم تكن غير مكترثة كما يبدو لمكسيم الوقح (لقد سميته مكسمليانو)، الدنماركي، عدوي؛ كنا نتقاتل صيفا وراء صيف: حيناً ألقاني تحته، وحيناً آخر بالعكس.

نعم، نعم، فقط في الطفولة تيّسر لي أن أعشق! بشكل منمق كما يقدمون العشق في المسلسلات التلفزيونية. الولع بشخصية أخرى، التي تتخذها على أنها سبيكة ذهب، تعبدها، ولكن في كل الأحوال نواقصها تجعل العشق أكثر لهيباً. الحياة مضاءة، وأنت ضعيف النظر.

في الطفولة كل شيء مصحوب بالخجل. ينمو الخجل من عدم الرؤية، من عدم الثقة. في الطفولة، منفصلاً عن الحبيبة، أنت تصالحتَ مع هذا - حسناً، لم تهرب من الأهل وراءها مقتفياً الأثر، ولكن لم تطلب من الكبار أن يرتبوا

لكم لقاءً في منطقة جديدة. حتى إن كلّ ما اتصلتُه هاتفياً مع جينا في موسكو، كان مرة واحدة (محترقاً من الخجل). ثم، كم كان خجلي عظيماً حين اقترحت عليها تبادل أرقام الهواتف! هنا يكون ضرورياً أنْ يُلاحَظ أنه في الطفولة المتأخرة يصبح الخجل أحدَّ، لأن الاهتمام الجسدي ينمو. بلا شكّ ولا خرف وأنا ابن سبع سنوات، أدرت رقم هاتف لولا، ولكن في الثانية عشر كلفتني المكالمة إلى جانا ليتر دم متدفق إلى وجهي.

هي سنين الحلم الأفضل، والخفر والإخفاق، الملعونة!

في الخامسة عشرة، متوجهاً إلى باريس، وعدت أوليسا، الجميلة بشكل ناصع، التي من صفّي، وصاحبة السمعة السوقية، أن أجلب لها هدية.

لقد تباهت في الصف بأن سيريوجا وعدها أن يكون ضيفها. اشتريت ما هو قطعة صغيرة (تمثال حديد صغير لبرج إيفل)، وصلنا بالطائرة، مشيت بالممر (البرج الصغير في حقيبة الظهر) البنت جالسة على حرف النافذة السفلي، أشعت بشكل جذاب بشفتيها في البهرجة اللامعة وعينيها المزينتين.

- مرحباً! - ابتسامة مزيتة ملساء - هيا قل، كيف باريس؟

- عادية، اعذريني سأذهب إلى الصّبية...

أشعر بالخجل حتى الآن لمزية الخجل المشوهة التي لي.

رغم أنني أمتلك تبريراً نسبياً: لقد خفتُ إثارةَ سخرية الصف، باعتباري ميزت بهديتي البنت السوقية عن كل البنات.

حسناً، بعد ذلك كان البدن والبدن. طلاب المدرسة، أولاد الشوارع، الجامعيون، تعارفات النوادي.

لكن لم أعد أقوى على العشق بعد اللقاء الأول في السرير. فجراً دَفَقْتُ الدموع في الغرفة راشّا إياها حتى السقف العالي، والأشعار ماتت، الصوت اخشوشن، الرؤية وجدت دقتها.

في أحد الأيام كانت آنيا، هي ذكية وشريرة، بعينين كبيرتين حارّتين، وشعر أسود مفلوش، بارزة الوجنتين، هي ما زالت حينئذٍ طالبة، ٢١ عاماً، وأما أنا فقد تخرجّت في ذلك الوقت عينه، ٢٢ عاماً كان عمري، حين تعارفنا. كلانا تعلم في كلية الصحافة علماً أن الحياة قادت إلى وراء جدرانها. في اللقاء الأول تمشينا على الجسر الزجاجي فوق نهر موسكو الآذاريّ المتفجر في الشمس الشبيه بطبخة السميد. التهمنا الفريز من العلبة التي اشتريتها، الذي لا طعم له. أفرغت آنيا العلبة ورمتها في الطبخة...

وبدأت لعبة الزواج التي لا نهاية لها لحيوانين اثنين مناسبين بشكل ممتاز لبعضهما بعضاً. لقد تزوجنا لعباً، بشكل طائش عقلياً، في دُوَارِ الوليمة.

عشنا متدافعين مع التلميس، ومن جديد تلاقينا في رقة محتدمة، ليس عاماً كاملاً.

وفي السطوع أيضاً اندمج بعضنا في بعضٍ... إنَّ هذا بديع بشكل خاص، ومدغدغ، وفجأة بعد تبادل الشتائم، وغير متصالحين، تبادلنا النظرات، وأسقط الواحد منّا الآخر متعانقين متبادلين قبلات نديّة ...

أنت أعمى تفتش بشكل فجّ لمساً بيديك وتتحسّس بدهشة، كما في الطفولة:

- سجق بالعجين.

الجدة وكلية الصحافة

في السنة السابعة عشرة صرت في اختصاص القضايا الدولية في كلية الصحافة في جامعة موسكو الحكومية - الوسام الحصري، إذ أخذوا إلى هناك فقط الفتيان و فقط الموسكوفيين.

في عام ٩٧ عينه انتقلتْ إلى عندنا من كاترينبورغ من عند عمي كيني جدتي القروية آنا أليكسييفنا. هي ستعيش عندنا حتى موتها.

لقد حكت لي عن القرية وسط منطقة شمال روسيا لغابة التايغا. جدي الأسبق ألكسيّ أكيموفيتش، صياد سمك، قويٌّ ملحُه، مثل الآخرين، أمَّن كل شيء أَكَلهُ. في الحرب العالمية الأولى كان أسيراً، ولكنه في نهاية المطاف رجع من ألمانيا، إلى مزرعته الأصلية، إلى زوجته، جدتي قبل السابقة، لوكيريا فيوفيلاكتوفنا. في الشيخوخة العميقة، عندما شُلّت رجلاه، الشيء الأكثر مرارة الذي عاناه، عدم قدرته على اصطياد السمك - وزحف مع الدموع إلى النهر. حكت الجدة عن السحر، الفساد، الحسد، والغيرة، عن الحب والصداقة، عن المواشي، الأرض، والنبيذ السابق:

- أشربُ بلعة خمر، وتكفي. سعيدة، أبكي بلا عقل! عشنا بمودة، اجتمعنا في الأماسي، غنينا. قُتل الرجالُ - نتصور ذلك بأنفسنا، ونذهب إلى الحقلة، نشدّ... تنتهي القوة، نجلس على الحشيش، واحدة تعوي، والأخرى تتلقّف. ألقِ نظرةً: وجوقة الغناء جاهزة، نغنّي سوية - كل النساء...

حدّثتْ، أن جدي إيفان إيفانوفيتش، هو ضابط وشيوعي، سرّاً قرأ الرب.

مساءً نضطجع، تقول: «اليوم العيد، ممنوع»، وتدير ظهرها... ولكن كيف ذهب إلى الحرب

أنا خيّطت له الصلاة في ثوبه - «عش بمساعدة»...

كانت الجدة قد حازت على صفّين من التعليم، في فترة الشيخوخة كتبت رسائل إلى الوطن. هي كانت لا تترك القلم حتى تنهي الرسالة، مع أخطاء، بكلمات مفهومة بالنسبة لها، ورغم الشعارات المُلهِبة، أنهت عدة صفحات بنصف ساعة.

في البداية، لحظة وصولها من السفر، سألت: - سيريوجا أنت تتعلم لتصبح من؟

- في كلية الصحافة.

- في الصرصور[1]؟

- البناء قديم من ثلاثة طوابق من جامعة موسكو، ذكّرني بالدفيئة الكبيرة. نحن تعلمنا تحت قبة زجاجية.

كان في كلية الصِّحافة عدد كبير من أصحاب وصاحبات الموضة الحديثة، كانوا ينتعلون أحذية رياضية خاصة بكرة القدم، ويلبسون سراويل بلا شكل مع عدد كبير من الجيوب، ونظارات بدون عدسات، وكان لهم شعر أحمر. كثير منهم كان يركب سيارات فاخرة. زعيق صوت الكوابح، وصريف الإطارات المطاطية كان يُسمع في الصباحات.

كان هناك الكسالى، وهم عادة متواضعون وغير جميلين، دائماً مع كتبهم - حافظوا على البقاء معاً.

---

(١) [التبس عليها القول لوجود شيء من التشابه الصوتي الجزئي بين اللفظتين، المترجم].

كان هناك الجامدون، طوال الوقت كانوا يثرثرون في الباحة، عند تمثال لومونوسوف، حيث طنّت النحلات الكبيرة، وتبارزوا في «كرة الخِرَق»: قطعة سميكة مُزرية من القماش طارت من رجلٍ إلى رجلٍ.

المضحك، أن هنا، كما لم يكن في أي مدرسة سوفيتية، حيث الجميع وضع ربطات عنق حمراء، تبيّن أني وحيد. تحت هذه القبة الزجاجية في مجموعتي، في قسمي، في كل الفصل كان الجميع متشابهين في المزاج: ابتهجوا لملاقاة الوقت.

هنا، في بيت قديم مقابل الكرِملن، كل ما كان ثلاث مرات حسناً.

وهذه «أوكي» وهذه الـ «ok» العامة سُجّعتْ مع كلمة «أدينوك» - الوحيد.

بطريقة ما، سوية جلسنا مع أصحاب المجموعة الواحدة في غرفة التدخين، تحت اسم «سانتا - باربارا». (هكذا سُمّيتْ لأن المدخل إلى هنا مقوس، ذكّر باللقطات الأولى من المسلسل).

- سمعنا الموضوعة: سعل المتحمّض، في السترة يضعون بارودة أتوماتيكية
- ليس من دون حسد حدّث المتحمّس أبداً توليان.

- كيشا شاب بوجه مغبرّ، وابتسامة هازئة صفراء معوجّة، بصق عقب السيجارة على الأرضية.

- ماذا تفعل! - قفزت عاملة النظافة.

الرشيقة، المتيبّسة، من أول الصباح حتى العتمة المتأخرة، في معطف رمادي، نظّفت كلية في الصحافة وحاربت الوسخ. على الطوابق الدراسية الثلاثة أحسنت الأداء وحدها.

ماذا تقترف! هي انحنت وراء عقب السيجارة - كم أنت لا تخجل أن توسّخ! يوجد هناك فعلاً مكان لرميهِ!

داس كيشا على العقب، اصطدمت أصابعها بالأنف القوس قزحي لحذاء «غراندیسا[١]».

- لماذا أنتَ هكذا؟ - رفعتْ عينيها.

تناول كيشا سيجارة جديدة: خذي.

أقبِّلُ! وأضيِّفُ!

كافحت العجوز، مع الحذاء الرياضي، دفعته بعدة اتجاهات، ولكنها لم تتمكن من رفع قدمي كيشا الضاغطتين بقوة على عقب السيجارة.

- لقد أعجَبْتَها - دفع الرفيق في جنب بيتكا، الأكثر شباباً فينا، اللطيف الأشقر في السترة الجلدية.

- نعم ولطمته - توقف كيشا عن الابتسام. - ربما تحتاجين إلى معالجة بؤبؤ العين؟ - ولوّح أمام المرأة العجوز بالسيجارة المشتعلة.

راحت السيجارة جيئةً وذهاباً، وشكّلت دوائر ميتة، مثل الطائرة في العرض المشوّق. استقامت عاملة النظافة، متمتمة شيئاً ما بشكل منزعج وغير واضح، كما لو بلهجة غريبة. أغلقتْ عليها المرحاض، ورجعتْ من هناك وأخذتْ تمسح باب المرحاض بالخرقة. على الباب تورد توقيع «توجورفاك»[٢] - أحد ما حادّ الذكاء خلط الفرنسية مع الإنكليزية.

أنا أتوب، أنا لم أشارك في كل هذه القصة.

---

(١) [ماركة إنكليزية].

(٢) [اليوم المضاجعة، قيلت بالفرنسية والإنكليزية، المترجم]. [المترجم].

لخجلي، خرستُ.

الجميع وقف.

عاملة النظافة، دون أن تدير رأسها، غسلت الكتابة ولكن دون نتيجة. مياه عَكِرةٌ جرت على باب المرحاض.

مساءً حكيت لجدتي عن كل شيء.

- نعم، ليتك فعلت به ما يتطلب الأمر! حفيدي الصغير، أنت بعد الآن لا تصافحه، هو ليس صديقاً لك، بل هو بهيمة.

لقد عملتُ بكلام جدتي بشكل مباشر: رغم أنني عموماً تواصلت مع كيشا، مشيتُ معه إلى غرفة التدخين، تبادلت معه العبارات لكن في كل مرة تجنبت المصافحة.

وعموماً لم يكن في كلية الصحافة آنذاك أوغاد بصورة كاملة: كان الجميع هنا لطيفين بشكل كامل، وميالين إلى الخير. لكن الحالة الطفوليّة قرّبت الجميع. ربما يكون تصرّف كطفل قذر ما لا شبيه له، وعبر هذا فوراً يكون نغم صغير غير عادي. هنا حقيقة، كيشا - ابن الجراح المعروف - في درس عن الأدب القديم، ملتفتاً أصدر صوتاً: ش... ش مطالباً الناس الصمت: «ماذا يُضّحِكُ في القاصرين عقليّاً؟» وانتبه بوقار، بدا لي، حتى مبتذلاً. عزف على البيانو بشكل رفيع، متعلماً هذا منذ نعومة أظفاره، وحدّث عن الببغاء، الذي أخذه إلى المصحة، وحين لم يتمكن من إنقاذه قبره في البستان.

وفي الأماسي حكت الجدة عن الحياة، عن الزوج الأول، الذي أبرح ضرباً. أجبرتْها حماتُها على التجارة بالتفاح في المحطة، بعد ذلك وفي تلك المحطة

التقى بها الأخ مصادفة، ونقلها رجوعاً إلى القرية إلى الأب والأم، وهناك تماماً كان الشاب الجار إيفان إيفانوفيتش الذي تعرفه منذ الطفولة، قد ترمّل: زوجته شربت من الساقية ماءً مع شعر الحصان، وماتت في العذابات. بعد موت إيفان إيفانوفيتش على الجبهة أضحتِ الجدةُ وحيدة مع ثلاثة أولاد، هم صبيان وبنت صغيرة. فلحت مع النسوة في الأرض، قبرت أباها صياد السمك، وحملت نفسها والأولاد إلى أمها في المدينة الأورالية إيتكول، إلى الأقرباء، حيث وجدت عملاً - غسالة في الفندق.

في الحرب مات أخوة آنّا إليكسييفنا الأربعة جميعهم - وعند زوجها إيفان إيفانوفيتش أربعة أخوة وهو الخامس.

- لو كنتُ متعلمةً القراءة والكتابة لكنت رئيسةً كبيرةً! أنشأتُ جميع أطفالي بشراً حقيقيين. أبنائيَ: غينغا، رئيس حراس غابات في الأورال، أبوك، هو الأب الذي في موسكو... يحبهم الناس! و ربما أحبوني أكثر منهم!

- ومن كنتِ أصبحتِ؟

- أنا؟ على الأقل لكنت تمكنت من الكتابة هذه... أشعار. هيا اسمع! «فيّ حزن يا سريوجا / أريد الموت وحده/ أنا، كما من المعلقة / ابتلعه فوراً...».

- حبيبتي جدتي! أنت مازلتِ شابة!

- شابة، ضاحكة بصورة لاذعة، لفتت رأسها - ماذا أيها الصبي؟

مشت البثور لديها تحت جلد أصفر، عيون رمادية نظرت متفحصة، حبكةٌ مسكت الشعرات الشائبة.

لقد عرضت لها كل شيء جرى في اليوم. لقد كانت ملاذي، حراجية، لغزية، وأفرض أنها أجابت بكلمات قليلة، وبشكل بسيط جدّاً. استنفدتُ قواي، بخصوص الدخول غداً من جديد تحت القبة الزجاجية.

- هم لا يحبون الشعب قلت لها.

- لكن الشعب شعبهم - قهقهت.

- هم يتناولون المخدرات[1].

- ماركوتيكي[2]، لقد سمعت عن هذا، قالوا، وأنت ماذا؟

- لا إطلاقاً. - وإلا ستكون متسولاً أحمقَ، قالت.

كلمة «متسوّل» لفظتها خطأ بالروسية.

في أحد الأيام جلبتُ إلى البيت جريدة فيها أشعار، إذ كانت صورتي احتلت نصف الرقعة المستطيلة.

- ما بك، استغربت الجدة. - انحنِ لأتلمّسَ حنكَكَ...

لقد انحنيتُ طائعاً.

حين سيكون لك طفل، لا تحشره في الجريدة، انتظر. فقط بعد الخامسة ممكن، وإلا أي صغار غير محميين من الفساد.

بعد أن حصلت على درجة خمسة (ممتاز) أول مرة في الفصل الشتوي، دسّت لي جدتي ورقة مالية من راتبها التقاعدي. لقد خبأت المال في الخزانة الصغيرة قرب السرير، ملفوفة في وشاح أبيض كبير.

---

(١) [ناركوتيكي بالروسية].. [المترجم].

(٢) [لفظتها غلطاً بالروسية]. [المترجم].

مع رجاء حار أعطتني في يدي هذه الورقة، لم أستطع الرفض.

أيضاً قرأتُ بصوت مسموع المقرر: الأدب الروسي القديم، المغرق في القدم، قصصاً باللغة الإنكليزية. استمعتْ بوهَنٍ. ورغم أنها أسفار تاريخية روسية قديمة عن القديسين: كي، شيك، خيرو وأختهم ليبيديا انتبهت الجدة بحيوية، مديرةً بأذنها مُرِفّة بعينيها، كما لو أن هذا كان جزءاً مُعيشاً من قبلها شخصيّاً ومعروفاً جيداً من حياتها.

عندما انتهت القراءة، جلستْ على السرير: رجلاها في جوربين صوفيين، بالتلمس أدخلتهما في الخفين، وأخذت كلمات الصلاة؛ كتاب ثخين ملطخ ببقع من الدواء و الطعام. ابتلعت الصلاة دافعة بالبثور بدون توقف.

- ليت الموت يأتي - قالت على نحو ما من جديد.

غير مجيب بشيء، ذهبت لأسخن العشاء (لم يكن الأهل موجودين)، وفجأة دوّت لعلعة ورنين. ركضت إلى الغرفة.

- ما هذا؟ ما هذا؟ - سألت الجدة بهوس.

قرب قدمها تمددت الثريا الواقعة، وكان خفها مرشوشاً بالكسرات الصغيرة.

منذ ذلك الحين، في كل مرة، حين تستدعي الجدة الموت، كنت بشكل جنوني أقاطع وأعترض. «وإلا، أصمتُ - وتموت مباشرة» - هكذا فكّرتُ بقلق.

مباشرة بعد الحادثة في غرفة التدخين «سانتا - بربارة»، صرت شاهدَ المتابعة.

كل شيء جرى على الدرجات الأولى داخل الكلية، في المدخل، إذ كان كالعادة مكتظاً بالبشر.

جلسنا مع الشباب، وولغنا بالبيرة.

فجأة ظهرت عاملة النظافة عينها. أشارت بالأصبع:

- هو!

انقضّت علينا قامة في اللباس المموه: حارس كلية الصحافة.

- ما الأمر؟ - تمكن كيشا في ذاك الوقت من وضع الزجاجة.

- أبرحْهُ ضرباً، نيكتش! - صرخت العجوز - هذا هو عينه!

التقط الرجلُ الشاب من أذنه هزّه وسحبه إلى الشارع. نظر الطلاب، فيما بينهم، ولم يتحرك منهم أحد. فقط نحن بعض من المجموعة الواحدة وعاملة التنظيف، قفزنا وراءَهم.

هزّ الرجل كيشا، تاركاً الأذن، من الوراء من كنزته الليلكية الفاتحة:

تتحدث بشكل مؤلم أيها الجيفة؟ لماذا تعتدي بفظاظة على إنسان عامل؟

- نعم، أنا لن أكرر فعلتي... - مرر كيشا مرنّماً بشكل ضعيف.

خ - خ - خذ!- حذاء مطاطي رفع الطالب برفسة فطار مبتعداً من سقيفة الباب الحجري إلى الأسفل، حطاماً على الأرض.

- هل هذا قليل؟ - استدار إلينا. لقد فاحت منه رائحة البصل. خلال شهر وعلى هذه السقيفة عينها، بطيب خاطر أعلن بروفسور الأدب الروسيّ تاتارينوف:

- البصل لي! على حرف النافذة التحتاني أزرعه... الورود ليست ضرورية لي، هي لا تؤكل...

هي تأوهت وصححت بغنج وضعية طاقيتها.

هو كان دائماً في الثياب عينها: سروال مموه وسترة قصيرة، تحتها قميص داخلي أسود، و ينتعل في رجليه حذاء مطاطياً.

من تلك اللحظة لم يمسّوا عاملة النظافة، وأخذوا يهابونها.

ولكن ها هم أولوا انتباهاً شريراً إلى الحارس. كيشا وعدد من أصدقائه أصبحوا خِلسةً يستهزئون به. مارّين قرب الطاولة الصغيرة، وكما لو أنها مصادفة، أوقعوا أعقاب السجائر. انسرق مقدامون بشكل منفصل من الوراء، ولمعت تحت الكرسي الكوكا كولا. صرخوا: «اللعنة، بوّال!»، «لا تضربني! احرسني!»، «مرضوض!».

لكن الرجل جلس ساعات في زيّه المموه وراء طاولة سوفياتية قديمة.

- لماذا تضجون؟ - نهض غير فاهم، وشدّ قبضتيه.

كان لديه عادة: الوقوف عدة مرات في اليوم عند الباب وبغيظ يدقق في بطاقات الطلاب.

- أين الصورة؟- أوقف طالب سنة ثالثة، شبيه بابن الجمل، وهو صحفي في جريدة معروفة.

- انفكّت.

- لن أسمح بالمرور.

- هذه بطاقة التحرير. لا أعرف شيئاً. انفكّت لديه...

- وربما تكون شواربك قد انفكّت؟- افترض الصحفي.

- لماذا هذا أيضاً.

- ربما تكون هتلر؟

بعد مشاجرة الخمس دقائق دخل الطالب، بكل الأحوال، ولكن الآن، متجاوزاً الحارس، أفلت بصوته المستهزئ الخفيض:

- مرحباً، أودولف! ومنشغلاً، أسرع متابعاً.

لقد تحدثتُ طويلاً مع الجدة عن الحرب.

- ها هي المحنة - أودت بجميع الأخوة. سرقت الزوج. هذا كل ما هو عليه - هو شنيع. كان يجب لهذا أن يولد! كم على الشعب أن يلعنه!

- من يا جدتي؟

- أودولف.

- وهل رأيتِهِ أنتِ؟

- أحتاج إليه...

خاضعاً للاندفاعة غير المفهومة، أحضرت لها كتاباً تاريخياً لهتلر من بين كتبٍ أخرى.

أخذت الكتابَ، ناظرة إليه بانتباه، وفجأة، بظفر أصفر، بدأت تخربش على الصورة، ممزقة قصاصات الورق.

- جدتي، ماذا؟

- القاتل، ليكن ملعوناً. لقد قتل زوجي.

الرصاصة أصابت إيفان، وقعت مباشرة في القلب.

بحسب ذاكرة زميله في الجندية، هو مشى في الهجوم مثبّتاً على صدره، فوق المعطف العسكري، صورة الابن الصغير، أبي. الرصاصة اخترقت الصورة.

أبي، ذو الثلاث سنوات، في ذلك الوقت كان يلعب في القرية، على الأرض، بشكل غير متوقع أخذ ينشج وصرخ: - قتلوا أبي! قتلوا أبي! من المحتمل، انطلق، صرخ: ولكن حقاً أنا لست مذنباً، لست مذنباً لأنهم قتلوا أبي!

في الشتاء وقعت الجدة في الممر، رفعتها، ووضعتها بسهولة على السرير. استدعى أهلي «الإسعاف». جلستُ قرب المضطجعة، مسكتها بيدها، نقر النبض العجوز بحدّة، تغطت الجدة بشكل رقيق، صمتُّ وأَمِلتُ بشدة أن هذا ليس كسراً.

وصلت «سيارة الإسعاف»، قررت الطبيبة: على الأرجح هذا كسر. يجب حمل الجدة بحذر على الكرسي. بتمهل وحرص أجلست الجدة على الكرسي. لففت بعناية معطف الفرو عليها، ووشاحاً صوفياً أبيض. وبأقصى الحدود (وبكل الأحوال هي أنّتْ) شددتُ جزمة اللبد الشتوية لتنتعلها.

لففتها إلى الكرسي بالقمصان والسراويل. سوية مع شاب، ودون تأخير حملناها. في الغرفة بقيتْ العكازة السوداء واقفة في الزاوية بهيئةٍ مذنبةٍ.

- لا تهتزوا يا أهلي - بكت دون دموع آنّا أليكسييفنا.

حملناها إلى المصعد.

صعدنا. في أحد الطوابق دخلت إلينا جارةٌ، هي بنيّةٌ غير معروف عمرها.

رأتِ الجدةَ، أنّت، أدارت إليّ بغنج نظرة تضامن.

عيناها استدارتا بشكل هزليّ كما لو أنها تقول «آه، يا لهؤلاء الكبار في السن».

- «غبية»، أطلقتُ صوتاً حادّاً قصيراً واستدرتُ.

الجدة لم تثبت نظرها على أحد، ساقت عينيها بشكل موحِش.

ذهبنا بالسيارة وكانت ليلة موسكوفية، لحست النار عظام وجنتيّ جدتي، مشت الأورام بنهمٍ وبشكل غريب.

بعد المستشفى، إذ عملنا صورة (كسر في رقبة الحوض)، نقلتُ جدتي بالسيارة إلى البيت الصيفي. هناك صارت تتحرك متكئة على عكازات حديدية، واضجعت عدة سنوات.

ليلةٌ كونيةٌ تنسرب إلى قلبي، حين أفكر بموتِك، يا جدتي.

لقد ماتت آنّا إليكسيفنا عن عمر اثنين وتسعين عاماً بعد رأس السنة، دون أن تتم الانتظار حتى عيد الميلاد، أكلتْ من طعام العيد، شربتْ.

النبيذ («حلو وبشكل مزعج!»). جدتي في الطعام مثل إنسان بدائي، كانت طبيعية، جامعة ما لا يجتمع: أكلت دجاجاً، كارميلا شوكولاتية، متبل الباذنجان، موزاً، مع الحلو - بسكويت.

في العشيةِ مساء من عرين الأغطية ضغطتْ يدي بشدة بيديها الاثنتين، تماماً كما لو أنها ودّعت. «أنتَ أبعد الكراسي. نظراً لأني مساء سأَنْكَنِسُ، نفسي لا أذكرها. إلى اللقاء، إلى اللقاء، يا رفيقي الغالي!» - وهزّت يدي.

مساء حدثت لجدتي جُلْطة دماغية. استلقت، كانت فاقدة الوعي، وبعد يومين لم تكن موجودة. قبّلتُ خدها، هو بارد، عكستْ النافذة الشتوية عينيها

الرماديتين، الحفرة الشبيهة بالصليب من القطن الدافئ والشريط اللاصق غير المرتّبين. الجدة مدفونة في مقبرة القرية في ضاحية موسكو، ليست بعيدة عن البيت، الذي ماتت فيه.

خلال أسبوع بعد دفنها، مفرغاً دلو الغسيل في حاوية القمامة في نهاية شارعنا للبيت الصيفي، رأيت فجأة وبشكل مخيف عدة خرق شبيهة بثياب جدتي. «هذا أمر عادي - قلت لنفسي. - الإنسان يموت ويرمون مثل هذه الأشياء التي تخصه». ولكن حالاً رأيت دبوس شعر بني خادماً جدتي هذا القدّر من السنين، الذي صار بالنسبة إليَّ قريباً وغامضاً، هو بقي موضوعاً بين المرميات. في ريح الشتاء الخارقة اهتزت، عاشت، تضجرت الشعرات الشائبة بين أسنان المشط المثبت للشعر. هو للجدة، التقطت مشط الشعر من صرّافة القاذورات، وقبّلتُه بسرعة.

صيف عام ٢٠٠٢، بعد خسارتنا مع اليابان، كان هناك جمع مشجعي كرة القدم، انتفض في ساحة مانيزنايا. أولاد صغار من الضواحي، مسعورون خرّبوا وشوهوا كل شيء في المحيط: ضربوا واجهات المحلات، قلبوا وحرقوا السيارات. في هذا الوقت في باحة كلية الصحافة (في يوم أحد صيفي كانت مغلقة) تزاحمت مجموعة من الطلاب. لعبوا كرة القماش وصهلوا. لم يلقوا بالاً إلى العالم الخارجي: هدير، زعيق، دخان وصلوا طائرين من ساحة المضمار. فقط حين وراء السور بدأت تغلي (ركض شرطي في قميص ممزق، ووراء جماعة عراة حتى الحزام، متوحشون). قطع طلاب كلية الصِّحافة اللعبة. بدقيقة واحدة ملأ الحشدُ الشارعَ. تدحرجت أمامه سيارة. طلاب كلية الصِّحافة رمحاً مثل قطيع الأيائل اندفعوا إلى أبواب الكلية. اصطدموا، قطّعوا الجرس. لم يفتح

أحدٌ. في ذلك الوقت، ماذا تأتّى أن يُنتظر. عدد من المشجعين اندفع إلى البوابات، بعصيٍّ حديدية إلى الانتفاض... قفزوا إلى السيارات وصاروا يضربون وسائد الأمان والزجاج. ولم يفكر الطلاب بالدفاع عن خيراتهم.

دوى المزلاج.

عابساً، وقف على البوابة رجل في اللباس المموه.

- ماذا تريدون؟ - تثاءب، فاحت رائحة البصل ونوم ثقيل.

- من يخصّوننا! - صاح كيشا.

- وماذا، أنا لا أعرفك، أليس كذلك؟ - تنحى الحارس سامحاً بالدخول.

وصفق الباب.

في هذا اليوم كانت سبع قطع من عربات اليد مشوّهة مركونة في الكراج.

في ذلك الصيف حصلتُ على الدبلوم.

البلباسيون

هذا بلْباسٌ، هو الذي نصحني أن أدخل في السياسة. لم يكن في الصورة التي في الهاتف النقال. زوجته ببساطة، لم توجد أيضاً. ظاهر منه فقط معطف من جلد الخروف وقبعة عالية من الفرو. وعوضاً عن الوجه، هو تورّدٌ مشتت. لقد دمّرتُ هذه الصورة في اليوم عينه الذي عملتُها فيه.

في القدوم الأخير من السفر لعمي كولا، صرت في عالم الأدب. تحصلت على جائزتين، صدرت لي ثلاثة كتب.

في واحدة من اللحظات الصباحية، حين كان بعدُ صاحياً، ذلك ولأنه متجهّم بشكل خاص، قال لي عمي كولا، مقلّباً بشك ضاجّ صفحات «عالم جديد»، ولم يجد بأي شكل روايتي، المخبأة في الوسط، وكان جراء ذلك كان غاضباً أيضاً أكثر:

- دائماً تكتب، تكتب... مذكرات مختصرة، وهذا جيد، ولكن من الضروري مساعدة الشعب بالعمل.

- كيف؟ سألتُ.

- كيف، [كفاكْ] (١) - هو قلّد - رسملةٌ (٢)، أسمعتَ؟ لقد حرمونا من [الشيء] الأخير. كبار العمر خرجوا إلى الشوراع. وأنت أين؟ ورشة خياطة - كتابة... كان يمكن أن يكون لك فريقك - وكان يمكن لك أن تخرج. كان في مكنتك أن تجوب مسافراً في البلاد، وتتواصل مع الشعب، لكانوا احترموك لهذا!

- وكيف تُسمّى؟

- أورا [صوت تعبئة وحماس وابتهاج]، قال كولا.

- أورا؟

- هيا، لديك حقّاً كتاب، هكذا يسمى. أنا، في الحق لم أقرَأْه، هوذا أراه على الرف. ولكن التسمية مناسبة، مختصرة وواضحة، ولكن من السهل الصراخ.

هكذا أوصاني عمي كولا في قدومه الأخير إلينا...

---

(١) [تحوير استهزائي بالروسية لكلمة كيف]. [المترجم].

(٢) [من رأسمال، لأن هناك تشابه بين الكلمتين ببعض الحروف]. [المترجم].

في طفولتي عمي كولا عدة مرات في السنة، قدم سفراً إلينا. يظهر أنه امتلك، في وقت واحد، الطيبة، والإلهام. هو عمل رئيسَ ورشةٍ، في مصنع الصهر في المدينة الأورالية أورسك. اسم العائلة لـ عمي كولا كان «بلباس»، وتتطابق معه: المقدرة والاستهزاء. كان هذا رجل الإرادة الوردية، عيناه سماويتا الزرقة، أشقر ذو أنف أخنس مع قبضتين، ثقيلتين وبطن بَرْميليّ.

تذكرت بلباس، في سترة مفتوحة حتى السرة، رجل الإطفاء، يجلس، وزنه هكذا مجيد، ويحفر بإصبعه في فتحةِ الأنف الكبيرة. أنظر إليه بكامل عينيّ، كما لو إلى وحش. شعراته متناثرة من جحري فتحتي أنفه. عيناه سماويتا الزرقة يتركزان عليّ، وهو يتبسم بشكل رقيق، كان في عمي كولا شيء ما، يوجد في الناس الروس الطبيعيين: الجاذبية. هو استطاع أن يحفر في أنفه، ولكن حضوره وحده استثار الشهية، لقد فاحت منه رائحة الخمر فيما بعد، ولكن هذه الرائحة لسبب ما - هدّأتْ بشكل مريح.

بلباس لم يزرنا مرة قط ويداه خاليتان.

صياد سمك، صياد، نحّال، هو جلب أحياناً سمك القرموط، أو فخذ خنزير بري، أو قطعة ثقيلة من العسل [بالشهد]. أتذكر ذلك بوضوح، سمك القرموط، يبدو أنهما كانا متشابهين: العم كولا، والقرموط.

المصنع مع الفولاذ المُحمى المُرعِد لا يتوافق بأي شكل مع البلباس الناعس المرتاح. العم، في الحقّ، بدا ناعساً في النهار. وسهر في الليالي: مشى متثاقلاً من الغرفة إلى المطبخ، جعل أبواب الخزانات تصرّف، صفق باب الثلاجة، رعد بالمقلايات، أساح المياه، بدأ الغلي والطبخ. أكل في الليل، واستراح في النهار مشخّراً (مريع خر- رر، شجى بي - ي ي) بهيئة عارية

من أعلى. أيقظ أهلي في الليالي، فعلمتني أمي إيقاظه في النهار. حملتُ القطة ورميتها بحنق على كرشه، أو رننت الجرس الصغير قرب أذنه، أم ضربت الأرض بإبزيم خزامه. تقطّع الشخر، ارتعش عمي بكامل جسده بكامل جسده، ومتأوهاً، وبذعر تفرّس فيما إذا كانت هذه قطة، وهو، ممرراً يده على متنها، ملمِّساً جلدها، رماها. وإذا كان لاحظني، سأل بصوت مبحوح:

- صغيري، لماذا تصدر ضجيجاً؟ - بعد ذلك تهاوى في النوم.

أي عم هو بالنسبة إلي؟

كولا وأبي كَبُرا معاً. الأم كانت أخت جدي (في الطفولة: شاركونفا). جميع أخوتها الأربعة قتلوا في الحرب. وزوجها قتل في الشهور الأولى من الحرب، الشاب المسيحي الذي بقي منه وليد صغير والعائلة الهزلية: بلباس، المعروفة بالكرش الرجولي الذي نما لدى هذا الوليد بعد سنوات كثيرة. أم كولا الأرملة أَوَتْ جدتي، التي هي أرملة أيضاً مع ثلاثة أبناء، في يكوت الأورالية، إلى حيث انتقلوا من القرية الذابلة. أم كولا عملت بائعة في المتجر. جدتي غسالة في الفندق.

جدتي عرّفت كولا على التي ستصبح زوجته، الفتاة من أورنبورغ، التي توقفت في هذا الفندق. فتاة كولا المحلية لم تذهب معه إلى السينما، وجدتي حشرت إليه نزيلتها. هما شاهدا «اللقالق تطير». هو رافقها إلى الفندق، وفي اليوم التالي جاء لأجلها من جديد. لقد أشاح عن الفتاة الصغيرة السابقة، وبالجديدة كم تمسّك، الأمر الذي تحصّل عنه أن تودّع أُورنبرغ - أقاموا العرس بعد شهر من التعارف.

آنّا، هكذا سمّوا زوجة كولا. بالمهنة، هي خياطة. سوداء الشعر، مرحة وبسيطة السريرة، مكتنزة، جاءت معه إلى عندنا، قبل أن يذهبا إلى كوبا. كان عمري سبع سنوات. من أورسك الصناعية القاسية إلى المحيط الأزرق أرسلَ البلدُ كولا: لبناء مصنع. بقيت في أورسك الابنة الناضجة.

كثيراً ما تذكرتْ آنا قصة تعارفها مع كولا. وهو مع سخرية خفيفة وابتسامة رقيقة دعّم التذكر. «كم بدأ كل شيء معنا بشكل جيد! أخذتها إلى السينما، وفي طريق العودة غنيت الأغاني مواء. جميع الأغاني عن ظهر قلب كنت تغني، أيٌّ منها، فقط يكفي أن تكون موجودة، طالما أننا نتمشى. وكيف توسَّلتَ إليّ في أول قبلة؟

وقفتَ على الركبتين! لماذا تضحك؟ وكيف رجوتَ لأتزوجكَ؟ قلت: أنيوتا، هل تريدين أن تسبحي في العسل، سأفعل كل شيء بنفسي من أجلكِ. عيشي معي وافرحي، لماذا أنتَ كذلك. ألم تقلْ هذا؟ هذا صحيح، تومئ برأسك. وما إن عرفتَ أني أنتظرُ تانيوشكا، حتى ظلّتَ ساعة تقفز حتى السقف، استدعى الجيران الشرطة، اعتقدوا أن هناك عراكاً».

كل مساء وكل صباح تلك الأيام التي زارنا فيها البلباسيون، كان يتكرر الشيء عينه. أنا بكل حماقة غرزت قبضتي في بطن العم كولا السمين، كنت آمل تماماً أن أنفِّسَ الهواء من هناك.

العمة آنّا وبَّختني، بشكل مزعج، ولكن بكل الأحوال، في الصباحات والأماسي، تدحرج الكرش في وسط الغرفة. تشجع العم: «هيا يا صاحب الشأن! أتعتقد أني أخاف؟ عندي، ليس دهون، بل هذا مكبس!». تمهلّت، هو متثاءب بلا اكتراث، غمغم: «هيا، ابدأ، اقتلْ، لا تُنهكْ»، وتأوّه على

سبيل المزحة، ولكن أنا، حين كان مديراً ظهره أو مسترسلاً بالكلام عن الغريب، فجأة بكامل قوتي ضربته.

بلباس تغضّن.

- هل أنت حي؟ - سألت الزوجة بقلق.

- على ما يرام.

- سيريوجا يفعل الصواب: منذ زمن بعيد حان وقت إنقاص وزنك، من تشبه أنت!

أنا في الشباب سندت الصليب على الإطارات. - ضاحكاً، مسّدَ على بطنه، وجهه توضّح: عقاب طفولي تم إجراؤه.

هو عموماً تحدّث بصوت خفيض، ضاحكاً. لماذا رفع الصوت حين يكون هناك جسم بالغ الضخامة؟

- عمي كولا، كيف الحال في المصنع؟ - سألتُ.

- طبيعي، أتريد الذهاب إلى المصنع؟

- نعم - لا يمكنك بسرعة أن تمرّ إلى هناك. - وبدأ يبسط بأسلوبه غير المتعجل الساخر قليلاً.

- التحضير ضروري. ها هم رجال الفضاء، يحضرونهم للتحليق، هكذا يتطلب الذهاب إلى المصنع الاستعداد. في العراكات يكون حائط لحائط، على السطح تتحرك القطارات، في الغابة تلتقي بالدب، وتهرب سالماً. ماذا أيضاً. - وضب شفتيه ونفخ قليلا بشكل ما وبازدراء،

ولطف، تماماً بشكل دقيق حتى الزغابة - حسناً، ولمعرفة كيفية التعامل مع التقنية.

- وهل رأيت كل هذا؟

- خَبِرَ أبوك، أنتَ استسفر منه. هو يُعدُّ أيضاً مصنعياً. بعد المعهد المتوسط في سوفوروف صبّ الفولاذ. هذا، فيما صار يطبع الأشعار، وانتقل إلى موسكو، وصار يؤمن بالله.

- وأنت، هل تحب المصنع؟

- عادي، صعب، و لكن لا أستطيع دون عمل. الشباب يحبونني.

- هل هم آليون؟

- الشباب، هم رفاقي. بالنسبة للناس كثير. حرٌّ شديد، اختناق. قعقعة. الشرارات تتطاير. وأنا أقول لك: منذ نعومة الأظفار، من الضروري التهيؤ لذلك. لي صديق تفرّج وانقطعت يَده.

- كيف يعني أنها انقطعت؟

- من الكتف - قال بلباس برصانة و هزّ بكتفه المعافى. - أعطوه نقاهة مجانية إلى شبه جزيرة القرم، وإلى هذا الحدّ، لن تنمو الجديدة.

كان ضروريّاً حقّاً أن يحدث مثل هذا، أي إنه في اليوم عينه ذهبت مع عمتي آنيا إلى السوق ركوباً بالحافلة الكهربائية، جلست عند المدخل، انقلبتُ، لوّحت بيديَّ، والبوابتان اللتان كانتا مفتوحتين انغلقتا على كفي الأيمن، ضغطتا بشكل مؤلم. ولكن لا تستطيع أن تتفلت. أكان ذلك عقاباً على القبضة التي قصفت بطن قريبي؟

بكت العمة آنيا مع الأدعية، ورمت نفسها إلى المقصورة، التحمت الأبواب بعضها ببعضٍ، اندس الداخلون والخارجون ولكن اليد كانت محررة.

- لا تتغنج !- قالت العمة آنيا، وهي تتلمس عظام أصابع يدي - أأنت حيّ؟

- هذا ليس أنا، هذا هو، إنه لا يعرف القيادة - أشرتُ إلى جهة المقصورة [إلى السائق]. - أيتها القروية المغفلة.

ماذا؟ ونكصتْ.

- وماذا؟ - مشاهداً تعبير وجهها، خفْتُ أكثر من وقت انغلقتْ عليّ البوابة الحديدية للحافلة الكهربائية.

- قروية مغفلة... - ومطّت الكلام. وهل كنتَ هناك؟

- أين هناك سألت بصوت الجريح.

- أين، أين...؛ من حيث ولد أبوك، ومن حيث العم كولا، ومن المكان الذي جاء منه جميع أقربائنا. لا تقل أبداً مثل هذا: «قروية مغفلة»، هل فهمتَ؟

حنيت رأسي موافقاً، خجلاً من المسافرين حولي، مدركاً أنني قلت شيئاً مروّعاً.

هذا ما أرجو منك الآن. مع السلامة أيتها المواطن.

- لا ترمِني!

- وقفت الحافلة الكهربائية. غير شاعرٍ بالرضّة، في الظّل انزلقت وراءها.

- نمشي إلى السوق. لكن ما هو هذا السوق؟ إنه القرويّة... الكثير أضاموا القرية. ها أنت أيضاً أسأت. والقرية الآن تُشرِب وتُطعِمُ، تعطي الحليب، السمن، الجبن، اللبنة، اللحم. من أين هذا باعتقادك؟
- تفاح، إجاص، قرع... - بخفة أخذتُ هذا محاولاً تكفير الذنب. - فييخا!
- فييخا قرية أخرى، تعطي، هي ليست روسية، ولكنها هي قرية أيضاً. كيف يدك؟ أتجاوزت ذلك أيها البلباس؟ - بنبرتها فهمت أنني مُسَامَحٌ.

الشيء الغريب: إنه بعد مرور أكثر من عشرين عاماً، قشعريرة تسطحني، إذ أسمع بشكل غير حنون: «قروية مغفلة»، وبتساهل، «قرية». يتخشب ويعوجّ الوجه بلا تساوٍ، وتبدأ اليد اليمنى تُؤلم - فذلك ممنوع، غير ممكن، تحت الحظر. ولو كان غير ذلك، فالعمة آنيا تتركني أنا البلباس في الحافلة الكهربائية في وسط المدينة.

في الجوهر هو أنهم كانوا أناساً طاهرين، كولا وآنيا، لم يغيّر أحدهما الآخر، ولا مرة، ولا خبراً عن اندفاع للتغيير، كما أخبراني بصورة منفصلة، وحقاً كشفا للشخص الناضج. في كوبا المزاجية لم يهز شيء اتحادهما الخير.

بالمقابل شرب كولا كثيراً من الروم مع أهل وطنه، وكذلك مع السود واللاتينيين، وتعلم عدة أغان محلية، التي غنوها صارخين، متعانقين، وهو فجأة انتقل إلى المقام الروسي فحصل جمع كلمات بلا معنى في أسلوب الشكلانية [في الأدب]، ولكن التاريخ لم يحفظ الكلمات. جاءت في الأعياد تهانٍ من كوبا: أذكر برقية صوتية خشنة: قردة، ببغاء وجوزة هند رقصوا مع

بعضهم مع بعضٍ، إن تحرك الكرت ذهاباً - وجيئة، وأذكر أيضاً صورة موضوعة في الظرف - شاطئ البحر من علو الطائرة، مكان إقامة البلباسيين، والمكان القريب لأعمال العم كولا، كانت مؤشرا بقلم أكبر بصلبان صغيرة.

طار البلباسيون في عام ٨٧، رجعوا إلى المطار في عام ٩٠. لقد جلبوا أناناس وجوز هند، المشبعة قشرتها بالشمس، وإيمان بأن الحياة ذهبت صعوداً. نظراً لأعوام من عمل العم كولا، هو حصل على كمية نظامية من الشهادات، والآن كان من الممكن شراء شقة جديدة، وسيارة، ومساعدة الابنة. من الانطباعات الكوبية التي لم تستطع العمة آنيا نسيانها «كوكاراتشا» - التي أدهشتها الصراصير الكبيرة الطائرة. العم كولا غنّى عدة أغانٍ كوبية معاد تصنيعها من قبله بأغانٍ روسية، وصباحاً توجه إلى الاجتماع في ساحة المنيج، رأى يلتسن، رجع مع رزمة من الجرائد، وجلس البلباسيون حتى الليل مع أهلهم المتسلين بالأحاديث. وعد العم كولا أبي، أنه حين يصل إلى أرسك، مباشرة سوف يخرج من الحزب، وأيضاً تفكّر طويلاً عن «الإدارة القوية لشؤون الملكية» الأمر الذي «أراده الرجل أن يكون، وهم لا يسمحون»، وعن الأسلاف الهالكين: «نصفهم انتُزِعت ممتلكاتهم، ونصف آخر ذبحوه على الجبهة». عادةً، حديثه غير المتسرع واللين اشتدَّ عدة مرات، ومن المطبخ وصل دويّ الشعارات.

في نهاية العام انتصرت الحرية، و«الشهادات الكوبية» للبلباسيين كانت قد أُبطلتْ.

في أواسط الـ ٩٠ ذهب العم كولا من المشروع - كفّوا عن الدفع. صار البلباسيون يأكلون الآن بفضل منحل واسع خارج المدينة و توقفوا عن التردد

إلى موسكو. وصلت إليّ الأخبار عن عيشهم- وجودهم. الابنة ولدت ابنة وتطلقتْ. «العم كولا يشرب زجاجة فودكا كاملة على الغداء»، - كما أخبر باختصار عمي قريبي من يكاتريبورغ.

حدث اللقاء الثاني في شتاء عام ٢٠٠٤. تجمع البلباسيون مع قوى وجاؤوا. وقد التقيتهم في محطة القطار. مقترباً، وجّهت الهاتف النقال والتقطت صورة. لم تكن موفقة؛ الكادر للرمي. وقف كولا على الرصيف، ضخم، بقبعة مخملية عالية، ووجهه الواسع الأحمر الذي لم ينمحِ منه لفح الشمس الكوبي، ولكن على الوجنتين، كما لو أنه صقيع، أشقرّ الشعر القصير. وقف ولم يهتز، منتظراً اقترابي. افترّ الفم بهدوء بابتسامة لطيفة. قبلّتُ الوجه موخوزاً، وتبادلنا القبل مع العمة آنيا: تلك لم تتغير نهائياً، فقد سمنت أكثر، أصبحت شبيهة بالبطة البيتية. بحزن - لاحظت فوراً - تحرّزت عينها العُصفورية السوداء.

سحبت بيد واحدة حقيبة الأمتعة، وبالأخرى سندت مرفق قريبي الكبير الثقيل، الذي كما لو أنه رجل ثلج، بصعوبة انزلق على الرصيف، مغامراً بالتحَطُّمِ إلى أجزاء.

أحضرت البلباسيين بالسيارة إلى أهلي، حيث عمي كولا، باندفاع أُتْرِعَ بالفودكا.

- مُعذبي! حطّمَ حياتي كلها! - زفرت العمة آنا.

هو بدوره، متجهّماً، بصوت نسوي معكوف بدأ يشتمها بإقزاع. قفز أبي - رجل الدين من وراء الطاولة وتوسّل إليَّ أهلي أن أبقى مع البلباسيين أسبوعاً، وبسرعة ذهبوا مسافرين إلى البيت الصيفي. عمي كولا كان يشرب ويشتم زوجته بفحش. فعلاً، تناهى لسمعي في فجر الليالي من وراء الجدار السعال

شتيمة منهوكة، وردت العمة آنيا بتأسٍّ: «هيا هل وقفت لي بالمرصاد؟». هي دائماً تحسرت على الحياة المحطمة، وعلى أنه في موسكو دائم الحاجة لطبيب (لفحص الزوج) ومحامٍ (من أجل الحصول على تعويض عن الشهادات المحروقة).

نقلتُ العم كولا إلى طبيب جيد من معارفي، ولكن كل شيء انتهى إلى شتائم للأم من المريض. «هو لا يفقه شيئاً. لم يلق نظرة ذات معنى. لدينا في المدينة كلافرييف، طبيب باطنية، أيادٍ ذهبية، فتاق سوّى، أما أنتم، ماذا لديكم...». عالكة شفتيها ثاقبة إياي بنظرة مستنكرة، أصغت آنا لزوجها. مع المحامي لم تلتئم لديهم المسألة: ظهر أنه جاهل، بقدر ما أنه أبلغ عن لا معنى للأمل بالتعويض.

بعد أن امتلأ بالفودكا، أنشأ العم كولا أيام الطفولة من جديد: لقد حصدتُ الزرع في الحقل... وتحدث، كيف فعل كل ذلك بوجدان. «ماذا أملك من هذا؟ تسمم الرئتين. يا له من سعال، هذا من الهواء المصنعي». عن كوبا، لم يتذكر البلباسيون - معها ترتبط الآمال الميتة.

في أحد الأيام، حين قدمت مساء، لاقتني كمية من فطائر اللحم الصغيرة الدهنية والقذرة التي صنّعاها بنصف يوم، وهما، من الواضح، يتبادلان الشتائم.

- كل يا صغيري، نحن لطيفان - رفّ العم كولا بعنين سماويتين - هل حقاً أترك أقربائي بدون طعام؟

شبعت بخمس قطع، ما كانت لي رغبة بأكثر، وتبادل البلباسيّان الشتائم: كفّا عن التحدث معي، اتخذا هيئة بأنه غير مسموع، في حين بنفسهما تبادلا الرشقات بعبارات قصيرة خفيفة الصوت، مُنفّذة بتهذيب أرستقراطي. مستائين حرصاً عليَّ، كفّا عن التخاصم فيما بينهما.

علماً أنه خلال نصف ساعة، ألقى العم كولا نظرة خاطفة إلى الغرفة، مُدانا بابتسامة سابحة خفيفة: «هل نتدحرج تحت صانعة الفطائر؟»، وفوراً سعال قاسٍ يمحو ابتسامته. قلت إنني لا أريد. «أعطِني مئتي روبل» - أكمل قوله من بين السعال. أعطيته ألفاً، لم يكن لديّ أقل، وذهب قريبي إلى الشارع، عاد (وفوق ذلك، لم يكد يتحرَّك). لم يُرجِعِ البقية، وكانت بسرعة قد رعدت في الشقة شتيمته الحانقة على الأمهاتيّة(1).

- ألديك أصدقاء؟ - سأل العم كولا بعد الإفطار الفطائري.

- لديّ.

- وأين تشرب؟

- في المقهى.

- في الحق هناك حاجة إلى نقود! - نادت العمة آنيا من عند الموقد بشكل ماثل للبكاء.

- لقد نالت مني الغبية التي عندي: قُد إلى المطعم نعم قُد. قبْلا، يقال، قُدّتَ. لدينا مقهى قرب أدخلُ، أجلس. «بيرة - أقول - عَفِنة». ها هي، بنتٌ أحضرت الكأس الكبيرة، وبعد ذلك تحمل تفاوضاً. عندي عيناي تسلقتا إلى جبهتي. هذا [المضاجعة] مقابل ثلاث رشفات بيرة. قلت في البيت لزوجتي: «لا، لن يكون لك أي واحد من المطاعم!» - هو وجّه قبضته إلى الطاولة - ولا في أي وقت، ولا أي منهم...

العمة آنيا انحنت بصمت عند الموقدة تحت أزيز المقلاة.

هو مات خلال عامين.

---

(1) [شتيمة ضد الأم معهودة بالروسية].

انتقلت العمة آنيا إلى عند الابنة و الحفيدة في المدينة الصغيرة المغلقة حتى الآن، أوزرسك ذات البحيرة عميقة المياه، والنباتات الوفيرة، والإشعاعات النووية. من جديد زارت موسكو، كنت أنتظرها في محطة القطار، وقد عاشت عند أهلي شهراً في البيت الصيفي. كان الصيف، وهي في الأماسي توجهت إلى الجيران الذين كان عندهم خلية نحل: «انظر إلى النحلات، كيف تهتز، وأتذكر كولا الذي كان لي. الذي احتفظ حتى بالمنحل الأخير...». وفي كل زيارة لها أخذت نحلة، وفاتحة ثيابها، وخزت نفسها في الجنب أو في واحدة من إليتي مؤخرتها. النحلة بَعَطَتْ على الأرض، وإذا هي ميتة. ضغطت العجوز الإبرة بمرونة. ولكن بالنسبة إليَّ وراء هذه الأفعال الليلية من الطب الشعبي - كما لو أنها تساعد ضد الضغط - تبين أن هذا مجرد كلام: هي حزنت على الزوج - مربي النحل عبر الألم، تاركة في الدم ذكرى عنه...

عندما رافقت مودعاً العمة آنيا إلى القطار، حينها أخذتها إلى مقهى محطة القطارات، وطلبت لها سمك السلمون المقلي وبيرة.

كم ممتعة هذه السمكة! أين صُنعت مثل هذه البيرة؟ ألمانية؟ آه، عندما أصل إلى أهلي، سأحدثهم كيف ضيفني سيريوجا في موسكو...

مكملة شرب نصف الكأس الكبير، قالت:

- هل تعلم، ربما، كان من الضروري إعطاؤه ليشرب.

- العم كولا؟

- نعم [قالتها باللهجة الشعبية].

- لكنه هو الذي دفعني إلى السياسة.

- أنت لماذا؟

- قلت: أنشئ حركة، والشعب ينهض.

- وكيف: ينهض الشعب؟

- نعم، كيف يمكن قول هذا...

- أنت استمع للعم كولا أكثر. لكان هو نصح بمثل هذا. لماذا أنا أقول هذا: كان من الضروري إعطاؤه ليشرب. هو استلقى وحلم. «ماذا أنت تريدين؟»، العينان مبللتان، يحاول القول، ولا يستطيع؟ «فو... فو...فود...» - «فودكا؟» - أسأله. فَرِحَ فرَحَ الطفل الصغير. كثيراً كثيراً يرفّ عينيه: حقّاً، هو الأمر، أرغب. ولكن قلت له بسخرية: «خذ هيا، اشرب» - وأنت تصيح صباحاً - «فودكا، هو يريد! كثيراً من دمي [قالت: دمّاتي] شربتَ مع هذه الفودكا. لقد حطّمتْكَ، هو الأمر، اضطجعِ الآن، وكل شيء سيمشي وفق رأيي. كم عذبتَني، لقد كسّرتَ كل حياتي!». هو يستلقي، عيناه مغلقتان، واليد تعصرني، بلطف، كما في بداية الوقت، حين الحب بدأ يدور بيننا. في واحد من الأيام، بالتأكيد الملاك دفعني، وأنا، يا سيريوجا، لقيت لديه دفيتراً. صرت لسبب - ما أحرك الأثاث، ووراء الخزانة حصلت عليه. دفترٌ سميك، صفحات صفراء، قديمة. بين الصفحات عدة بطاقات - واحدة طفوليّة مع الأم، وأخرى طالبيّة، وكذلك واحدة معي في المصنع، ومع الابنة الصغيرة، وأيضاً في المصنع. لقد أعاد كتابة أغان في ذلك الدفتر، كل ما يسمع، تلك التي يغنيها الناس أو المغنون: بوكاتشوفا، ليشنكا، وأغان كوبية،

وهو من نفسه كتب. الصفحات الأخيرة معوجة ملتوية، لا تفهمها، عن الحب: «غاليتي... اعذريني... الشمس واضحة الحياة آثمة...»، ومتى كتب؟ بعام قبل هذا؟ بأربعة أعوام؟ أفي السكر، لعله، رمى ونسيَ؟ وإذا بي فجأة غاطسة في الدموع، ركضت إليه أصرخ: «ولكن لم يتمكن من القول بالكلمات؟» ومزّقتُ، هل تتصور، كل الدفتر، جميع الصفحات، واحدة واحدة. وبطاقات الصور خزّقتها. لكنه لا ينظر إلى شيء، يصمت، بدأ يمطّ الفم: حقّاً، كيف كان له أن يبتسم، لا تتذكر؟ يبتسم هكذا بحذر، وحاله تصفح له عن كل شيء. وهنا هو صفح عني... ولكن أنا أيضاً عضضته، بأنه عبثاً عمِلَ في المصنع، عبثاً كان مستقيماً، نظيفاً ربما كان من الضروري التجارة، أو بناء سمعة، أو عقد صداقة صحيحة، كما ترى، وما كنا بقينا فقيرين. هو فوق هذا شرب كثيراً، في السنوات الأخيرة، لأن الحياة طارت ونحن كلانا معها. أنت انظر، سيريوجا، لا تتحامق، مثل العم كولا: امتلك المراءاة، صادق بشكل صائب... وعلم ابنك: الأهم - ألا يصبح عاملاً. قليل هو ما فهمناه، أغبياء، مصدقون، قرويون سذّج...

- ماذا؟ أممنوع التحدث كذلك! - نظرت إليها وجهاً لوجه، معمي بالذكرى.

عصيان عبر الفرار ركضاً

بعد أن كتبتُ ثلاثة كتب، وحصلت على جائزتين، بنيتُ الحركة الخاصة بي وأخذتُ أتمرّد في الشارع .

تمردت «من أجل الإرادة، والحصة الأفضل». كان العصيان بالنسبة إليَّ دائماً هو الهواء، هواء لأنه قوي، ولا سيما، أثناء الركض. وأنا، حين التمرد، ركضت حتماً - في الهجوم، وفي التراجع.

في الفرار هناك شيء مسلٍّ، والركض يعطي التفوق. الركض - انشغال شعوري.

الوقت يصورنا، ولكن لا حاجة للتجمد. كلما ركضنا بميل أكبر كانوا يرشوننا بفلاشات الكاميرات بِكَرَمٍ أكثر.

كثيراً، عندما أذكر ركضي الثوري، حين ذاك أعتقد أن الركض كان دائماً مكرساً لرفيقتي حينئذٍ من البنات، ومن النساء، للنصف الفظ لـ آنا. الركض كان هربا منها، وإليها.

سافرت إلى فورونج، لأهيج العصيان. تعاملت مع سفري بشكل بارد. اللا اكتراث قنّع الانزعاج: أنا قليلاً ما أعرتها الاهتمام، مستغرقاً فقط بالكثرة من الناس الآخرين. كانت حساسة وانجراحية، ولكنها تميزت بالحدّية الجريئة وفراغ العين.

في ذلك العام كان خريفاً بارداً. لقد قدت فتياناً وفتيات في منظمة مسماة على شرف كتابي«أورا»(*). نعم، مع علامة الهتاف. العم كولا بلباس استحسن ذلك بالهاتف.

- في فورونج اتخذت صديقاً موثوقاً، أرتيوم، الطالب في السنة الأولى - فلسفة. في مقصورة القطار كان معنا جاران؛ ضابط وامرأة عجوز. المرأة العجوز اندارت وقبضتها إلى الأعلى شربنا الخمر مع الضابط.

(*) [يستخدمها الروس كصوت يعبّر عن التعبئة والانتصار المترجم].

- أرى ظلالاً زحفت أما أنا وقفت في موقع الرئاسة، قطعت الظلال، قفز الجميع، يصرخون، يطلقون النار، يركضون... نشب القتال. تبيّن أنهم تشيكيون. أنا أركض في العتمة - زعيق - جبين اصطدم بجبين مع أخ واحد. وقعنا، وبالحق عوينا كلانا. ها هو الأمر، صبية زعّاقين، حرب - ركض فقط!

أنصت أرتيوم بإعجاب، سمعت مع نصف ابتسامة بسيطة وفكرت: غدا حربنا الخاصة بنا، وركضنا.

وكان الغد. طوال اليوم تنقلتُ مسافراً في فورونج، محضِّراً لاختراق مسائي. في المدينة لم تكن هناك طرق، لم يكن هناك عمل، إنما كان كثير من الجدران الرطبة مع الكتابات السفيهة، حول موضوع الجنس وقضية السياسة.

حل الغسق مبكراً أسود ضارباً للزرقة. تجمعنا على التقاطع، لكي نحضر في مركز المدينة ونقيم اجتماعاً محظوراً. بشكل مفاجئ عصفت ريح خارقة. هواء شرير كان في كل مكان، وصل حتى العظام وقرضها، ممتصّاً محتواها. لقد شددت إلى نفسي كمية من الأعلام، حمراء وصفراء، كما لو أنني حين ألبسها أدفأ. بعد ذلك وزعت هذه الأعلام في الحشد - الحمراء والصفراء. أرتيوم وزع المفرقعات النارية: تُسحب الحبلة بسرعة، فتنطلق النار.

كنا نمثل بأنفسنا وحدنا مئتي شخص من فورونج، من خافا الفوقانية، من آنا[1] ذهبنا. أنا كنت في الأمام، في معطف أزرق قصير، حزام فاتح متروك عبر الكتف، ومتحد مع مكبر صوت خفيف أبيض.

---

(١) (هناك مدينة صغيرة، آنا في منطقة فورونج). [المترجم].

ضغطتُ المفتاح، وإذا بي سمعت صراخي الخاص، كما لو أنه غريب. صراخ وراء الظهر، وحمله الهواء بعيداً إلى الوراء.

مشينا جميعاً بشكل أسرع إلى الهواء لملاقاته.

لقد شعرت نفسي أني شراع، متوتر وخشن، الجلد ضاق مع الثياب، أما الصراخُ، فالريح سدت راجعةً البلعومَ. أزيز وشرارة: أرتيوم أشعل أول مفرقعة والجميع تراكض، وكانت في الركض مُضاءةً بالنيران. مع نار المتجر لم يتمكن الهواء أن يحسن الأداء. تلمّسٌ وشرارة. تلمّسٌ وشرارة. لقد صورتنا بنفسها الثورة الروسية، وحفَظَتْ وجوهنا الفتيّة المسعورة في بطاقاتها غير القابلة للانطفاء.

لقد طرنا من الزاوية، وإلى الأمام على الساحة انتظرنا مشكلين صفّاً، متأرجحين مع الريح...

لقد تدحرجنا [هاجمين] عليهم وتوفقنا. كان منهم جنرال شرطة - مثل سماور ذي حنك كبير. منا - أنا، النحيف، مع مكبر الصوت.

- أنت بالنسبة إليَّ اليوم لن تتمكن من الوصول إلى موسكو!

- بيد صاحب الملك المخلبيّة انتزع من أحد ما مفرقعةً مشتعلةً ودسها في وجهي. تحركتُ إلى الوراء.

- قبيح!

- سمعت صوتاً، وبعد ذلك بصق أرتيوم على شاربيه.

سلاسل رمادية بسرعة خاطفةٍ بانيةً إسفيناً، اقتحمت فينا، ومن ثمَّ انغرزت. وبدأت المجزرة - كتلة حارة في الهواء، مع صرير النعال، مع الضرب، القتال والشخير. وفي كل هذا الوطيس كان الاحتضان الجماعي للكراهية، سرقوني من

هناك، من ساحة لينين. يدٌ قوية من ورائي أحاطتْ رقبتي، تماماً أفعى استوائية، وفجأة ظهر أنهم أربعة حولي، لا أصدقاء، ولا أصحاب في المواطنة.

ضربٌ في السيارة، ضربٌ بالطريق، ضربٌ في الاستجواب.

في اللحظات الأولى قادوني إلى غرفة صغيرة منفصلة، حيث انبعثتِ الرائحة الكريهة التي تشوش العقل - بشيء - ما محمّض ومعفّن، وصوروني.

«استدر!» - قال المسؤول. وقفت بشكل جانبي. «أنت، لا تتحرك!». وجهي تحرك، منتظراً ضربة.

في الليل أخرجوني مع بندقية روسية في ظهري إلى تحت سماء سوداء. ولا يمكن الهروب من هناك، من قلعة التعذيب الجسدي لهذه الأرض السوداء. كانت السماء ممدودة بدون نجوم.

ولكن، لأجل ماذا القلق؟ هذا واحد ما عربيد، في تلك الليلة، في الحقيقة عذبوه (كلما صرخ بشكل أعلى، نال [تعذيباً] أقوى)، حتى انطفأ، أنا - ماذا؟ حسناً، خذ، تحت مجرى التنفس، هيا خذ، بالوجه، خذ، انتزعتِ القبضةُ السيجارة من الشفتين... (معظم الرفاق، بالمناسبة، وأرتيوم أيضاً، تمكنوا في ذلك المساء أن يتفرقوا راكضين، وليسوا مختطفين). لذلك أُغلقُ المهزلة: «دوائر جهنم»، أو «المستديرة»، هكذا لقبّتُ الثقوبَ في الأبواب الحديدية للزنزانة. مُترعةً بضوء كهربائي مطفئ للبصر، ثقبوا دماغي بتحية من الخارج، كما لو أنه من كل ثقب توشك أن تخرجَ عصفورةٌ صغيرةٌ طائرةً، وستكون سرباً كاملاً... العصافير تزقزق، طائرةٌ في زنزانتنا المظلمة، مصطدمة بالجدران الحجرية!

كنت بدون حراك، محصوراً في الظلام بأجساد عناصر العصابات، الموقوفين من أجل اقفز - توقف [يقصدُ لأسباب عرضية]، فقدت رشدي، كنت مضروباً

بقوة، ولم أتمكن من إغلاق عينيَّ، منوماً مغناطيسيّاً بنور تلك الثقوب المدورة. الكل انتظر العصافير، لو تكون واحدة على الأقل. الدوائر سَحِرتْ. مررتُ يدي على رقبتي، متحسساً الخدش. حتى الصليب الصغير انتزعوه أمام الزنزانة، لا تكن مسيحيّاً! من المحتمل، كيلا أفتح بالصليب شرياني...

عندما خرجتُ، وانهال عليّ سيل من المكالمات والرسائل الإلكترونية، حزنتُ عميقاً: آنيا بقيتْ صامتةً. تلفنتُ. تحدثتْ بشكل ذابل وبدون اهتمام، يبدو أنها في الروب، تشاهد التلفاز هي لم تعرف عن أي شيء. هي لم تهتم بي، لم تطلب اسمي بالإنترنت، كان بالنسبة لها على قفاها، كيف ستكون الرحلة إلى مدينة غريبة.

أكثر من يوم جلستُ، هي لم تعلم. بعد أن عَرفتْ، مطّت القول «هيا، واضح»، على تلك النهاية الأخرى للخط هزت بكتفها الدافئ بعد الحمام.

بعد ذلك كانت موسكو الشتائية، حيث أيضاً ركضتُ، ملتفّاً حول الكثبان الثلجية، ومتزحلقاً. جاؤوا مع تفتيش إلى البيت. اصطدمتُ مع الشرطة في أبواب المدخل. اثنان تبادلا النظر، أما أنا، فقد ركضت. ارتطمت ركبتي بجليد قذر - أثر أسود على سروال الجينز.

في ذلك اليوم مفرزة كاملة اقتحمت الشقة، مُفزِّعةً آنا، لقد كانت بالنسبة إليَّ ألطف بكثير جدّاً من السابق إضافةً إلى أنها حاملٌ بابننا فانيا. نصبوا كميناً، ولكن تمكنتْ من إجراء اتصال معي. لقد أرعبت هذه الغارة آنيا المسكينة: حقّاً أرادت الراحة و لكنهم في موسكو طاردوني. الناشط ستيبان صاحب النظارات، مع الأسنان الملبسة برقائق فولاذية، مشجع كرة القدم، ضيعهم قرب البيت، الذي اختبأت فيه، وساعدني بالهرب عبر ممر أسود. لقد ركضنا هو

وأنا معاً، في عاصفة ثلجية تصاعدت من ورائنا رعدت صراخات. لقد افترقنا أنا وهو في الثلوج.

مُلاحقاً، مع هذا - بشكل وقح - وصلتُ بالسيارة إلى المركز في يوم عيد ميلاد أحد أتباعي، وهو صحفي ناجح: تجمع اللون المركّب للصحيفة شبه الرسمية، استهزأ الجميع من وراء الطاولة من خلاصاتي. أحد ما قال هكذا: «دائماً تركض!». وصلنا إلى المخرج بعد انتهاء العيد، انطلقنا. عبرتُ الشارع على زاوية شارع بتروفكي، هنا ربّتَ على كتفي فتى طويل ممطوط خلال ثانية وجدت نفسي عند تمثال فيسوتسكي المصلوب، ولكن في جميع الجهات ركضَ، ركضَ، ركضَ رجال. توقفت سيارات سوداء ومنها خرجوا يركضون. دباص مع شرطة مكافحة الشغب، هديرٌ قويٌّ وانطلق على الرصيف، ووقف مديراً جانبه إلى فيسوتسكي. لقد ابتسمتُ داخل نوادي الثلج، في حين كاميرا اللقطة العملية أشعّت بنار دائرية للمصباح الكاشف. فلاشات. كاميرا تصوير واحدة. وأخرى. وعلى هذا انتهى كل شيء.

اللعبة في الملاحقة. لاحقوا، مسكوا، سوّوا، صوّروا وبسعادة غامرة أطلقوا السراح...

خلال عامين كان عندي اختيارات. في البداية حلاوة «الصيف الأنثوي» [هو اسم ماركة سيارة]، صور اللافتات التي سوف تكون معلقة في كل الوطن.

ولكن لم يتحقق شيء؛ الصور ذهبت إلى القط تحت الذيل. الإنذار النهائي، المكتب الأعلى، قرقع قفل السجن. كل شيء كما في أشرطة قذرة وساطعة الضوء. تمكنتُ أن أنسرق إلى الأمام، خدعت الحارس المُخصص وهربتُ. أتذكّرُ خببي على السلم: بوخ - بوخ - بوخ. ركضت بغيبوبة، بعماء، كما لو كنت أكذب، والقلب ينخَز بشدة.

تلمظت بشفتي. فقاعة وردية. تعبت من الركض. آه، هذا أثر أحمر الشفاه الذي لك يا حبيبتي. أواه، أيتها الثورة، الصديقة اليسارية! لقد أعطيتُ ليس قليلاً من القوى الشابة إلى ركضنا غير القانوني، مغيّراً الحركات المقاسة.

لكن هناك أيضا أنيوشكا [تصغير لاسم آنيا]، البيت الأصلي، العشاء، ضحك الأطفال، معطف الحمّام، ألبوم صور العائلة.

ومن المحتمل، مهما كان الانشغال، سوف تكون الحياة ركضاً في الأرجاء المحيطة، وغدا - من جديد إلى الساحة؟

مجازفات الرعاع

كلا، سأحدّث بتفصيل أكثر. سأحدث بتفصيل أكثر، وأقول كيف اخترقت إلى البرلمان، وكنت أوْقفتُ بعيداً عنه بنصف خطوة.

كافؤوْني بحارس، لأني وصلت إلى نهاية الانتخابات. حرّاس مدرّبون وسيارات مرآوية مع زجاج أسود كيلا يقتلني أحد.

ولكن في التوّ أردتُ: افترضْ أن المكلّفين يثقون بي، ولو كان قليلاً، قليلاً، ولكن، تفضّل، احسبْ أنهم يندهشون، بأنني لست واحداً مثل أولئك الذين قبلا حملوهم وحموهم، بأني نحيف ومتواضع. وكنزة المسكين الليلكية، والقديمة التي يرتديها، كان أيضاً أبوه قد ارتداها من قبل.

تحت الشمس مرت سيارتنا المرآوية السوداء« الصيف النسويّ» [اسم يطلقونه على نوع من السيارات]. رنّ الهاتف النقال.

- نعم؟

- سيرغي ألكساندروفيتش؟ اسمي ميلا. كنيتي: سميرنوفا . أريد أن أهنئك: نجاح كبير، كاتب - عضو برلمان. وأنت ما تزال شاباً! في مجموعة الثلاثة الأولى! وفِق الأوراق الانتخابية لكل البلد! - صوت مدخنة نشط - قالت أنا أمثل دار النشر - سمّتْها - نحن علمنا أن لديكم كتاباً. أليس كذلك؟

- مخطوطة.

- أنت الآن مشغول بشكل كبير. ولكن لكان رائعاً! نحن نتمنى لو نتصادق معكم!

- اقترح خلال ساعتين. على مايا كوفكي هناك «مقهى - خاوس [البيت بالإنكليزية]».

- شكراً لك. أنت أيضاً ذو بصيرة. لدينا نوافذ تطلّ إلى هناك. إلى اللقاء!

- في السادسة، السادسة - بصوت خفيض تمتم الحارس ذو السلك الأبيض في إذنه المنفوخة. وهو شيء ما غير مفهوم.

لقد ركبوا معي اليوم الثالث. لقد كانت لديهم وجوه لا يمكن اختراقها، وقليل من الكلام. لقد بدا لي أنني أتمالك نفسي بشكل بسيط، وسهل. لقد أردت أن أحافظَ على نفسي بسيطة وسهلة، أردت باللطف أن أكسب القلوب التي وضع عليها السوط أثلاماً. كان السائق مترعاً بالبيرة، لكن الحارس، كان مدمن فودكا حقيقياً. نفس حار فاح من بين شفتيه الضيقتين الرماديتين، ومن فتحتي أنفه اللحميتين الكبيرتين، والأعجوبة التي حدثت، هي أنه يريد أن يكشر عن

أنيابه بكل حنكه، بطريقة تهريجية يقطّب أنفه، يزعق بطريقة بدائية. كم من التوتر والإساءات حقّاً خَبِروا حين غطوا بجلودهم شخصاً ما.

- مع من تتحدثون؟ - سألت في اليوم الأول.

- أنت ألم تلاحظ شيئاً؟ - حتى إن الحارس اتخذ وضعية الوقار.

- هذه مرافَقتُنا!

لقد رأيت المرافقة بشكل خاطف. المرافقة تصيّدتْ في الخلف، بالقرب من هدف خط سير السيارة، ثم اندفعت إلى الأمام ومهدت للاستطلاع: ما إذا كان هناك أخطار، وقدمت تقريراً عن المشهد عبر سلك الاتصال إلى الحارس. عندما وصلنا برّ الأمان، كان ينتظرنا أربعة محطمون فاشلون، سيارتهم وقفت وأبوابها مفتوحة على مصراعيها.

لكن، في القرب من كان هناك اثنان. السائق تولا والحارس كولا.

في اليوم الأول، في ساحة بلشايا دميتروفكا، الزحمة من السيارات والناس، أدركت الحب القديم، للشاعرة بولينا، بثوبها الأسود، وسترتها الجلدية.

أنزل الزجاج المُعَتم:

- هيا! انتقلَ زحفاً وأتاح لها مكاناً.

- هل أوصلكِ؟

- دخلت السيارة. هي لم تُظهر أنها اندهشت، هو الأمر تماماً مثل بدهية أن هذا الرقم هو اثنان.

- حتى التقاطع، هزت بشعرها الغني.

سديم منداح في نهاياته قرمزية رطبة. منذ ثماني سنوات كنت أحببتها، و هذه الشعرات حتى الجنون.

كان صدر منها إشعاع، كما في الزمن السابق، عطور فرنسية للأطفال (نسيت ماركتها وسألتها، ولكن من جديد، دندنت الاسم، راضية في كل مرة، ولكني نسيت من جديد). هبّت منها برودة مسالمة وأيضاً مفيدة للطبيعة. ضرب الخريف في شعراتها وثنايا سترتها الجلدية.

- أسمعتِ عن أحوالي؟

- لا أحسد.

- وكيف فيما يخصكِ؟

- من هم - الذين يخصونني؟

- الأحوال - أكّدتُ بتحدٍّ.

- ظلام دامس، أوي، قالت للسائق - ألا يمكنك، من فضلك، أن توقف السيارة هنا؟ و قالت له: شكراً جزيلاً.

صفق الباب. اختلطت مع الشارع. لماذا هذا اللقاء؟

«اليأس» - يا لها من كلمة هذه! في زمن ما دفعتني إلى اليأس، مغلقة الباب التالي.

- ظلام دامس، تنفسّتُ وأضفتُ بأسف: - لقد كنت عاشقاً لها. كانت حينها ما زالت فتاة صغيرة. وهذه هي الآن، أصبحت سمينة وسوّدت شيئاً ما لديها.

كلانا صمت. شعرتُ أن الجبين و الجمجمة يزدادان توردا، تماماً كما لو أني انحنيت فوق سماور مُسّخن بعد الانعكاس في النُّحاس العرقان. لكن هل أحببتُها؟ هل أحببتُ حقّاً ولو أحدا ما بشكل حقيقي؟ هل أحببتُ نفسي؟ لكان انحداراً حادّاً: إنها اللحظة الخاطفة للقفز من السيارة، ترك كل شيء، الإفلات من الحياة المقززة المجيدة، والالتحاق بالحياة الماشية وحدها، بالرجوع إلى أوقات المراهقة، حين كنت حراً!

- سيرغي، ارجعوا إلى مكانكم [كلّمَه بصيغة الجمع]، من فضلكم، غمغم كولا، دون التفات.

- هل هذا مهم؟ - أعدت الزحف راجعاً، إلى وراء ظهره.

- إنهم يقتلون، أين السائق.

تولا قاد، وتخلّف عن الحضور. كان لديهم ميول الرجال الآليين، ولكن في المساء الثاني لاتحادنا الغريب، ضلّ كولا. عرّجنا مشياً إلى المدخل، وقفنا في مقصورة المصعد. اعتقدت أن المصعد أصدر صريراً إلى الأعلى، وفوقنا شيء ما خشخش. لا شيء ملقى على سطح المقصورة. رفع كولا عينيه إلى السقف الذي يومض، الذي طاله بقذال عارٍ، وحنين جرى في الأوتار العضلية لوجهه. هو تمسّك بغمد المسدس على حوضه وأخذ يتحسسه.

ما الأمر؟ - سألتُ؟

أجابني كابوس عينين زرقاوين. هو لم ينظر إليّ، نظر إلى الأعلى. أحد ما سوقيّ كسر الباب في بئر المصعد، ورمى دلواً من الأوساخ. قصاصات وفضلات طعام معاً صعدت معنا.

- نيكولاي، ناديت ولمست بإصبعي جسمه المكتنز في بطنه، فانغرز بسهولة.

قُرِئتْ في عيني الحارس مصيبة شديدة: ساوت قنبلة - نهوي إلى القاع - اللحم مع الشظايا.

خرجنا إلى الباحة. هو صفع نفسه في جبهته. على الشفاه الرمادية احمرت الحياة:

- أرجو المعذرة، فقد استغرقت في التأمل.

هكذا كان اليوم الثالث للاتحاد مع الرجال، اليوم الثالث تسود فيه السيارة «الصيف النسوي»، تلفنت الناشرة.

في منتصف اليوم وصلتُ إلى مايا كوفسكي إلى «كوفي هاوس».

وجه مثلثي، شاحبٌ من البودرة. ربطات كبيرة، كنزة خضراء، نظارات ضيقة، قصة قصيرة لشعرات صفراء، فم منتفخ، الصوت لم يكذب، هي دخّنت بلا نهاية.

أنا لم أفطر بعد، فأخذت لفّةً وعصير كريفون. هي - أمريكية.

الحارس اعتنى بالزجاج، المظهر الصحيح بالنسبة لنا، أثناء التسيير: هكذا تطعن المسألةُ بالنظرة.

الشفتان المنتفختان تفترضان بطء الكلام، ولكن ميلا رشت بالكلمات، بحيث على الشفة العليا تقافز اللسان.

- هل تعطينا شيئاً جديداً؟ - دسّت بطاقة. - نأخذ دون مناقشات. نحتاج لك كمؤلف مسلسل حلقات. أنا ابتكرتُ لك فجوة: واقعية النشاط الاجتماعي.

- ما هذا؟

- هذا - أنت! أيها الشاب، الحيوي، سعيد الحظ، الجميل، كما في الإنترنت: جميل. هل سيمكنك أن تكتب لنا؟ اكتب ما تريد، وسينجح معك. أدر مذكرة يوميات. نحن سندفع لك بسخاء، ونعطي نسخاً مطبوعةً.

- ما هو؟

- كبير. سندفع كما للأكثر مبيعاً، لا تتوجع!

- أنا لست كاتب مسلسل حلقات - قلت عاضّاً لفّتي - لست مستعداً لاغتصاب ورقة واحدة بجدول مواعيد.

- عبثاً. ولكن ابدأ الكتابة على عماها، على المبيّضة، وستوزع على أنها «أورا»؟[1].

- وا أسفاه.

- كيف؟

- للأسف، أحب هذه الكلمة «أورا».

- اتّفقْنا؟

- سأرسل لك شيئاً جديداً، ويمكننا أن نلتقي أيضاً.

- لا يمكنك أن تهرب مني!- هي اهتزت بضحكة مصطنعة، وهنا في الوقت عينه حقيقة شرقت، ساعلة: هل سنحاسب؟ مضيفةً، أيها الكاتب؟

- أنا أضيّفكم.

---

(١) [صوت التعبئة والانتصار، المترجم].

وها أنا، حقّاً، نسيت حول الناشرة. في المحيط مع حميمية البستان الناضج خشخشت بدواليبها و خرّت بمحركاتها [سيارة] «الصيف النسوي». بيبل [إنجيل] - ليتا، بيبل ليتا، قلّبتُ الأمر. الوقت قصير ومُدَّعى مثل نثر الإنجيل. طقس قاتم. راحةُ قبل الموت. بعد عدة أيام، حتى يُوقِعَ ويَكسِرَ الهدايا بسرعة، يغسِلَ ويُكنس، ويتنفس لدقائق. صيف ذبل بحرية، حار، ونعم حار، تثاءب في الظل، ولكنها مفاجآت هشّة تأخذ من الخريف بيدين مهتزين.

قرب المقهى انتظرني المصور. كان من الضروري أن أعطيه الوضعية، كي تتعلق صوري بسرعة على اللوحات في كل موسكو وكل روسيا. لقد كان شابّاً، طويلاً، خجولاً.

- أدخل، لنشرب الشاي، قلتُ.

- شكراً، أنا شبعان، قال بصوت مكسّر. - هيا، أنت قف هنا.

الحارس درس المصوّرَ بانتباه شرس.

- مقابل مقهى - هاوس؟ - سألت. ستحصل دعاية للمنشأة.

- لا، على الصورة سوف يضعون خلفية أخرى - تلعثم الشاب قليلاً.

وقفت مقابل الواجهة الزجاجية، مع صورة فنجان وحبات من القهوة. كانت الشمس تضرب في عينيّ.

- لا تزرر عينيك، من فضلك. لتكن النظرة بشكل أوسع!

شككت، حدسياً، بأن كل شيء سينتهي بشكل خبيث جدّاً. أحد ما بشكل خفيف، نفخ في أذني و بدغدغة همس: سيريوجا أنت عميل شمسي. الآن

أيام ساطعة، تركض طريقك المنتصرة. ولكن مع تجمّدات - سمعت أذني الثانية - انتظر انهياراً. وما إن تطير كتلة الثلج - أنت تموت للأبد أيها السالف - بدهشة رنّت في أذنيَّ كلتيهما، وسددتهما.

نقّر الشاب بدون توقف. بادئاً بالتصوير، هو توقف عن التلعثم، أخذ يعطيني التعليمات:

- خطوة إلى الأمام... الكتف إلى اليمين أكثر... ارفع يدك... في قبضة ... الآن بكل بساطة بكفّك إليَّ... والرأس إلى أعلى...

لَكنْتُ ما وثقتُ بالصعوبات، هل قليل ما يمكن يعرّج إلى الرأس، إذا لم تكن في الوقت عينه حصلت على معلومات من الناس. أنا أغضبت الأكثر - أكثر علواً. قفزتُ في مستنقعات السياسة، وبقفزات خيالية عبرت. وجدت نفسي على الإسفلت المستقيم المحظور. في الأمام كان هناك نحو الأربعين متراً (بعدد الأيام) حتى النهاية، إلى مستوى جديد من الصراع والمصير. حين قفزتُ إلى الكومات، لم تصب القفزات. تفرّجنا منذهلين، مقدّرين بشكل شفاف عمر رياضيي القفز. وهكذا وصلت المنظومة إلى السطوع، الغضب، واكتشاف غريب الآن. هو بنفسه. غير صالح.

- ابتسم... لا تنظر إليَّ، انظر إلى جانب آخر... قلْ شيئاً ما... الفم بشكل أوسع...

يوم مشمس تبدّل بيوم مشمس. لقد التقيت مع الزميل هو أيضاً كان مرشحاً. هو مصرفيّ.

لقد انتظر في مطعم فيه إيقاع موسيقا، قليل الناس، وسط ضوء منخفض. صلح أن يكون بالنسبة لي أباً، كان مقدّراً له أن يجتاز إلى العضوية، ولكني وقفت أعلى منه في القائمة.

نهض نصف نهوض، قصير القامة، مع هضبة لفمه وتلّة لأنفه.

مسكت يده. أنا رأيته للمرة الأولى. على معصمه ساعة ذهبية رفيعة - رفيعة، ولكن عندي كُمّ كنزةٍ مثقوباً، فقط الآن لاحَظتُ ذلك. ويبدو أنه لاحظ هذا:

- تريد ارتداء الملابس؟ - سأل بشيء من القرف - أم إن هذه هي الموضة؟

راحة كفِّ صاحبِ البنك كانت متوقعة، وأنا قررت بشكل حاسم أن أناديه بضمير «أنتَ» [و ليس «أنتم» كما هو العرف بالتخاطب الرسمي].

- موضة للشعب! هل تجلس من زمن طويل؟

- لا-لا، قال. أنا طلبت شريحة من سمك الحفش.

- خذ حساءً، قلت. - ألا تحب الحساء من سمك القرش؟

- هو دهني جدّاً...

- هو كثيف. غيّر الطلب! لا تخلط السمك مع السمك!

- وصحت على النادلة: وجبة سمك الحفش! يا شابة، لا حاجة إلى الشرائح! وأحضري لنا اثنين من حساء القرش!

الصراخ كما في الاجتماع. صاحب المصرف تأفف في طقمه الفضيّ.

غرفت من الهلام الأسود، وأرسلت الملعقة إلى الفم، وأخذت أحس، من كل الجهات ممجداً. شعرت بالسرور، مراقباً، كيف في الجهة المقابلة تعكّر هو وأسودّ. هو أخذ يزداد عتمة، وهو يشرق الحساء. لقد برمَه. في قاعة معتمة كان هذا خصوصاً مُسَلِّياً؛ أن تراقب كيف يشرق الحساء ويكتئب. أراد هذا الذهبي شرائح، الأمر واضح مثل النهار... فيغ![1] لك يا طبخة الحساء!

- هل صار يمكننا التحدث؟ سأل مغرغراً في فهمه.

- حسناً.

وهنا لعق الحساء بسرعة غير متوقعةٍ، دون مضغٍ، مزدرداً ومُغمِضَاً عينيه، لمّ عن ركبتيه المنديل المنشّى، ورماه على وجهه وأخذ يمسح. أنا أحسست بسلطة سعيدة. غدا، من الممكن أن يدمروني، و لكن اليوم ركبتي عصرتْ هذه الصلعة. من هو؟ هو أخفضُ، أخفض، أخفض في الهرم السحري للسلطة. والكنزة عليَّ - ليس عيباً على الإطلاق، كما لو أنه يُسّعلُ في البيت، بل في اللباس المقدس المغمور بالدخان وهمهمة الكهنة. مستمعاً بنصف أذن الصوت المضغوط المقابل لي، اخترقت بالموسيقا الأسرار. الأسرار ضجّت في رأسي وتأرجحت. ولكن الصوت خاطبني في أذني بـ أنت:

- حان الوقت لصنع المناصب. لديك فرصة جيدة لنائب الناطق. ليتني أكون رئيس اللجنة... للصناعة... ضد تسيغانكوف وحده. هل تعرف تسيغانكوف؟ ولكن إذا أنت ساندتني فهو ليس منافساً... ولكن هذا له مقابل...

---

(١) [شتيمة جنسية مقذعة]. [المترجم].

قطّبتُ حاجبيّ وتذكرت اليوم الأول لسيارة «الصيف النسوي»: ولماذا التُقِيَتْ حينها التي كانت؟ أليس من أجل أن أعود إلى رشدي: بأن هناك الذين لهم أي نجاح خارجي - لهم صفر.

- مقبول، قلت: آمل أن أحُلّ هذا الموضوع.

- أحقاً...؟

- حساء مرعب، تركتُ الصحن مليئاً، وبدلالةٍ نظرت في صحنه المُكتَسح. - أنا لم أعد أحب القرش. ببساطة مُنتِنٌ أليس كذلك؟

شَتمَ.

- لن أجرؤ على إزعاجك بعد الآن. و قد أضفت بشكل مستهزئ:
- ليكسيتش.

- ماذا؟ - أنت حقاً ليكسيتش، بحسب الأب. سأحاسب. وداعاً، أيها الأب! لديّ هنا لقاء أيضاً.

ثبّتُ رأسي إلى الأمام، حين ضغط يدي، نهض، ومشى متجاوزاً إياي. بطرف عيني لاحظت: في الزاوية، انتقل ظلٌّ وزحف - إنه حارسه.

ثبّتُ رأسي، كأن الطبول رعدت طوال الوقت. ولكن في أذنيّ بصورة عجيبة، وبشكل مسعور صوّتَ: «تِشْ - تِشْ - تي ليتيشْ» «صمت - صمت - أنت تطير...».

برمتُ الكرسي بصرير. الحارس نيكولاي نظر بانتباه، شعت عيناه الزرقاوان في العتمة غير المطبقة. غرقت في هاجس اليأس. كيف سيكون هو، القاع، الذي يوجد لليأس؟ في أي شكل يأتي اليأس؟ وهذا الملاك كولا

- أليس هو قاتلي؟ ليس معروفاً حتى الآن، ماذا يمكن أن يعطوه من تعليمات. هؤلاء الرجال - هم جواسيس، هذا واضح؟ تحت خفر حراستهم من الأسهل لهم مراقبتي، وحصري أيضاً أسهل.

في الليل أخذوني إلى البيت الصيفي، حيث كبر الابن الصغير. لقد انطلقنا بسرعة في طريق السفر، الطريق تعرجت وبصقت حجارة، هي مظلمة وفارغة، ولكن أنا أجبرتُ نفسي على الاسترخاء، منداحاً على المقعد الخلفي، جاهزاً إلى أننا سوف نتوقف الآن. كولا، بشكل مسبق، فاتحاً باب السيارة الصغير، ينجرّ إلى هامش الطريق، يصطدم بجذور الغابة، يستهدف الجذع...

أنا غفوت، جاءني هذيان في الحلم، أفقت، كانوا واقفين.

- ما الأمر؟

- وصلنا - أغبشت، قال كولا فاتحاً باب السيارة الصغير بجانبي.

ولكن خلال عدة ساعات كان الصباح المشمس المبكّر- أخذوني- ناقليَّ عودةً إلى المدينة.

- نيكولاي، أنتم تشبهون عمي إلى حدّ كبير. في الحقيقة هو مات، ومن مدينة أورسك - قلتُ. - واسمه مثل اسمك.

- كيف الابن؟ سأل كولا، ولأول مرة ملتفتا إليَّ.

- مرِضَ.

- ما هو؟

- سعال.

- اليوم، كانت عملية للابنة - قال كولا - زائدة دودية.

صرخت في الليل من الألم. ولكن الآن كل شيء طبيعي، مستلقيةً، تستريح.

- من المحتمل أنهم لم يناموا إطلاقاً.

- وفي كل الأحوال، نحن لا ننام، همهم متشكياً.

- هذا هو العام الثالث ونحن معاً. نيكولاي مسافر في القاطرة الأولى من المترو. هو يسافر من ميدفيدكي. بالنسبة إليَّ أقرب، من أتراد. التجمع في المركز. نصف ساعة وانطلقنا.

رجعنا إلى موسكو. هبت ريح شمالية. وفجأة طلبوا مني الاستسلام.

لقد وصلت بالسيارة إلى المكتب، إذ كان ينتظر موكَّل سري بالاستلام - موظف من التحليق العالي يرتدي جاكيت بنية مبرقشة. طارَ أعلى مني. كان له حاجبان سوداوان، ناميان بشكل غزير على النحو الجنوبي، ومثلهما شاربان.

أثناء دخولي غرفة المكتب، اصطدمت به حاجبان مع حاجبين. بيد واحدة أحاطني ضاغطاً، و الأخرى أدار المفتاح.

قال إني سحبتُ ورقة نصيب، والآن يجب إرجاعها، ولأن هناك قراراً من الشخصية الأعلى في البلاد:

- هذه مصالح الدولة، ويجب ألّا تكون لك.

- مصالح غريبة لدى الدولة ...

- أفعل كل شيء كما سأقول لك. وإلا... ستكون، بكل بساطة من جديد -هو انتقى كلمة، و بحدة لفظها: رعٌّ.

وهجم: سنعطيك مالاً، مالا نعطيك، منصباً، أو تقع في الوسخ. وهذا يمكن أن يكون السجن، وكل شيء ينقلب. هذا يمكن يكون قرميدة. قرميدة تقع عليك.

- نذهب إلى لجنة الانتخابات، توقّعُ ورقة، لسنا في حاجة إلى فضيحة.

وراء ظهري كانت حصيرة شباك. عبر قذالي سمعت موسكو: ضحكٌ نسويٌّ مهشم، ضارب دفٍّ معمّر أحدب، أحد ما ضغط بوق السيارة. ملتقطاً مساندة من الضجيج الجانبي، فكّرتُ: هناك وراء المشابك الحديدية للنوافذ، يُسمعُ بشر غير عاديين، شجعان. عددهم قليل، ولكن يوجد مثل هؤلاء. من البديهي، في الواقع، أن تخضع إلى رجل بحاجبين وشاربين، فهو أقوى، ولكن الآخرين حانقون، يعيشون وحدهم، وضعفاء، هل يمكنني بالفعل أن أكفَّ عن خدمتهم؟ لماذا عليّ أن أخضع، وأشطب أنا بنفسي نفسي، كما لو أنني اقترفت ذنباً في فعلٍ ما.

- لا.

- آه، لا... أنت لن تخرج من هنا؟ وأنا قد كذبتُ عليه.

لقد أطلقت قولاً، بأني موافق على كل شيء، وأرغب بشرب كأس من الشاي، وهو أخبر بأنهم سيجلبون الشاي، قلت إنني أريد أن أكون خمس دقائق وحدي، فقط خمس دقائق، في المكان المجاور. كفتني الدقائق، لأقول للحارس، الجالس صنماً في الممر: «أنا ذاهب إلى الحمام، وسأرجع»، انقذاف إلى السلم، الهرب إلى الأسفل، القول للسائق الذي استدار للملاقاة: «أنا ذاهب لأجلب سجائر»، وحين كان يتمثّلُ الأمر، رميت جسمي إلى الزاوية. في تفيرسكي [اسم لساحة أو شارع] توزع سائقو التاكسي.

- خمسمئة - قال روبل.

- حنيت رأسي موافقاً.

هو نقلني بسرعة

قفزت إلى المدخل، وبدأ الهاتف يرن. دخلت في المصعد، من جديد خشخشة، ولكن بشحوب أكثر. جليّ أن القمامة على السطح فسدت وصارت أسهل، تضجّر الحارس: «أين أنتم؟ هنا يبحثون عنكم، أنا أعطي السماعة...» دبّ المصعد عبر خرير مصرف مياه الغسيل، قطعتُ الاتصال.

يومان عشتُ وراء الباب الحديدي. مرة وراء مرة أخذت مغطس حمام. اضطجعت حتى الحنجرة في المياه الساخنة. هم لا يحسمون. هم انتظروا. وراء النافذة توهج الربيع بشكل دهنيّ، رعدت قطارات محطة سكة حديد كييف. مساء راقبت كيف، بشكل يقظ، يحركون نار الفانوس على دواليب التكوين الأسود. الطعام انتهى بسرعة خاطفة، كان الإنترنت الذي لا ينفد. الضغينة ضدي (خمس مطبوعات في الساعة) وصلتْ إلى الوهج الأبيض، ولكن لم تصل بأيّ شكل إلى الهدف، فقط أعمت بالضوء الوضيع المسطّح لجهاز المراقبة. كانت الزوجة في البيت الصيفي مع الابن، اتصلت بها بتلفون المدينة: بكى ابني وسعل.

كتبت الناشرة بالبريد الإلكتروني: «سيروجنكا! أتوسل! أين المخطوط؟». أرسلته لها. بعد ذلك أتى مختصراً بالإلكتروني: «أقدم اعتذاراً للحدة. هيا نلتقي. إ. ف.». لكن الطقس وراء زجاج البيت انهار! بعد أن استضافت أسبوعاً، ذهبت سيارة «الصيف النسوي».

لم يسأل الرجال عن أي شيء. الحارس التقاني قرب الشقة، أجلسني في السيارة. صمتنا طوال الطريق، فقط هو أسرّ مع السائق أحياناً. أنا في السير، صفّرتُ.

الموظف كان مرتدياً بذلة الحداد الضيقة. فتح الباب الهائل صامتاً. هناك جلس وحش. رئيس كبير جداً. زأر، غلا اللعاب. طفحت غرفة المكتب بالكلمات الثقيلة.

خرجت واصطدمت مع الموظف، ألقى نظرة خاطفة مع الأمل، وأنا هززت بكتفيّ، هو تشبثّ بشاربيه كما لو أنهما احترقا. بالقرب من الموظف وقف صاحب البنك القصير ونقّل عينيه. «هالوو [مرحبا - قالها بالإنكليزية]، أليكسيفيتش» - لم أستطِع المقاومة.

- يفغيني أليكسيفيتش، قال بشكل مقطع.

نزلت إلى المقهى، تحت المكتب، أخذتُ لحمة خنزير مدقوقة، كأس كبيرةٌ من البيرة الغامقة.

- ألو.

- سيريوجنكا، عزيزي أهنئك! لقد كتبت كتاباً رائعاً! كلنا مندهشٌ. متى اللقاء معك؟

- خلال نصف ساعة، في مايا كوفكي، هل توافق؟

موافق، طبعاً، موافق!

- البيرة، كان نصفها، هاتفتني زوجتي.

- لقد مرضَ. كانت الآن سيارة الإسعاف هنا. نحن مسافران إلى المستشفى.

- ألطف بنا يا رب!

فتح الحارس لي باب السيارة المرآوية، وجلست مستقراً في الأمام.

إلى مايا كوفكي، قلت.

- هل سمعتم، سألَ السائقُ.

- ماذا؟

- في الأخبار يقولون إنهم أقصوكم، و جعل صوت الراديو أقوى.

- هل توصلني إلى مايكوفكي؟ - سألت بحرارة، مُخفياً الهاوية الآخذة في الاتساع.

كلانا نزل من السيارة في مايا كوفكي.

- أتمنى لك التوفيق - علَك نيكولاي الهواء الميت.

- الحياة طويلة، ربما فجأة نتقاطع مرة أخرى؟ أناتولي ابتسم ابتسامة خبيثة.

- أيها الرجال! هناك سؤال واحد: كيف بدوت لكم؟ أنا لم أوتّركم؟ لقد كنت رجلاً طيباً؟

- كنت... ستكون! أيّ سنوات تكون لك! قهقه السائق.

- يا شاب أنت طبيعي - زفر الحارس - وهو بالشعور ضئيل.

- الشعور؟

- ماذا تعتقد، ألا نعرف كلمات متنوعة؟ اهتز تولا قائلاً: الشاي، وليست الأقنان.

- نعم، هل حقّاً لم أكن بسيطاً؟ لقد كنت معكم طوال الوقت أتعامل بشكل أخوي... لقد أردت بصدق...

- وهذا هو السِّيئ، قال الحارس مقطباً حاجبيه بشكل كامل.

تعانقنا، في البداية تعانقت مع كولا، هو ربّت على ظهري، بعد ذلك مع تولا، بصورة أكثر رسمية، هكذا، بشكل مازح. سيارة المرافقة اسودّت بالقرب منا. لم يخرج أحد منها.

تأخرت الناشرة.

وصلتْ طيراناً. كان بادياً في وجهها، أنها حقا تعرف.

- هل وصلت قفزاً؟ أيها الإنسان الشاب، أحضر لي كابتشينو، عصير البرتقال، سلطة «تسيزر» [القيصر - المترجم] لفّة من لحم العجل، وسجائر «برلامنت لايتس»! [البرلمان، الخفيفة بالإنكليزية].

- طلبتُ ماءً.

- هل تعرف أن الناس يبذلون الجهد طوال الحياة للحصول على هذا الثمن؟ أنت ضيّعت كل شيء! هل حقّاً لا تشعر بطبيعة الوقت الذي يهلّ؟

- ما هذا الوقت؟

- أما كان لك أن تشوف مصلحتك معهم هناك؟ هل تسوّلتَ لنفسك شيئا ما؟

- هذا ليس مهما بالنسبة إلي، أنا أريد أن أكتب.

- إلى أين؟ قصاصات على الأعمدة؟

- وما هو المهم؟

- النجاح.

- أكملتِ الطعام، أظلمتْ وراء النافذة وابتردتْ.

- المعذرة، حان وقت الجري، أخرجتْ خمسمئة روبل، ليلكيّة، مثل الكنزة التي عليّ منذ سنوات طويلة.

- أنا أضيّفكَ...

- نعم إلى أين... اختفتْ.

- هل يمكنني أن أنظف؟ سأل النادل.

- تروَّ...

- جذّذت قطعة من لفّتها التي لم تؤكل كلها. نظرت إلى عقب السيجارة المدخنة. أضفت مئة روبل، وردية، كنجاح، وخرجتُ.

- «القنوط» يا لها من كلمة! ما عرفت شيئاً غير القنوط، في الوقت الذي ركضت فيه، في موسكو الجيلدية، وهي تتلألأ. كشرتُ، مختنقاً، أسناني تجمّدتْ، ولكن غسلتها بالبخار. لقد دفّاها قليلاً. قطعت قافزاً إلى المعبر الأرضي من الجهة الأولى لتفيرسكايا إلى الأخرى، وأخذت اصطاد سيارة. ولكن السيارات أُغمضتْ عيونُها في كتلة من الشرر. قفزت مع يدٍ ممدودة. دقّت الأحذية الصيفية في هذه الرقصة. نقر خفيف ليس مسموعاً وسط السدادة - بشكل عام في نقيق وولولة

موحشة. صوت قاطع طرق مولول تنامى مع الوقوقة. قفزت متراجعاً، ممسكاً بالعمود، وطارت السيارة السوداء مضيئةً بسعادة قرمزية ساطعة، وهي متشبثةً بالرصيف بدواليبها اليمينية. سيارة بقطعة حارة من السلطة. هذا أنا، تمّتمتُ حَذَاءَ نفسي.

غمرتني بشرارة و ذهبت مع صورة آنية لهزيمتي.

انتزعت يدي عن العمود. ركضت.

ركضت مكدّماً، هابطاً مع الماشين رامياً يديّ أحياناً لملاقاة السيارات، ومن جديد ملوحاً بيديّ، ركضت.

سواد فوق المدينة. سواد فوق الأسلاك وشراراتها. النيران بضوئها المخادع فصلت الرماديّ عن الأسود، و البخار الرمادي تمشّى تحت السواد، تدفق دخان السيارات الرمادي.

هذه النيران عينها، اللمعانات المتنوعة الألوان، الأرجوانية والذهبية بدَت كمصادفات. الجوهر هو أن الشكل الخارجي المباشر للعالم، كان هكذا - الأسود و الرمادي. وطار الرماد الخفيف الوزن: هي بادرة سقوط الثلج.

هذه لم تكن مدينة مع مركز أنيق، بل جاماً مدوياً. و أنا ركضتُ في قاع الجام المدوّي.

وهذا هو «ماكدونالد». مشيت في القاعة الدافئة إلى الحمام المجاني، ناقرا رجليّ التي لا أشعر بهما بالحذاء الصيفي. «صندوق المحاسبة المجاني!» - صاحوا من اليمين. من اليسار علكوا مُصفّرين. من البلاطة ابتسمت الملاعق بشكل واسع.

ابتسموا: «الآن أنت رِعٌّ».

واصلا إلى البيت، لم أكد أجد في نفسي إرادة - تحريك النافذة، ووضع بياضات السرير، وخلع ملابسي.

جاءت رغبة بالشرب، ولكن خور القوة انتصر، وما تزحزحتُ. وراء الستائر، بشكلٍ منوّم، مرّ القطار، الوسادة امتزجت مع الخدّ في نسيجٍ متنفِّسٍ نابضٍ واحد. النبض أخذ ينقطع، أحسست بسرعة بالانهيار. دختُ، ارتفعت سحابة دخان، تحولتُ إلى فقاعات وهي بشكل مسعور وموسيقي ارتفعت إلى الأعلى. في منطقة الحنيجرة البلاستيكية انفجرنا وضِعْنا. لم ينته الحلم ومن جديد - ركضٌ أكثر وخزاً على طول الجدران الشفافة، من جديد تومض الحنيجرة الزرقاء الفظة، ولكننا ركضنا من جديد، من جديد انفجرنا، ومن جديد لمّنا وسامحنا بعضنا بعضاً، أسرعنا إلى الأعلى.

أفقت. في الفم جفاف تام. واجداً إياه، أخذت عن الطاولة النقال الذي أظهر الساعة في هذا اليوم. بمحاذاة البيت قرقع قطار المساء. كم نمت حقاً؟

لسبب ما، كما العادة، ضاغطاً بكفي الأيمن، الهاتف النقال، زحفت إلى المطبخ، وباليد اليسرى رفعت ثقل إبريق الشاي، أطلقت عبر الأسنان اندفاعة خشنة، رجعت إلى الغرفة، سحبت ستارة واحدة، تركت الأخرى نائمة، نظرت في المرآة المعتمة للهاتف. رميته فوقع باصطدام أبله على الطاولة على الأوراق، وبدوري أخذت وأنا مهزوز ألبس ثيابي. بلا مرونة حجلت في سروالي، مخرجاً نصف وجهي من البلوزة. نظرت إلى هذه الطاولة، وسط الأوراق الغامضة، كانت هناك ظلال أوراق؟ «موغاغا»، كما كنت أقول في طفولتي، بدلاً عن

«بوماغا» - الورقة [باللغة الروسية]. لوقت طويل قلت: موغاغا. الأوراق الكثيرة غطّت الطاولة. المنشورات الجريئة التي كان من المخيف إعادة قراءتها، ذات الأسلوب الجريء، الآن - هي سخرية شريرة. مشاريع مهمة. هذه التي يجب تمزيقها. جريدة لا يحتاج إليها أحد مع صورتي. سترات. بقايا. بطاقات مع أسماء وأرقام. وهناك دفتر أحمر الغلاف، لمّاع. إلى هنا بدأت أحمل دفتر يوميات عملاً بنصيحة الناشرة. غطيت صفحتين بحروف ممطوطة. الآن ألاحظه بقرف. فك الغلاف القرمزي الرطب، هناك - حروفٌ طائرةٌ. إكمال القراءة، إكمال القراءة بالقوة حتى العبارة الأخيرة، التي ابتردت فوق الفراغ، والهروب. بالطبع إلى الحمام. والغرق في مياه دافئة.

سكت التلفون. وراء النافذة، كانت سلسلة حلقات جديدة من الفيلم عن الطبيعة. أبيض - أسود.

وهنا تذكرت كل شيء. تذكرت بشكل مفاجئ. تفكرت عن الطبيعة، وبثانية نهض من جديد الفصل السابق [المقصود فصل من كتاب]. الطفل في المستشفى. نعم! الابن! وبسرعة، ناسياً عن الكراهية، إلى الطاولة، قفزت إليه، و أخرجت رقم التلفون من الأوراق و ضربت الأرقام إلى الزوجة.

- مرحباً.

- أنا أسمع، ما هو المطلوب؟ الصوت الرقيق تضاعف في صوتها كطقم من الشفر.

- كيف هو؟

- وكيف يمكن أن يكون؟ هل تريد أن تساعد أم تثرثر؟

- كيف هو؟ هل أفضل؟

- سيّئ.

- الحرارة؟

- في الصباح أقلّ، يعطونه مضاداً حيوياً.

- المستشفى هذه، لا بأس بها؟

- حرام. لو كنتَ عضواً ممثلاً للشعب - لذهبنا إلى مستشفى آخر.

- حسناً ماذا عن هذا الأمر... من الواضح لن أكون أبداً.

- آ؟ الانتخابات خلال أية مدة؟ كم بقي لك؟

- آخ... توقفي. أحقاً أنت لا تعلمين؟

- ماذا أيضاً؟

- ولكن...البارحة... أليس عندك مذياع؟ ألم يقل لك أحد؟

- ماذا ؟

- إيهٍ... البارحة... مذنب، انتقيتُ الكلمةَ، وأطلقتُها بسرعة: بالمختصر أبعدوني من الانتخابات الملعونة، أيتها العنزة الصغيرة آوو [صوت تعارف كيلا يضيع المرء عن الآخر في الغابة]! تأسّفي عليّ.

في الطرف الآخر شيء ما تهاوى.

- ماذا يعني هذا؟ هي مطت الكلام - التأسف؟ أنت تمزح؟ كيف هذا - أنهم أبعدوك؟

- أنا لا أمزح.

- ولأجل ماذا؟

- إيه... لكن أنت تعلمين... أنا بالنسبة لهم خطر.

لقد خاصمتهم.

- لماذا خاصمتهم؟

- وماذا، هل أمدحهم.

- اللعنة عليك، هي رشقت الكلام المعتاد يوميّاً وانقطعت عن الحديث.

الأمر هكذا دائماً! حتى إني شككت، ما إذا كانت فهمت أن هذا كان انهياراً بيننا.

لقد عشنا معاً حتى الآن العام الخامس - وكان عمر الابن عاماً واحداً.

مرضه ألهاني عن فكرة الانهيار.

من الضروري السفر إليه، فهمتُ. إلى ضاحية موسكو. إلى الابن. أراه. أحضنه. أن أريه نفسي - هذا هو المهم. سأركب الحافلة الكهربائية، وأصل إلى بوشكين، هناك على الرصيف سأسأل عن مكان المستشفى. لا أتصل الآن بآنيا - قررتُ - هي ستهدأ. ستكون مع وصولي من السفر حنونة، حتى إنها سوف تبدأ بالتأسف لشرّيتها. هكذا ذهبت في حلمي، حين أخذ الهاتف النقال - المحشور في جيبي - يئن. إنه الرنين الأول لهذا اليوم.

«ديما. ريازان» - ظهر على شاشة الهاتف.

- مرحباً ريازان! - نَبَحّتُ كالعادة بشكل نشط.

- شيء رائع. لقد وصلنا من السفر إلى موسكو. هل هناك رغبة في التلاقي
- رن الصوت بشكل متجهّم.

- اكتبِ العنوان...

خرجت إلى الشارع؛ تجمّدٌ وزمهرير. التقينا في مشرب بيرة قرب البيت تحت الرعود الفرحة للبوب، كانوا ثمانية. يرتدون جاكيتات جلدية. ديما هو قائدهم. ذو ناصية سوداء، نحيف، تجاعيد ندبة مبكرة على الجبهة.

- لقد أتينا لنعرف ماذا علينا فعله لاحقاً.

- لا أعرف، أقول بصدق.

لقد طلبت كأساً كبيرةً من البيرة غير المعلّبة لكل واحد. رفعت زجاج الكأس ورأيت العالم ذهبياً، وملكياً.

- لا أعرف أيها الإخوة - كرّرتُ.

- من يستحق التمزيق؟ سأل مراهق ليس معروفاً لي، بصدغين حليقين.

- إنه الماضي - همهمت ساخراً.

نهضنا باكراً، في الظلام نهضنا، وانطلقنا مسافرين إليك... انطلقنا - أوضح ديما - متفحصاً إيايّ بشكل متجهم. كانت لديه عادة تكرار الكلمات. - إلى أين علينا أن نذهب؟ نحن جاهزون. نحن معك... نحن جاهزون... لقد كنا عصابة. نحن عصابة... نرمي بالحجارة. دعهم يقيدوننا. أتريد إلى الساحة الحمراء، نذهب. وراءك نذهب... ننهض؟

- لا داعيَ أيها الشاب، لغوت كالأطفال من خلال الرغوة [البيرة].

أنا شخص عاميّ، مع زوجة شريرة و ابن صغير مريض. ولكن ظهر الشاب الذي لم يخنّي و نقل الشباب إلى موسكو. هل هذا قليل؟ ولكن أين فورونيج؟ فورونيج لا تتكلم.

- شكراً، أعزائي. عندي لكم مهمة بسيطة: عودوا إلى ريزان. انسوا ما بشأني. أريد شيئاً واحداً: آمل أن يكون كل من مشى ورائي موفّقاً. يجب ألا يعاني أي واحد بسببي.

- أأقول لك بشكل بوضوح؟ انتفض واحد صغير الجسم أصلع يضع نظارات دائرية - أنت اقترحت لنا إثما! وهذا هو القائد... - هو لوّح بيديه بشكل مضحك، كم هو كاذب.

- اجلس، أنت يا كاستيان أفيغيل انبسط؟ - شدّه ديما بشكل حاد، وهذا تداعى راجعاً، وبنزوع قوي أطفأ نفسه برشفة خمر كبيرة من البيرة، راشا النظارات، ورمّش تحتها.

أنهينا شرب البيرة. ذهبت إلى طاولة المحاسبة، دفعت، وخرجت مودعاً حانياً برأسي. بشكل قاس من الشفقة، كيلا يأملوا من المعجزات شيئاً، بل ليكدّوا لأجل مستقبل الريازانيين: أنا ما عدت زعيماً لهم. هم احنوا رؤوسهم - الثمانية في الوقت عينه. إلى ماذا يؤدي انتقامهم غير المعقول؟ دعهم يتحررون من هذا الطريق، وبقدر ما يكون بشكل أسرع يكون الأمر أفضل. ذهبت، ولكن في روحي انسابَ صوتٌ مبتهج: «ش - ك - راً، يا فتيان!».

قررت ألّا أعود إلى البيت، بل أذهب مباشرة إلى محطة القطارات، ومن هناك إلى المستشفى. كان المترو بالقرب من البيت. بيت ستالينيّ سميك الجدران،

وقف في محيط خطوط السكك الحديدية، من الأمام، وسكن الطلاب الجامعي، من الخلف. هنا كان من القفا جادة كوتزوفسكي. الطرق فاحت منها رائحة القطران المغلي للسكن الجامعي. هذا النتن أو غيره اجتمع بصلة قرابة مع المرار الممزوج بشكل مزعج مع البرودة. خرجت من مشرب البيرة ودخلت في الحركة. وجوه صفراء سبحت في المحيط، العيون لمعت - هؤلاء هم نزلاء السكن المشترك الذين خَطَوا في حشد عنيد. في العيون كآبة آسيا. هل هم اتفقوا أن يمشوا معاً؟ هل هم صينيون أم فيتناميون؟ بساعات بيولوجية داخلية أم بالاتفاق توحّدوا ومشوا؟ هم تحركوا، ورغم أنه سيل متقطع وحر، ولكن كانت تلك حركة أخوة. مشيتُ معهم و أحسستُ نفسي حازماً أصفر الوجه مائل العينين. مع هذا على اليسار مني مشى بشكل كامل أرنب بريٌّ رمادي، لَحِمُ الوجهِ عادي، ولكن العينين مضيّقتين ضائعتين مع المُكر، باختصار، لقد أقسم لآسيا على الوفاء. لقد لاحظت عينيه، لأنه حملق بي، وهو يخطو بالقرب مني، وأنني وإياه قد ارتفعنا فوق الحشد، كنا متساويين. وجهه لم يغير تعبيره، ولكن عينيه عاشتا حياة فضولية ذكية. لقد استجبت له في لعبة النظر، وهو بدون رغبته أشاح بنظره. ولكن الآسيويين لم يحدقوا بي. هم لم يحتكّوا ولم يتدافعوا. أحياناً نادى واحدٌ الآخر. نحن زفرنا بخاراً، وهو أيضاً كان يزفر بخاراً مثلنا. في تلك اللحظة أخذت أتساءل عن لغتهم، هل هي صينية أم فيتنامية؟ لا فرق؟ هكذا امتزجنا في صورة لمظهر داخلي فظ أسود معصوف بريح شتائية. ودخلنا في قطار الأنفاق.

دخلنا قاطرة مؤكدين أكثريتنا، واندفعنا إلى مركز المدينة. ها هو الجيش الذي تستحقه - فكرتُ، بلا اكتراث مُغمّى متأرجحاً بين الأجسام.

لقد بدؤوا يرمقون بنظرهم، مُبارينَ تزامناً مع قعقعة القطار. لقد رقّقوني عصراً، وأجسامهم ليس فقط لم تتأرجح، بل تذبذبتْ وارتجفتْ تحت الثياب السميكة جراء الأصوات الصارخة القوية.

محطة «كييف». نظر إليّ، عبر كتفيه ورأسه، الشاب - الأرنب البري الرمادي. هو ذاك الذي مشى قربي في الشارع، بعينين رماديتين يقظتين «أهو شاذ جنسياً؟ - فكرتُ - والتصقَ». النظرة ليست تهديدية، ولكنها متفحّصة. وأنا أيضاً صرت أتفحّص. الوجه كوجه، حليق بشكل دقيق، الغدة تحت الذقن منشطرة بِتَشّكٍ، الشفتان منتفختان ولكن مضغوطتان، الأنف جبلي وقد يكون مسكوراً، القبعة سوداء محوكة. يبدو أن نظرته كانت غير مكترثة، بالذي أنا أرى في نظرته. الشاب من جديد على مضض أدار عينيه عني.

محطة «سمولينسكايا».

لم ينزل الأسيويون من قطار الأنفاق. لقد رأيت الرصيف في الفجوة بين الأجسام، على نحوٍ غير نهائي عُجِنَ ثنائي: رجل عجوز مع امرأة مسِّنة، وهما لم يدخلا القطار. صحيح، عندنا يعصرون بشكل مميت... عندنا آسيا. «مترو» - هي كلمة آسيوية. بدأت أبحث بعينيّ عن عيني المتجسس، ذلك الشاب المرتدي قبعة سوداء، ولكن لم أجده، وفي المقابل الصفر، ذوو البثور، الوجوه المتوترة بالصراخ، الخدود المقعّرة، تفاحات آدم المهتزة - كل هذا كان بكثرة.

«بستان ألكسندري». في النهاية.

اندفع الآسيون بشكل منظم عند الباب. هذا ألقاني بعيداً. الحشد الذي أتى بالمقابل محا أُخوَّتنا. تفرّقنا، رحلة الحشد انتهت. لقد انتقلتُ إلى المكتبة.

صعدت إلى قطار آخر. كان الناس قليلين. جلست مستقراً. رفعت رأسي. عيون رمادية نظرتْ بانتباه.

إيه، الوغد! جالسٌ في المقابل. هذا هو عينه، بلحظة خاطفة تعكر، تفوق، عدم لياقة، وظِلُّ ابتسامة ساخرة انزلقت على محياه. لقد رفع قبعته الصوفية، كاشفاً رأساً أسود الشعر حليقاً بشكل دقيق، ومن جديد غضَّ الطرف. وضع القبعة على ركبتيه وتوضّع من جديد.

«حارس أمن!» - اعتقدّت.

وتذكرت في الحال: ولكن أي حارس؟ لمن أنت ضروري الآن - حتى يُرسلَ حارسٌ وراءك؟ متضامن؟ متعصب أبكم؟ عرفني وبتعاطف يتبعني بشكل سري ليحميني؟ أوي، هذيان. لقد أظهرت لساني.

- أيها الشاب، تصرّف بشكل لبق! قالت امرأة منتفخة، بصوت قوي، كانت جالسة بالقرب منه.

أصابه مسٌّ، كان في حيرة من أمره.

- ماذا؟ ما هذا؟ مرر قوله، منحنياً إليها بشكل جزئي.

- أنا لا أتوجه إليكم... أنا، له... هذا صاحب اللسان...

محطة «فصيل الصيد». طرت من المكان، تحت إمرة الشعب «يا إلهي» طرت من القاطرة ودخلت طائراً القاطرة التالية.

التفتيش الأخير. سرت إلى نهاية القاطرة، ورأيت أن الشاب واقف. هو وصل إلى نهاية قاطرتي، وعبر الحواجز، حدجني بنظرة. اهتززنا كلانا، نظر واحدنا إلى الأخر، بيننا صوتت أصوات حادة متقطعة وهزّت. تصوب من

قاطرة إلى قاطرة؟ أطلق النار! سيكون بارداً. جلست على مقعد في محطة «لوبيانكا»، جاء إليّ ووقف من الأعلى، ساكتاً، ممسكاً بيد واحدة محور الممسَكِ، وبالأخرى يضغط كتلة القبعة.

- ماذا تريد؟ - قلتُ.

- صوتي اختفى في القعقعة.

- ماذا تريد؟ صرختُ.

- إيه، أنت لماذا تصرّخ؟ انحنى راشا فودكا فاسدة، الرجل الأشعث، ذو الشعر الخشن القصير البرتقالي، الذي هو مصبوغ بكل تأكيد.

صمت المتجسس بلا مبالاة.

- أنت ماذا؟ نعم أنا في كتيبة تأديبية عبر الأسنان أزبدتُ... - انحنى الرجل، تورّم الوجه، جلده تحت شعر خنزيري تمايل بشكل مسرحي.

- اهدأ أيها الأب [في المسيحية]، قال الشاب بصوت غائب ودفع الرجل. «بحيرات نظيفة».

أعطى الرجل زوبعة عالية (كما لو أنه أخرج سدادة بأسنانه) وسقط. صفقت الأبواب مغلقةً. رأيتُ كيف يلتقط الرجل بيديه، متمايلاً، رخام الحائط. وقف الشاب فوقي متسلّطاً. متأرجحاً بشكل إيقاعي، ثبتني تحت نظرة رمادية.

«بني، لتكن سليماً!» - اشتغلت الصلاة في رأسي، وهكذا انصرفتُ عن هذا الشبح المخيّم. أنا لا أخاف القاتل [رُسمت الكلمة بحروف روسية والمعنى باللغة الإنكليزية]، لقد حدث أن قتلوني في الصراع، من الضروري ألّا يمرض ابني.

«البوابات الحمراء». «كومسمولسكايا»[1].

قفزت، هو تنحى بلياقة. خطوات على الرصيف، على الشرفة الصغيرة جمد موظفان معيّنان، قفزت عبر الحاجز. فوقهما صخبتْ سيول ساعِيَةٌ من الناس. على اللوحة الرقمية ١٥,٢٤، هي ساعة قطار الأنفاق مكتوبة على شكل علبة بيض السمك. الوقت - هو تلقيح بيض السمك. تحت علبة بيض السمك، توجد المرآة الزلقة. التي تمتصّ القطارات دون النظر! دون أن ألوي على شيء! بخطوة عريضة انحملت على السلم الكهربائي، متلمّساً قذالي مع المهمة.

المظهر أخيراً! أتركُ البرد يدخل في الرئتين! محطة قطارات ياروسلافكي. دخان سجائر، وفطائر، موسيقا إيمائية من الأكشاك، لوحة الحافلات الكهربائية مرئيةٌ بشكل سيِّئ في وضحِ النهار، جنود يلتصقون مع أكياسهم، متسولون يجوبون بما يشبه تدبير شؤون المنزل. امرأتان تطيران في السباق إلى القطار، واحدة تئن، تضغط أسنانها، ولهذا هي أسرع. دخلت إلى القاعة، غمزت إلى المرافق في القطارات المترعرع بين الأبواب. أخذتُ بطاقة السفر، وخرجت عائداً إلى البرد وتوقفت في الحشد. استدرت.

كنا نوشك أن نتقارع بجمجمتينا. تنفس الشاب كان منهاراً. تنفّسي تحطم.

- ماذا تريد؟ سألت، متجهّماً.

هو سأل بضجر:

- إلى بوشكين؟

- أحنيت رأسي موافقاً.

---

(١) [محطتا قطار الأنفاق - المترجم].

أنزل يده في جيب من الزغب، مخرجاً خطفاً شيئاً أسود.

أنا تمسّكتُ بالوجه، هو قفز إلى الوراء، حامياً آلة التصوير.

- سافر! لماذا وقفت؟ صرخ. - سوف تتأخر! - صفق على جيبه، وتراجع أيضاً.

- من أرسلك؟ - صرختُ.

- إنها الانتخابات - فاتحاً يديه - لا تعبث!

وقفتُ في مقصورة المدخل الفارغة، الحافلة ذهبت إلى بوشكين.

موسكو انقسمت. تجمع شجر عارٍ، أبنية الطوابق الخمسة والمزارع الصغيرة، جدار رمادي طويل من مراهقين صغار في محادثات ومناقشات متنوعة الألوان. الحافلة الكهربائية رنّت وأزّت.

خرجت من الحافلة إلى المحطة. على درجة الرصيف امرأة كانت تبيع الخيار المخلل، والطماطم في علب منفصلة منفوخة. علبتان موضوعتان على صندوق خشبي عند قدميها.

- كيف يمكن الذهاب إلى المستشفى؟

- إلى الأمام.

- هل سأمشي طويلاً؟ هذا يتعلق بكيفية ذهابك، عشرون دقيقة إذا مشيت بسرعة.

نظرت إلى مخللاتها نظرة متفحصة، كأني أسمع إلى موسيقا خافتة، وهي التقطت النظرة.

- خذ، أيها العزيز، الطقس سيِّئ، والمخلل يسخّن.

- أول مرة أسمع بهذا، لقد انذهلت.

- تسدّ رطوبة ما وتسخن كل الجسم العضوي.

هززت بكتفيّ متفحصاً باشتباه أكبر هذه الأكياس الشفافة مع التحف الخضراء للشتاء الروسي. ومشيت في طريقي.

مخزن سلع. مكتب بريد. بيوت سكن. شجيرات سوداء. أسراب متجولة. سيارات بالية. لم يكن يتساقط الثلج تماماً حتى الآن. ولكن بدأ يرشح بشكل غير مرئي. هكذا يحدث عشية الثلج، والأمر لا يتعلق فقط بالصقيع والجليد، ولكن الأمر ببصيص الضوء الأبيض الذي لا يكاد يُرى، والذي في كل مكان. هذا ليس بخاراً، بل هو طيف الثلج، بادرته الأولى، وتَوقُّعُ شابورة الضباب الخفيفة. دوائر كثبان الثلج صارت محددة على الأرض بالهواء الأغبر بما يشبه الطباشير الأبيض. مشيت ومشيت ضارباً الأرض بقدميَّ إلى أن رأيت من جهة اليمين بوابة مع غطاء مصباح كهربائي مربوط. على الغطاء كانت نحلة مرسومة بالأبيض شبيهة بالنمر في وضعية القفز.

ضربت رقم زوجتي.

أجابت مع الصفير في الرنة العاشرة.

صمت.

- آنيا، قلتُ.

- هيا! تكلم، عندنا إجراء، هيا بسرعة.

- وصلت بالسيارة، كيف يمكنني أن أجدكما؟

- البناء رقم ستة، وأغلقتْ.

إجراء، ببساطة هي حمقاء... بقي فقط أن أجد البناء. ناديت الممرضة العابرة ركضاً في الطريق الصغير مع علامة بيضاء لثلج سيسقط سريعاً.

- إنه هناك وعلى الجهة اليسرى، أجابت بسرعة مقرورة. ورنّة صوتها، وإيماءاتها، توقعتْ سقوط الثلج.

بناية مع نوافذ معتمة، على الزجاج - بيّضَتهُ تمريغات. ضغطتُ زر الجرس، انفتح الباب المتوتّر، وهكذا تاركاً سترتي في الأسفل مرتدياً حذاء - جرموقاً بلونٍ سماويٍ، دخلت في غرفة استقبال الطوارئ في الطابق الثاني. طاولة مكتب صغيرة، لمناوِبةٍ برأس بَصَليّ، مصباح كهربائي، أيقونة ورقية لنيكولاي. جريدة. كلمات متقاطعة مقلوبة، إذ نصف المربعات قد ازرقّت بأوتار التخمينات. على الجدران هناك نحلة عدوانية، هي مثل النمر، وأيضاً قنيفذ، خلد، ذكر زرافة، هم منتفخون وحزينون. الغرفة التي أقصدها إلى اليمين. أدفع الباب.

- بني!

داخلاً، انظر فورا إليه بكامل العينين. سعادتي فانكا! أُصيْلع، رأسه حليق بآلة الحلاقة. عيناه السوداوان تلتمعان. كشرت فمه ابتسامة بهيجة. بمكر ومداعبة، وحماس جريء نتقاطع بعيوننا. كم اشتقت إليك، وأنت إليّ؟ أنا وهو متآمران.

كم بديع هذا التآمر الدموي بين الأب والابن، حين يستمر بعمق وحرارة - بتنفس عام، وبتسامح كامل متبادل، أو حتى بتنازل كريم من الأب: بنيّ لتكن من تشاء، سوف أفرح لأجلك، أريد فقط أن أهديك، وسعادتك - هي الشيء الوحيد الذي أنتظره منك!...

خلال أسبوع أخرجوه من المستشفى. وأيضاً خلال أسبوع ذهبت إلى مصلحة التنظيفات. ليس لأني لا يمكن أن أؤمّن دخلا بطريقة أخرى؛ على الأرجح كان ذلك إشارة.

فعلاً هم دمروني. لا يأخذونني كصحافي في أي مكان. أصدقاء السياسة في الأمس يتجنبونني الآن كما لو أني مصاب بالجذام. أصدقاء الأدب في الأمس يشمتونني الآن، فقط أهلي حنونون.

من أجل الجرأة لقد امتصصت نصف زجاجة من النبيذ المقوّى الحلو، مصدراً صريفاً بخطواتي على قشرة الثلج المتجمدة الزجاجية، توجهت إلى (ج. إي. ك) مكتب الاستثمار السكني.

هناك للدهشة، عَمّةٌ [يقصد امرأة] فهمتني من نصف كلمة. هي علكت شيئاً ما مرتاحةً، حين نقلت المعطيات، أخذت قائمة بالموجودات، محددة لي قسم الأعمال: شارع كييف، البيت ٢٠ من جهة الفناء.

- فترة الاختبار هي أسبوع، رفعت عينيها المُحبتين للصداقة، وفي النهاية بلعت كتلة توقعاتها.

سابقاً كان الصرير الآتي من العتمة وراء النافذة - كما بدا لي - الموسيقا الأكثر إخلاصاً لنظام العبودية. هذا الصرير يصوّت ليس بشكل معذّب، حتى إنه ممتع. أنت تنقلب على جنبك، تلاطف بخدك الوسادة، ولكن في الظلمات المنبلجة للمشاعية البدائية، أحد ما غريب أخذ يُنظّف بالخدشِ القروشَ من التربة الصقيعية. هذا الصوت، مع قلق ما، بدأ يهدهد، يرجِع عائداً في أعماق النسيان الحلو.

وها أنا ذا الآن أصبحت - غريباً بالنسبة لهم. أصدر الصرير في السديم الصباحي. سر العمل بسيط ويفضي إلى تكرار رتيب لحركات بسيطة. المهم - أن يُرمي الجليد إلى الأعلى مع الضغط، كي يعلق بصورة أعمق وأكبر.

خلال أسبوع بَنيْتُ مئات من جبال الجليد المتشابهة، محرراً الطريق الصغير على طول البيت. وتعلمت أن أميّز الأصدقاء من الأعداء. تارة كانت السماء صافية. وتارة كان الطقس دون هواء.

كان بايمورات محبّاً للصداقة أبيض الأسنان، محارباً للثلج عند البيت من جهة مداخل البيوت. وهو كثيراً ما عرّى أسنانه بابتسامة، لأنني ضيفته سجائر.

السماء كانت العدو الرئيس المرسل للكَدرِ الثلجي. أسبوع كدحت مع الثلج، اليومان الأولان العمة من مكتب الاستثمار السكني اغتنمت الفرصة للنقد، بايمورت شتمَ: «أنتِ مؤذيةٌ»، ولكن مع الضحك. في ثلاثة الأيام المتبقية كسِبتُ اعترافهم.

عاملاً في الشارع المديني، تكفُّ بالتدريج عن التفكير بالمحيطين بك، مثل الممثل، من المحتمل، يتجرد عن المشاهدين. لم يقلقني المارّة، لم أحترز من الكلاب (مسلح بالرفش). أثارت اهتمامي النتيجة فقط - تدمير الردميات الثلجية.

أحد الأيام، في اليوم الثاني، كنت قريباً من نهاية التنظيف، بقيت بعد عشرين دقيقة للكشط، تغطيت بالعرق بشكل مرعب، من البداية فككت أزرار معطف جلد الحمل، بعد ذلك رميته تماماً فوق الجبال الثلجية. اخترق الشتاء أحياناً بموجة هواء زمهريري عبر حجاب الطقس الحار. ولكن مع

كل ضربة جديدة وتلويحة الشمس المحمرّة تمّ الانفصال أكثر فأكثر مع الصيف. اليدان ارتجفتا، وخزت تقرحاتهما. تطلب الأمر أخذَ نَفَس. كان ذلك انتصار الوحدة. وقعت على ركبتيّ ممسكاً المقبض الخشبي الورقة المعدنية للرفش لمعت أمام وجهي.

تنفّست فوق خطوط المعدن المغطاة بالثلج، رائياً انعكاسي المبهم: بقعة وجه، شعرٌ أشعث. وتراءى لي أني طُبعت على الورقة الفولاذية. وجهي سوف يبقى دائماً على هذا الرفش. صورة الوحدة. وجه ورفش. سوف أرمي الثلج بوجهي.

سوف أرحل عن عمال النظافة، ولكن عامل النظافة التالي سوف يغرز الرفش مع وجهي في الثلج.

أسبوع أعمال عند البيت كفتني. اشتريت بالمال الذي استلمته أداة للتمارين الرياضية، كيلا تنام العضلات المستثارة، اشتريت للطفل بسكويت أطفال «مع الثقوب»، كما يحب هو.

وحصلت على الثقة. يمكن أن أصبح عامل نظافة. حينها قد انفصلنا أنا وآنيا.

إلى الشيشان، إلى الشيشان

في ذلك الربيع، على كل حال، تسنى لي أن أُستأجرَ في إحدى المجلات اللامعة، - استلام مهمة. وعدوا أن يدفعوا بشكل جيد، إذا نقلت الصور والتحقيقات الصحفية من الشيشان، إلى حيث الموظفون داخل الملاك لم يرغبوا أن يسافروا، ولكن يجب عليّ أن أعبر سفراً كل الشيشان. من يستقبلني وأين أنزل للمبيت - هذه كانت مشكلاتي.

طرت إلى الشيشان.

كانت المسألة ليست في المال فقط، رغم أني احتجت إلى المال كثيراً، كان الأمر يتعلق بالتشرد. أين العيش؟ مع آنا لم يتح. مع الأهل من الصعب أيضاً. ولكن الأمر الرئيس - «القدريّة». «ربما يكون، آني استنفدت عيشي، أليس كذلك؟ - تفكرت بشكل خفيف ومرّ. - والآن من الضروري الإيمان بالقدر: الاستشهاد تحت مدفع رشاش وراء حائط القفقاس...». في ذاك الربيع سلمت حياتي لأمريّة قوى غيبية.

كان لديّ مريد هو علي خان، من مواليد فيدينا، من سكان موسكو، الذي انضم إليّ في [حركة] «أورا». أسود الحاجبين، فتحتا الأنف منفوختان باقتحامية. رأيت في قطار الأنفاق ملصقاً ساطعاً وجئتُ، وتسمّرتُ. علي خان لم يكن يشرب، لم يدخن، فاحت منه رائحة حليب ذئبة طازج قابض وحلو لم أشم سابقاً إطلاقاً الذئاب. ولكن لسبب ما بدا لي دائماً: من علي خان بأنه يحمل بذئب، لتوه انقلع من الذئبة. بقينا على الاتصال، ونادراً ما تبادلنا الاتصال بالهاتف.

اتصلت به هاتفياً وتعرفت الشيشان. قال في غروزني يعيش العم.

- هل هو عم حقيقي؟

- لا ليس عم بشكل كامل... هو عمي البعيد... هو يستقبل إذا طلبت منه ذلك...

وهكذا طرت إلى المجهول. «لدى الجميع أعمام بعيدون. هدأتُ، هذا هو البلباس، كان عماً لي».

حطّت الطائرة في الظهيرة وسط حقلٍ رطب: شمخت الجبال، حلّقت طيور سوداء كبيرة. ظهر أن «للعم البعيد» عمر علي خان خمسة وستون عاماً. استقبلني في المطار الأنغوشي «ماراس»، وسافرنا إلى الشيشان بالقرب من حور هرمي، بمحاذاة (ك. ب. ب.) نقطة تفتيش الدخول، قرب الجنود الذين مشوا متثاقلين على حافة الطريق، باحثين عن الألغام. هناك انطباع بأن عمرَ من الدقيقة الأولى، قرر أن ينشئ انطباعاً لديّ بأنه مثقف.

- أنت صفحي؟ أما أنا فقريب إلى هذا؛ مدرسُ لغةٍ روسية وأدب.

- صوت حلقيّ، وجه جاف، الشاربان فرشاة صغيرة علاها الشيب. - علّمتُ طوال حياتي أعتبر الآن أني في الاستجمام.

جلسنا في غرفة المائدة في الطابق الثاني للبيت القرميدي. هذا البيت لم يكن مهدّماً أبداً، عمر أكمل بناءه مجدداً. الطابق الثاني كان مجهزاً للسكن. في الطابق الأول كانت ما تزال عملية البناء مستمرة: جدران عارية، ألواح خشبية، حطام بيتونيّ على الأرض.

- سوف تُعجبُ بشيشاننا، قالتْ من عند الموقد امرأة اسمها زينب، وهي شبيهة بالدجاجة السوداء. كانت أصغر من الزوج بعشرة أعوام .

- تتنزه، هواء نقي...

- الشيشان: هذا ليس صحيحاً، قاطع عمر - لا أحب هذه الكلمة: الشيشان ليست الكلمة المناسبة، لا تنطق بالعزّة. الشيشان - موإينا! وحرف «تشي» ليس جيداً. هل تعرفُ كثيراً من الكلمات الخيرة بحرف «تشي»؟

فكّرتُ.

- تشيرنوبل، صاحت زينب.

أصدر الزوج صوتاً حادّاً بلسانه:

- تجمّدتْ!.

أصدرت زينب صوتاً بالقطّاعة الصغيرة، وهي تقلّب قرص العجين في المقلاة المُفِحّة بصوت القلي.

- «شوما» الطاعون - متفكراً اختار الكلمات أستاذ آداب اللغة عمر - تشكاتيلا.

ضحكتُ:

- «تشيست» الشرف، «تشوستفا» الشعور، «تشرشنيا» الكرز!

- «تشرفيفايا تشرشنيا» كرز مدوّد، عضّ عمر على شفتيه، انطلق في عينيه تهيّج مراهقيّ: «تشوش» هراء، «تشورت» شيطان!

- «تشرن» دودة، وافقت. - و أيّة كلمة تعجبكم؟

- اتخذ لنفسه هيئة جادّة.

- إتشكريا[1]، - لفظ بشكل خفيف. ولكن الأفضل - نوختش. نحن النوختشيين حقيقة أبناء نويا. بعد ذلك اخترقنا الإنكليز. الشيشانيون والإنكليز من جنس واحد، أما كنتَ تعرف ذلك؟

زفرتْ زينب بقوة، ومن المحتمل، أن هذا ردة فعل منها على عدم تنوّري الثقافي، واقترحتْ:

- يمكنك يا سيريوجا، إن رغبتَ، أن تمشي بالطريقة الغروزينية.

---

(١) [تسمية تاريخية للشيشان]. [المترجم].

حنيت رأسي موافقاً.

- أُنزلكَ في المركز، قال عمر. امشِ، تسكع بقدر ما يلائم الروح، وفي العودة ترجع بنفسك، وبعد ذلك، نذهب بالسيارة، هل أنت أموافق؟

- أنت في الحقيقة لست شيشانياً. نظرت زينب بشكل ثاقب باحثة عن شيء ما في وجهي. - لا تخف، من سيصيبك بأذى؟

مرة أخرى حنيت رأسي موافقاً، مستسلماً للقدر.

خرجنا أنا وعمر من الفناء، جلسنا في سيارته الـ «لادا» الرمادية، ونقلني إلى المدينة. نزلتُ.

- خذ - مدّ مزقة ورق - تقول هذا العنوان، يوصلونك. خمسون روبلاً، لا تدفع أكثر.

بقيت وحيداً وسط غروزنا، مع شعور أنهم رموني، وإلى طمأنينة غير مفهومة لي أنا نفسي. آلة التصوير عُلّقت على رقبتي، مغطّى بتشابك شعاع الشمس.

كان السبت يوم عطلة. مشيت بالشارع الرئيسي في الدفق الضّاج للحشد. مختاراً من حين لآخر المكان الذي فيه قليل من الناس. بدأت أشقّشق [ألتقط الصور]. حملني الحشد، وكنت ناظراً متحسساً، وازناً. سبحتِ المدينة بالقرب في فوضاها العارمة العظيمة. من جديد واجهات منفصلة، نافورة متعددة الطبقات مصدرة للشرر، بلاط جديد لرصيف الطريق، شجيرات شوح، هيكل إسمنتي جبار لجامع قيد البناء. وبالقرب - بنايات متعددة الطوابق مدمرة بالقنابل، حشائش طفيلية طويلة، بوابة مع كتابة بالأبيض مع الصدأ: «احذر! الألغام!»،

مبنى إداريّ مشوّه وأعمى، تتعشق فوقه حروف زجاجية قليلة من الماضي، بحيث يمكن تخمين الشعار: «الفن ينتمي إلى الشعب»، ولكن بقي من الكلمة الأولى أحرف «المسيح»، كما لو أن أحداً ما بعد حداثيّ أسقط بشكل مقصود الأحرف غير الضرورية. اجتليتُ الأمر وصنعتُ وراء الكادر كادراً: لوحات حماسية قَنّعتِ الثقوبَ في الجدران. «رمضان، لقد كنت رئيساً لمدة عام واحد فقط - المدينة نهضت من الرماد، ابتهج شعبنا!»، «ابتسامات طفولية هي جائزة للبطل» وصفحات بالأبيض - والأسود على الأعمدة: «تمَّ العثور على ضائع».

ابتسم الناس، بدا هذا غريباً، فكّرتُ، يطعنون البطن بالسكين أم يقتلون رمياً بالرصاص. ولكن في كل لقاء وضعت نفسي، بسرور، تحت العدسة، فالمارّون أنفسهم سألوا: «أنت من أين؟» - سمعت وقلت: من موسكو، ازدادوا حرارة أيضاً مع فضول كبير. نساء متاجرات في السوق، شباب طوال الشعر، مقعد دون رجل على الكرسي المتحرك، فتيات بالأوشحة الصغيرة مع شرائط مِغناجة في الشعر، وبالطبع فتيان صغار متسخون. عشرات، مئات الوجوه متجهة إليك، وفي كل منهم جهوزية ليصبح صورة جديدة، كما لو أنهم تآمروا. وحتى أيضاً جماعة من ذوي الذقون الذين يرتدون الأسود، وقفوا رفعوا إلى أعلى بنادق آلية. لم يكن من الضروري الطلب منهم: هم وحدهم فتحوا أفواههم. أظهروا تلك الأسنان المختلفة: تيجان ذهبية، أنياب قوية، شظايا متعفّنة.

- أنت ترتدي الأسود، سألتُ.

- إذا كنت ترتدي الأسود فهذا يعني أنك أنت قادريّ [من جماعة القادريين]، قال بحماس أكثرهم سمنة وصاحب الذقن الأكثر بريقاً.

بعد ذلك دخلتُ إلى القهوة، جلست في فجوة مستقلة في الجدار على طاولة خشبية خَشِنَةٍ، تواريت خلف ستارةٍ باهتة زرقاء قديمة، شربت طاسة كبيرة من الشاي الكالميكي(١)، مع الحليب و الملح. بعد ذلك تمشيت من جديد.

- ربما يمكن أن نذهب إلى مكان ما؟ سألتُ الفتاة التي اتخذت وضعية إعجاب، كأنه مع تشوّق.

هي سَئِمَتْ بشكل حزين:

- ممنوع بالنسبة إليَّ.

لقد صورتها بالكاميرا مرات كثيرة.

بعد ذلك كان لي حاجة أن أذهب إلى المرحاض. عرجت إلى أول بناية وقعتْ لي، مشيت في الرواق، في الأمام انبعثت أصوات ضربٍ غضة، وصراخ المسؤول. كانت هذه حلبة، مقسومة إلى أجزاء، عشرات الشبان العراة حتى الحزام ضربوا بعضهم البعض بكفوف ملاكمة. هم تعرّقوا ولهثوا، صوبتُ وبدأت أرمي [أصوّر]: البعض ألقى نظرة، زمجروا بشكل نشط وتابعوا القتال. أحد الملاكمين قفز متراجعاً إلى الحبال التي تسوّر الحلبة، استدار تحت فلاش التصوير، ورفع عالياً قبضة مطاطية. مشيت متابعاً عبر البناية، ومن جديد وجدت نفسي على الشارع.

- أين المرحاض هنا؟

- نعم هو ذا، على ساحة الحمقى الثلاثة - قال رجل عجوز يعتمر غطاء رأس من الفرو.

---

(١) [جمهورية في الاتحاد السوفياتي سابقاً]. [المترجم].

- ثلاثة حمقى؟

- هناك تمثال، ما زال سوفييتياً، ثلاثة مقاتلين، هل أنت ستصورني؟ صورني - حينذاك سأتابع الحديث. - وهو يتابع خلال فلاشات التصوير: - على هذه الساحة رموا بالرصاص ثلاثة، بعد الحرب الأولى في زمن «أسلان».

ثلاثة لصوص شياطين، سحبوهم ورموهم بالرصاص، في حين كانت كل المدينة تنظر. - من جديد آلة التصوير تتدلى لديَّ على الصدر... - هو ذا المرحاض، على اليمين من التمثال ينتصب العنبر، هل ترى؟ الزجاجات في المحيط...

- لماذا الزجاجات؟

- كيف لماذا؟ نحن في الواقع مسلمون. عندكم التنظيف بالورق، وعندنا بالماء. أنت من أين جئت؟

- من موسكو.

- عندي هناك ولد. والآخر قتله ذووكم. سرقوه وعذبوه، ولم يسلمونا الجثة. صور للمرة الأخيرة!

وفي ملاقاة وميض فلاش التصوير، ابتسم بشكل عريض: وجه قويّ، نظرة حادّة، ذقن بيضاء، فرو، مشابهة لجبل من طبخة الحبوب.

في الغسق اصطدمتُ سيارة ذاهبة بالطريق عينه، وكما توقع عمر، إجماليّه قطعة من فئة الخمسين، الشاب في البدلة الرياضية أوصلني إلى الضاحية - إلى البيت القرميدي.

هناك حتى هزيع الليل تناولت العشاء مع عمر وزينب. لحم، أقراص عجين، كونياك. أشار صاحب البيت إلى الخزانة مع الجذور الصغيرة الحائلة اللون:

- كتبي! يسنن، ليرمونتوف، كوبرين. ابني قرأها. قتلوا الابن. عند ما بدأت الحرب الأولى هربنا إلى أنغوشيتيا، كان الأطفال ما زالوا تلاميذَ: ابن وابنة؛ أديم وآما. عشنا في عربة قطار صغيرة، جمدنا من البرد، جعنا، أما في بيتنا فقد وقعت قنبلة. رجعنا. بدأنا إعادة الإعمار من جديد. وهنا شيشان ثانية. في شباط عام الألفين، اقتحموا ليلاً البيت - كانوا بالأقنعة مع البنادق الآلية.

خطفوا آديم، أنا أصرخ: «من أنتم؟». ضربة واحدة بكعب البندقية، ضربة أخرى، وقعت. يضربون؛ كسروا الأنف والأضلاع. الزوجة، دفعوها بقوة. الابن أخذوه. كان عمره عشرين عاماً. كان شاباً عادياً، قرأ كتباً. أي محارب هو؟ سجنوه في حفرة، هنا حيث قاعدة طيران «خان كال». شاب واحد نجا وحدّثَ. يقول: أيام عديدة قعدوا بدون طعام، بدون ماء، وسمعوا فقط الدوي - هي الطائرات تقلع.

- أنا أصلي من أجل شيء واحد، - قالت زينب زافرةً - لو أنهم لم يعذبوه. ليتهم قتلوه، وانتهى.

- في الحقيقة عذبوا الجميع! قاطعها زوجها - أنت ماذا تعتقدين!

صَمتُّ.

في النهاية سألتُ بحذر:

- والابنة؟

- آما تعمل في الشرطة، قال عمر.

- لدينا مصيبة معها، قالت المرأة.

- كفّي... - لوح بيده عمر.

- نعم ولماذا نخبئ؟ تزوجت بشكل غير موفق.. ولدت طفلاً، وتركها زوجها. وعندنا هذا شائن! هو سافل. قريبته تقول: «ابنتكم مذنبة في كل شيء!». هم لا يريدون رؤية الطفل. لقد كانت حقاً فتاة جيدة دائماً. ومدبرة بيت، مليئة، الشعر كثيف، العينان - نجمتان. هي تعيش في «أرغون» مع الطفل، معه أختي، كبيرة في السن، ستقضي يوماً، وأموشكا في الشرطة حيث تعمل. الصبي رجل مقدام ، يا له من ذكي، مرح. هو لا يعرف بلواه حتى الآن. كيف يمكن ذلك - تعيش في الشيشان، والأب الأصلي لا يعترف [بأبنائه]!

- مجيد، مجيد هذا، الصغير، أشعّ المحبّ عمر.

- الآن... - ذهبت زينب ورجعتْ بسرعة مع دفتر مدرسي مُصفّر - اقرأ!

إنها آما، قد كتبت شعراً، حين كانت ما تزال تتعلم في المدرسة. كان عمرها. ثلاثة عشر عاماً. «للأخ». اقرأ! سأعرفكما الواحد على الآخر لاحقاً!

- سنقرأ بصوت عالٍ؟ سأل عمر بشكل حاسم.

أخذتُ الدفتر، وقرأتُ بصوت عالٍ:

أيها الأخ، من المذنب، بأنك لا توجد.

محا الخنازير الأوغاد أثرَكَ،

وأين الآن يمكن إيجادك؟؟

أنا أبكي، لماذا لنا كل هذه الخسارة!!

لماذا أتت الحرب إلى البيت،

لماذا سرقك الشتاء؟

روسيا، سوف ننتقم ونجعل منك دخاناً!!!

- منكِ؟ - كررتُ السؤال - من روسيا؟

- كانت صغيرة. الآن لا تفكر هكذا - قالت زينب.

- رعبٌ، قال عمر - كم من الناس قتلوا. جاؤوا وقتلوا، من أجل ماذا؟

- اسمعوا، قلتُ - وماذا قبل الحرب؟ حقاً اعذروني، حين كل، من لم يكونوا شيشانيين، قتلوهم ورموهم...

- هذا عمل قطاع طرق - أجابت زينب - وأنا أوقفوني في الشارع وسرقوني. كان الزمن هكذا: سلبٌ كثير.

سرقوا. والروسية أما كانوا قتلوها، أليس كذلك؟ - سألتُ.

قلبَ عمر الكأس الصغير في فمه حتى الثمالة:

- الروس خاصتكم مشوا عندنا كأصحاب الشأن - بحركة واسعة مسح فمه وشاربيه - أنا كنت في القرية معلماً. زيناكوفا الروسية كانت مديرة المدرسة. نكدّت عيشي من طلوع الضوء، ترصّدتني. كم عانينا، أتتذكرين؟ توجه إلى زوجته.

- أذكر، أذكر! رسالةً كتبنا إلى الحزب. لا نتيجة أبداً. في مكان جلس الروس رؤساء.

- ماذا صار معها بعد ذلك؟ سألت.

- عاش الروس في «غروزني» في المركز - تابعَ هو كما لو أنه غير سامع - في أفضل البيوت، ذات الطوابق الكثيرة. عندما بدأت روسيا الحرب - ذووكم الأول هم الذين ماتوا. القنابل تسقط، الشيشانيون من يذهبون من المدينة إلى الوطن، أما الروس هكذا بقوا في المدينة، في المركز. أنتم الروس، كذلك طرقتم ذويكم بعنف.

- لماذا التحدث، في كل الأحوال لا يسمعوننا... - نهضت زينب. - لقد حان التوضيب؟

- نحن أيضاً نهضنا.

في غرفة غير كبيرة أطفأت الضوء واستلقيت. «أنت في الشيشان، أنت في الشيشان!» نبضت في الرأس وأعاقت الغفو.

أصدر الباب صريراً. جلست على السرير. أشعلت الضوء.

عمر تأرجح، في يده مسدس.

- ألست نائماً.

كان المسدس موجهاً إليَّ في الوجه.

- لست نائماً، قلت ذلك متجهّماً.

- لا تخف هذا للابنة. هي حقيقة شرطية. سأعرّف بعضكما بعضاً! هيا، نمّ، نمّ...

- هكذا الأمر - أعلن بعد الإفطار، أنا سأسلمك لأحد الأشخاص ليوم واحد. اليوم سوف تأتي إلينا قريبة لنا، البيت سيمتلئ. أنت اقضِ معه يوماً، نم عنده، وترجع. اسمه ألحاظ. هو شرطي، ولكن إنسان جيد.

جلسنا في السيارة، في مركز غروزنة، قدمني عمر إلى ألحاظ وسافر.

كان ألحاظ في بدلة شُرَطية وذكّرَ بالسعدان، ضامر، جفنان مغيظان، تجاعيد فرحة على الوجه. هو عرّفني على موظف آخر باسم ليتش - ضخم وسمين، شفتان ناتئان ومنخران.

- جاري ونعمل معاً.

- سقنا في المدينة في سيارة «جيغولية» ملطّخة. في المقعد الخلفي ليتش مع بندقية أتوماتيكية. «كلاشينكوف» ألحاظ عندي بين رجليَّ.

ضغط ألحاظ الفرامل، أنزل زجاج النافذة، وصرخ على واحدة مارّةٍ:

- أنتِ لماذا، لماذا أنتِ، آاا؟

بشكل مفاجئ. قفزت متنحّية جانباً. أخذ يشتم باللغة الشيشانية. البنت وبشكل مرتبك وهستيري أجابت بشيء ما.

- رماها بالكلمة الأخيرة، واضح أنها مسيئة، وضحك بصريف، هدد بإصبعه، وسقنا متابعين.

- ماذا حدث؟ سألتُ.

- ألا ترى؟ ارتدت ثوباً، كما العاهرة. يجب رمي مثل أولاء بالرصاص! إذا وصلت الإشارة، بأن المرأة تعيش بشكل غير صحيح، نحن ننطلق إلى مثل هذه.

- و؟

- نوضّحُ كيف يجب العيش.

- بعد ذلك مررت معه بالسيارة إلى قسمهم في الشرطة، المخرّق بالرصاص الذي يذكر بالدعم العسكري. تصفح دفتراً سميكاً مع القضايا الجنائية الأخيرة: بما في ذلك الدعاوى عن فقدان المواليد الجدد.

بعد ذلك ذهبنا بالسيارة إلى ملعب كرة القدم. كان ذلك يوماً خاصاً: مباراة كرة قدم «تِريك» - (تسي. إس. كَ. أ.)[1].

- من اللافت، كيف يتصرّف معجبوناً هنا؟ فكّرت بصوت عالٍ.

- اخفضِ الصوتَ - قال الموظف السمين: سافروا بالباص. البارحة كسّروا لهم كل الزجاج.

وصلنا إلى الملعب قبل بدء المباراة بساعة، قد كان تجمع الناس. يبدو أن كل القسم الرجولي من المدينة قد تجمع راكضاً إلى هنا، ركضاً إلى الملعب تحرك الرجال، الشباب، والأطفال من جميع الجهات. بمجموعات. بقهقهة. هم اقتحموا عبر إطار الحواجز المعدنية. ولكن فتشوا كل واحد مطولاً. في كل مكان اسوَدّوا ببدلاتهم وقعقع بمزاليج الأبواب حراس قاديروف. في النهاية، في لمعان المصباح، وصل موكب رمضان. هذا هو الملعب الذي فجّروا فيه أباه.

كل المدرج (عشرة آلاف مقعد) كان ممتلئاً. جلسنا تحت المنصة المركزية. فوقنا اعتلى رمضان في سترة جلدية بنية. هو طوال الوقت كان يمسك برأسه. بجانبه في بدلة زرقاء غامقة تبدّل بنصيره الموثوق، المبتسم بشكل ضارٍ ديليمخانوف.

---

(١) [النادي الرياضي المركزي للجيش. المترجم].

في تمريرةٍ للكرة كانت ردة فعل الحشد كما لو أن قضية الشرف الشيشاني قد حُلّت. وثب الناس، صرخوا ملء حناجرهم.

- أوو - أوو - أوو! عوى رجل عجوز واضعاً راحتيه على البوق.

رمى «تيريك» الكرة إلى مرمى الخصم. هدف! قفز المدرج طائراً، كما لو في انفجار. رمضان وثب ولوّح بيديه. غرق العالم في زعيق المواليد الجدد.

«انسحاب الجيوش!» - صرخ أحد ما. - «الله أكبر» - ثم رعدت في جواب [مشابه].

الساعة: ١:٠ مدرج مشجعي نادي الجيش الرياضي المركزي كان هادئاً وبدون حراك. هم غير متعصبين، بل تماثيل عرض أزياء. سار الشيشانيون في الشارع محتشدين. انطلقوا في قفز، غنّوا، تعانقوا، صفقوا بأكفهم، على الوجوه رضا فيزيولوجي ما، كما لو أن كل واحد منهم قد ولّدَ هذه الكرة.

صبي صغير، زاعقاً بشكل يائس، قفز وهو في الجري السريع على ظهري، - وما العمل - ركضتُ معه نصف الشارع. بالقرب تحرك بسرعة موظفان ضاحكان - ألحاظ وليتش.

بعد ذلك تنزهنا بالسيارة في «باموت» - لنرى المكان حيث في وقت ما غلت الحياة.

القرية، بدورها مأخوذة في دائرة محيطة بها وممسوحة من وجه الأرض، اخضرّت بأعشاب برية حرة لربيع مبكر. الحشائش تمايلت وسط كسرات الحجارة. في الجهة المقابلة تناثرت مقبرة واسعة. بدلاً من الشاهدة - كانت أعلام حديدية صغيرة. هي أصدرت صليلاً خفيفاً بهدوء وبصورة موسيقية. العدد الأكبر من القبور الخالية من الشواهد له أعلام حديدية. هكذا يحفظون الشهداء.

تحركنا بالسيارة متابعين وتحت غوديرموس خرجنا إلى الحقلة. دائماً كانت هناك حقلة، ليست هناك أية آثار للمنازل. قائماً بخطوة جانباً، اكتشفت حجراً رمادياً صغيراً بأسماء غامقة للجنود الروس الذين اضطجعوا هنا. شتاء، في زمن الشيشان الثانية، في السهول الثلجية، «مجدٌ خالد»، - كان مكتوباً. أضاءت الشمس، فاحت رائحة الأرض الرطبة، هب نسم هواء لطيف دافئ، وأظلمت الأسماء النصف ممحية. «نيكولا ينكا»، «ماروزوف»، «يرماكوف» - رأيت وتذكّرتُ ثلاث عائلات وحفظتُ في الذاكرة.

شربت في المساء مع رجلي الشرطة، لديهم بيت في غروزنة. هما عاشا في تربيعة واحدة لها سلم في بناية من خمسة طوابق، مشوهة ومحترقة، أصابتها عدة قذائف. لم تكن فيها تدفئة. بدلاً من هذا أقام ألحاظ بناءً زجاجياً مبتكراً، مربوطاً إلى الموقد: في داخله ازرقّت النار. هذا التشييد دفّأَ الشقة قليلاً. كان لدى ألحاظ أيضاً بيتٌ في القرية، حيث عاشت الزوجة وثلاثة أبناء، وهو حكى كيف في أحد الأيام أتى أناسٌ إلى غروزنة بالأقنعة وأخذوا أخاه بعيداً. فهمتُ أن هذه قصة نمطية هنا. ليتشّ عاش مع الزوجة وثلاثة أبناء في هذا البيت المتهالك.

- عندما بدأت الحرب الأولى جميعنا قاتلنا، قال ألحاظ وقد بلغ السُّكرَ: زحفت الدبابات في الشوارع، ونحن حرقناها. من فعلاً يحارب هكذا. - الدبابات في الشوارع الضيقة... نحن أوصل بعضنا لبعضٍ بالراديو المحمول: انتظر أيها الأخ، لا تحرق هذه الدبابة، هي لي. باختصار، ضحكنا!

- اصطادوا علينا، قلتُ بحسرة.

- لماذا عليكم؟

- لأنه على الروس.

- لم يكن هناك الروس فقط - حوّلَ ليتش الحديث - كان الشعب التشوفاشي[1]، الوحدات الخاصّة الأوسيتية (أو. إم. أو. ن) دخلت في القرية. عذبوا عمي.

- عمك؟

- عمٌ بعيد...

حين كنا نشرب الفودكا في المطبخ، قرب ليتش الضخم ظهر علينا ابنه ذو العامين، وهو صبي صغير أشقر ضارب للحمرة. خطف ملعقة الشاي الصغيرة عن الطاولة، وصار يقاقي أصواتاً مضحكة.

- ضعها بسرعة، - قال السمين بصوت خفيف.

رفع الطفل عينيه، اصطدم مع نظرة أبيه، ومذعوراً اعترف بذنبه.

وجهت آلة التصوير وأطلقت الفلاش. - تعال، سأُريك كيف طلعتَ بالصورة!

- تعال إلى هنا لتشرب فودكا! تدخّل ليتش.

اقترب الطفل، أحاطه الأب ممسكاً بيده الهائلة. ضمَّ الرأس المنفوش إلى ركبته الواسعة، وصار يغرز الزجاجة فمه الصغير.

انعوج الطفل، وأصدر إيقاعاً باكياً ولفّ رأسه.

- ماذا تفعل! قلتُ.

ليتش مرَغَ فيَّ نظرة ازدرائية:

---

(١) [جمهورية، تتمتع باستقلال ذاتي في الاتحاد السوفياتي السابق - المترجم].

- دعه يتعوّد!

- صحيح، يجب أن يصبح رجلاً! أشرق ألحاظ.

في الصباح التالي باكراً أرجعني إلى عمر، أوصلني بالسيارة إلى كوخ قرميدي ممتاز.

لقد سافرت القريبة، ولهذا بقيت آما، ابنة عمر وزينب. كان لدى البنت يوم عطلة.

بدت آما حنطية وذات شعر طويل، وفم منفوخ، وركين حادّين وثديين كبيرين.

ألقت نظرةً إليَّ مرتبكة - لعوبةً، بحيث اشتبهتُ: ما إذا كانوا يحضرونها لي كزوجة.

- هذه أموشكا تقترح السفر إلى الجبال، قالت زينب بنغمة معتذرة.

- إلى الجبال، تَنَشّطْتُ. أنا محتاج لأكون في كل مكان.

- هناك عندهم مشعّوذ، قال عمر ساخراً - أنا رجل صبّة قديمة، أردت أن أبصق على كل هذه الشيطنة. وأنَّ لدينا ظلامية سيغرسونها، فأنا مُستاء منها! أنت تحدثْ معها! - أشارَ بأسفل ذقنه إلى الابنة. - نسيتِ الكتبَ، نسيت الكتّاب، لا تعرفُ العلماء. تؤمن بكل هذا الهراء.

- هو ليس مشعوذاً، بل هو معالج، - بسعادة أخبرتْ آما، - بابا، يجب أن تذهبَ إليه.

- نعم... ركضاً...

- قالت آما: وضع يديه [المشعوذ - الحكيم] عليَّ، وكما لو أنه قلّب دخيلتي، وحزر ما يوجعني. حتى إنه قال أين توجد شامة على ظهري. هو مبصر بوضوح، يعرف المستقبل.

زينب تنفست الصعداء بأمل.

- لا لن أسافر معكم، قال عمر - إنه أقصى الجنوب. هناك «الخضرة» فقط وفي كل مكان هؤلاء... الأنصار. أقليلةٌ المواجع التي تقع. وأنت يا بنتي لا تسافري أبعد. أنت حقيقةً شرطية. ويمكن أن يخطفوا سرغي. من سيدفع من أجلك، سيريوجا؟ سأل بدون ضحك، بنفور. - ولكن يمكن أن يقصفوه في مكانه.

رغم ذلك، خلال نصف ساعة سافرنا بالتاكسي - أنا والأم مع الابنة.

كان من الضروري السفر عبر كل الشيشان، إلى قرية جبلية «ماخكيتي».

عند وقت الغداء وجدنا أنفسنا على طريق جبلية مكسّرةٍ إلى الأعلى منها ارتفعتْ غابة شوح كثيفة. انسدت الأذنان، كانت الطريق مُقفرةً، الغابة صارت خضراء، لا تُخترق وبلا نهاية. على واحد من المنعطفات اهتززنا وإلى الأعلى في الطريق الترابي المتناثرة عليه أحجار صغيرة، دخلنا بسيارتنا في القرية وقفت السيارة، سائق التاكسي بقي ينتظر. واحد تلو الآخر على طرف بُركٍ غير قابلة للعبور على هذه الطرق الوَعِرَة، وصلنا إلى البيت، وهو كبير، مُضاء، خشبي. كانت دجاجات بجانب البيت تمشي جيئة وذهاباً، واحتشدت نسوة كبيرات في السن، وبدينات، بوجوه ذابلة منتفخة.

- اسمحن لنا بالدخول من فضلكن - توجهت إليهن زينب - هذا ضيف من موسكو.

لم يعترضنَ، وبطريقة ما تفرقنَ بلا اكتراث.

ولكن في البيت تأتّى لنا أن ننتظر، لأن المشعوذ - الحكيم استقبل عنده أحداً ما. جلسنا على الشرفة، وتذكرتُ الصبي ذا السنوات الخمس. هو وخز قطة سوداء جالسة على الطاولة، بخنجرٍ خشبيٍ.

- لا داعيَ لذلك، قلتُ له.

- هو تابع الوخز، غير محولٍ عينيه السوداوين العميقتين عني. رفعت آلة التصوير. وميض الفلاش. وخذ الصبي بحماس أشد. مَوَّأتِ القطة وقفزت إلى تحت الطاولة. أخذ تفاحة خضراء عن الطاولة، غرس أسنانه وأخذ هكذا يتبختر - التفاحة مقبوضة بالأسنان، في اليد الصغيرة خنجرٌ خشبي. عيناه بصّتا. صورتُ وكان ضوء فلاش وراء الآخر.

- لدى آما مثل هذا الجميل الصغير، قالت زينب، ومن المؤسف أن ليس له أب...

احمرّت آما.

- هد... ف!، انبعث من الفناء.

اقتربتُ من النافذة.

النساء سرحن عند سقيفات الأبواب، ولكن أبعد قليلاً.

على مرجة صغيرة، ركض شباب صغار وراء الكرة. من جديد صوّرت. أطلقوا صرخات بإلهام:

- «تيريك» البطل!

- خذ!

- تمريرة!

- أخطأتِ الهدفَ.

اللافت للنظر، أنهم صرخوا باللغة الروسية، هنا في منطقة فدنسك النائية - بسايف الأقوى شكيمة في وطننا الصغير. كرة القدم. آه، نعم الشيشان ربحت البارحة مع النادي الرياضي المركزي للجيش. الشيشان أو نوختش - أبناء نويا.

«هذه الأرض حاملة بالأبناء - فكَّرتُ - كم هم أبناء أذكياء هنا! الأبناء هنا هم المسؤولون!».

هم كثر، فوق التصور كثيرون. تذكرت الحشد الغروزيني. المراهقون يطلقون بِسُعارٍ نظراتهم. امرأة تحمل وليدةً جديدةً، وهذا يحمل نظرةً متنبّهة باصّة بخفوت كأنه خائف أن يرشّها. في النظرات الغائمة لكبار السن يشتعل التهيج المراهق مع الحقنات الشمسية، لكن بعد ذلك تنطفئ العيون من جديد وتصبح هادئة كما عند الصغار جداً.

«كيف الحال هناك في موسكو، بنيَّ فانتشكا؟» - فكّرت به، وانعصر القلب.

فرَغَ المشعوذ - الحكيم، لاحت عمةٌ ناشجةً باللباس الأسود، التقطت طفلاً جاحظ العينين، الذي إلى ذلك الوقت قد رضع جرعة.

دخلنا أنا وزينب وآما في غرفة معتمة ودافئة.

كان المشعوذ - الحكيم شاباً نسبياً. رجل عريض المنكبين صلب. الوجه بشعر أسود - مشيب واقف.

- من أين؟ - نظر بلطف، ولكن بشكل سلطوي.

- من موسكو، كاتب، معروف ـ- دفقت زينب الكلام.

- تشرفنا. أنا محمد، كنت جندي إنزال مظلي. العمر ثمانية وأربعون عاماً - قال بعباراتٍ مقطّعة، رغم أنها ليست حادة، بل ناعمة، هادئة إلى النهاية. - عشت هنا دائماً. لم أكن قطُّ في موسكو. أنا رجل مسالم. ماتت زوجتي تحت القصف بالقنابل، بقي الابن معي. منذ تلك اللحظة بدأت الرؤية. مع المساء أرى ماذا سيحدث غداً، وبعد شهر، وبعد سنة. بدأت أعالج [الناس]. ها أنت ذا تحب الأطفال، أليس صحيحاً؟

- صحيح. - فجأة التقطتُ آلة التصوير، لكن لم أقرر التصوير.

- عندك ابن، هل صحيح ما أقول؟

- نعم، ابن.

- وسيكون عندك أيضاً ابن وابنة. وعندي ابن.

في أحد الأيام مساءً جاء عسكريون. «أنت تطعم مقاتلين! تعال معنا، سوف نطلق النار عليك». أجبت: «أنا أطعم الجميع، من يطرق الباب يطلب الطعام، سأعطي لأي واحد». يخرجونني. استيقظ الابن، عمره اثنتا عشرة سنة. يبدأ الركض، التصق [بي]. دفعوه، يقودونني ويضربونني بكعب البندقية، ويبعدون الابن. الشاحنة تنتظر. «اصعدْ!». أصعد في الصندوق. الابن ورائي. وفجأة بدأ عسكري يطلق النار. بالحجارة تحت أرجل الابن. هرب الابن راكضاً، الحجارة تتطاير، رجلاه تشققتا. مسَكوني ليومين، ضربوني. تركوني. أعود إلى البيت. بهدوء يضطجع الابن ليس حيّاً ليس ميتاً. أدار وجهه إلى الوسادة. أتوجه

بالنداء إليه: «ماليك!»، صحا: «بني؟ أأنت حيّ؟» هيا عانقني... الآن صار ناضجاً، الوقت يطير. سافر إلى «بتيغورسك» إلى الأكاديمية الطبية ليتعلم.

نهض محمد، تمتم الصلاة مع ذكر الله، مرَّ من وراء ظهر زينب، طلب منها أن تغلق عينيها، وبدأ يقود بذراعيه الضخمتين، غير ملامس لها.

- هل يمكن أن أصورك؟ سألتُ.

- يمكن، لكن فقط احذر - همهمَ تحت وابل فلاشات التصوير ومرر قائلاً: - الكبد يؤلم. المرارة ظواهر منتنة؛ حصى أليس كذلك؟

- نعم، اعتصرت المرأة الكلام.

- سوف تعيشين! ماذا أيضاً؟ لن تنامي في الليالي؛ تفكرين، ستحزنين عميقاً، كآبة لديكِ. لا تقلقي، هذا الذي تبكين عليه في الجنّة.

اهتزت الأكتاف لدى المرأة، تدحرجت الدموع من تحت الجفنين المغلقين، غطّست وجهها في كفها.

- حسناً، كفى، كفى. أنتِ الآن اجلسي.

تبادلنا مع زينب الأماكن. الكرسي حيث هي جلست كان ساخناً. أنا أغلقتُ عينيَّ خاضعاً، سمعت صوتاً رعائياً: تعاركتَ كثيراً في الطفولة. وقعتَ، ولكن لم تكسر شيئاً. في الطفولة مارست الرياضة. منذ زمن بعيد تركتها. شدّ عضلاتك. لا تكن كالحاً. ستصاب بنزلة برد. يجب تدفئة الحَنْجرة، أليس صحيحاً؟

- نعم.

- من زمن ليس بعيداً كان لديك هزّة، ولكن تتحمل، الآن سوّيت الأمر يجب تقليل الكلام لا تصرخ. بالصراخ لا تثبت شيئاً. الحَنْجرة ضعيفة أنت من؟ كاتب؟ يجب الكتابة!

سمعت ضِحكَتهُ، فتحتُ عينيَّ، آما أطلقت ضحكة، بخفرٍ وتقطّع، وزينب بوجه رطب، وأنا انفجرت ضحاكاً، بشكل خفيف وأحمق، كما في الطفولة.

افترقنا بضحك. مع الضحك رفض النقود المقدمة مني. ومع الضحك صرخ: - التالي! إلى الطبيب!

مشينا ضاحكين الواحد تلو الآخر على طرف طريق مكسّر حتى الإدماء، خرجنا متخلّصين من الورطة إلى حجارة صغيرة، هذه هي نفسها، فكّرتُ، التي أطلق العساكر فوقها النار، وطارت، مشقِّقةً رجلي المراهق ذي الاثني عشرة سنة.

انتظرتنا التاكسي. تحركنا.

- وراءنا مطاردة، قال السائق بدون اهتمام.

- أوي أوخ، أوي، أخذتْ تصيح زينب بشكل مكتوم. آما، كما لو أنها تخشّبت.

سيارة «التسعة» [اسم السيارة] الحمراء انطلقت بسرعة، بعد ذلك أطلقت الزمور وومضت بالمصباح الأمامي. وسط يوم مشمس صافٍ، كان ضوء هذا المصباح الأمامي أخرق.

وقفنا على هامش الطريق. سكون.

بشكل مفاجئ بالنسبة إليَّ، قفزتُ.

خرج من سيارة «التسعة» إنسان مع بندقية روسية، بثياب مموهة، على الحزام توجد سكين. ذقن حمراء، جمجمة عارية، تضييق قاسٍ للعنين.

- من أين أنت نفسك؟

- من موسكو، - قلت تقريباً دون صوت ولسبب ألقيت نظرةً.

كانت جبال من حولنا، مع غابات تعطي الخضرة.

- وكيف موسكو؟ واقفة؟

- واقفة.

حك أنفه بسبابة يده اليسرى (واليمينية ألقاها على العتلة المُنزلة لزناد البارودة الروسية).

- كنت في موسكو في التاسعة عشرة من عمري، ما زلت فتىً حينها. أنت من؟

- كاتب.

- تكتب الشعر، أيها الكاتب؟ هل تعرف تيمور موتسورايف؟

- نعم سمعت به. هو مغنٍّ من عندكم.

- أية أغنية تحب؟

- عرفت بالحدس أن أصهب الذقن - من معجبي عمر تيمور، والذاكرة مباشرة وبصعوبة أخرجت أبياتاً متواضعة:

- «لم يعد أفغان وياغوار يمزحان في هذا العالم، مع ابتسامة ذهب أسلان، مجلّلاً بالضوء إلى الأبد...».

أحمر الذقن كشر عن ابتسامة، ومن جديد شعر بالسعادة:

- ماذا فعلتَ عندنا؟

- ذهبت إلى الحكيم.

- إلى الساحر، هو آثم. أستكتب عنه؟

- نعم.

- ولماذا هذه لك؟ هيا أعطنيها - سحبَ الكاميرا إليه. لا يجب التصوير هنا.

- أنا أكتب، وأصور، قلتُ بشكل معاند.

- خذ وصور، صور من نفسك، هيا!

- نزعتُ بشكل سريع حبل الحمالة عبر رأسي، أخذ الكاميرا بالكف الأيمن، وزاناً إياها. ألقى البندقية الآلية على كتفه. أبعد بظفره الغطاء، أزال بشكل مرن فلم التصوير.

- امسك! - مد الكاميرا فارغة: - نحن لسنا لصوصاً. - وكرر مع ضغط:
- بكل بساطة، لا حاجة هنا لتصوير أي شيء. حسناً سافر!

- صعدت إلى السيارة. «تركني أمر»، قلتُ، والسائق انطلق من المكان. زينب أكدت شيئاً ما بنصف صوت باللغة الشيشانية. آما جمدت طوال الطريق. جعلها الخوف أكثر جاذبية.

- أما أنا فلا أخاف شيئاً، - قال السائق نحن صرنا في غروزني، حين وصلنا - إذا أراد الله شيئاً فهو يأمر...

هذا السائق التاكسي لم يكن فتى ظريفاً، في ثياب سوداء دهنية.

- هل أعجبك المشعوذ - الحكيم؟ سأل عمر على العشاء. - أقول لكم: كل هذا ظلامية. رغم أني في الشباب رأيت حورية بحر. في مجمعات التهجير في كازاخستان. كنت أقفز على الحصان، في حين كانت هناك امرأة عارية، بشعر طويل أشيب، تجلس على العامود وتقهقه عليَّ. وأنا من الخوف طرت عبر الحصان.

سرح عمر في تذكّر، تاريخ طفولة غامض، ومقاطع فظيعة من الحرب تداخلت، كما يحدث في الحكايات الخرافية الطفولية.

- أوضح لي أبي مخاوفي، قال عمر. - «إنها ارتعاشة رجولتك». كيلا يكون المرء جباناً، اعرفوا، لماذا لا يجب الخوف؟

- القتال؟ سألت آما، لكن زينب زفرت عند الموقد، حيث كانت في هذه المرّة تقلي السمك.

- اذهب أنت! بدماثة لوّح عمر بيده. - لا يجب الخوف من عيش الحياة. عشنا كل هذه الأعوام هكذا، إذ إنك تنتظر الموت في كل دقيقة، لكننا تعودنا.

- مأسوف على الصور، قلتُ.

- افرح لأنهم لم يزيلوك، قال عمر.

- طبعاً! - زفرتْ آما، شربتْ، توردت في وشاحها صارت وئاميةً شبيهة بالأم الصغيرة.

في ساعة الغروب ساعدت عمر.

على السلم الحديدي ناولتُ عمر زجاج النافذة، هو ثقيل وزلق. عليه انعكس الغروب ونار المشعل الغازي، المتوهج ليس بعيداً. كنا كلانا في سُكْرٍ بسيط، لكن لم نرغب كلانا بالاعتراف بهذا. انزلق الزجاج من يدي صاحب البيت، مرَّ بالقرب مني، وتحطّم على المدخل البيتوني.

قال عمر هذا من أجل السعادة ! المقدّرة.

خرجتْ آما من البيت وأخذت تكنس. هي لم تسأل: «من فعل هذا؟» هي إطلاقاً لم تسأل أي شيء.

مُكنِّسةً، بشكل خاطف رفعتْ وجهها لعدة لحظات سريعة.

«كم مؤسفٍ إننا لن نصبح زوجاً وزوجة أبداً!» - فكّرتُ رائياً كم هي جميلة.

«وحتى إننا لن نقبّلْ بعضنا»، أضفت في فكري.

في الحرب

بعد أن سحب صاحب الذقن الحمراء في الشيشان فلم التصوير من الكاميرا، لم يستلم المسؤولون في المجلة الشهيرة تقريراً مصوراً. «بدون صور لا يلفّ» [يقصدون انتهت مهمتي].

لم يكن لديَّ عمل، كما حدث لي في السابق؛ مررت بجميع المباني - اقترحت مقالات رفضوها. مع أنهم منذ عدة سنوات، حين أصبحت كاتباً، أولئك الناس أنفسهم فرحوا لي وهم وحدهم أخذوا يقنعونني أن أكتب لهم شيئاً ما.

امتدت أشهر الرفض - من شهر إلى شهر. إذا طبعوا لي، في المرة التالية كان بخوف، حتى إنهم أعلنوا ذلك بشكل مسيء: «اعذرنا، عندنا ممنوع عليكم».

دعوني إلى التلفزيون، أرسلوا سيارة إلى تحت النافذة، عندما انتهيت من انتعال الحذاء، أعادوا الاتصال: «ليس مقرراً لكم عندنا». ولكن - أوه، يا للهذيان! هناك قصة مع الدعوة إلى التلفزيون حتى مع سيارة تزمّر بشكل عملي تحت النافذة، تكررت أيضاً مرتين! قد قهقهتُ. قلتُ: «الأفضل أن تتأكدوا مسبقاً!». - «حسناً، ماذا أنتم [مخاطبة بضمير الجمع]، كل شيء رائع، أنتم الضيف المرغوب...» وكل هذا تكرّر، إعادة اتصال، صوت الفتاة نفسه، رغم أنه مقزز، قاسٍ، كما لو أن هناك قيامة، بأني مجرم...

بطرقة ما عشية عيد الميلاد دعوني إلى راديو شبه رسمي - للتحدث عن الأدب. «سأذهب، نعم - هكذا فكّرت - يبدو خلّوني في اطمئنان، هكذا هديةً». وعن أني على الهواء، فقد ألغيَ، أخبروني بالهاتف النقال مباشرة في المكان، حين سألت بلا جدوى، السماح بالحضور إلى الكوة الصغيرة.

بعد ذلك كان الصيف، وبدأت حربٌ حقيقية.

وطرت إلى الحرب. اقترضت نقوداً من معارفي - وطرت. ليس بمهمة ما لأحد؛ بل وفق رغبتي. لم تكن لديَّ كاميرا فقط هاتف نقال.

في البداية هطبتُ في فلاديكا فكازي، ومن هناك وصلت سفراً إلى نفق روكي.

وقف قرب النفق حشد من الفارّين: نساء وأطفال، وانتظروا إلى أين سيوجهونهم أبعد.

- لا تسافر إلى هناك، هناك جهنم، قالت امرأة بشعر مشعث. - عندنا في القرية قسم ينتحبون، في حين آخرون يضحكون. أنا جلستُ كل

الليلة في القبو أبكي، وجارتي الجورجية، خرجت باكراً صباحاً تصرخ نشطِةً: «حليب! من يريد حليباً طازجاً؟».

الحليب النشط كان الذكرى الأمرّ عن تلك المرأة الأوسيتية التي انمحت ركبتاها في لحمها، لأنها زحفت من هنا مختبئةً وراء الحجارة من القناص الملحاح.

عند النفق اتفقت مع العسكريين. أعطيت ألف روبل وأخذوني معهم. متجاوزين النفق المغبّر، دخلنا إلى أرض الحرب. جلست على الطلقات في حاملة الجند. ب. ت. ر. المنطلقة بسرعة بالأجساد المضغوطة للجنود، وكان مرئياً عبر الكوة الضيقة الدخان الأسود من القرى المشتعلة.

توقفنا.

- القنّاص، صرخوا من الأعلى.

قفز كل من كان على الدرع في الفتحة، واختنقنا؛ ولم يتبقَّ شيء نهائياً للتنفس. «وحش عجائبي، - تخيلت - وأنا في بطنه. نحن بطنه، أناس من المرحلة البدائية، مبتلعون. يزحف الوحش وينطلق بسرعة في الفضاءات القديمة، يتعارك مع الوحوش الأخرى». أغرقَ العرقُ العيون، السخونة صارت حرارة مرتفعة. «صار حقاً لا يهمك شيء - حاولتُ أن أتلهّى - أنت انهزمتَ، لماذا تخاف؟ ما الذي يمكنك أن تضيّعه؟ هيا انفجر، حسناً وكفى»... «لا أنا لست ضد، تدخّل صوت آخر. - فليكن أن أموت، ولكن في الهواء، في الهواء المنعش، لكن ليس هنا في ظلمة عرقانة...». المجهولية! هذا هو الأصعب. قرأت الصلوات في داخلي. «الطفْ يا ربُّ!» - صليت. وكررت دائماً السطر الأول من الصلاة: «يا أم الرب العذراء، افرحي!» تجاوزنا منطقة إطلاق النار. في الفتحة من جديد نفذ الهواء، من جديد كان المجال أوسع قليلاً.

- طيارة! صرخوا من الأعلى.

ومن جديد قفزات، أحد ما ضغط على بطني بركبته، أُغلِقَ بشدة علينا.

تفرقنا بسرعة وحشية.

- كان من الضروري بسرعة حينها، حتى لا تصيب القنبلة، قال الجندي بعد ذلك لاهثاً، كله مبللاً، كما لو أنه [خرج] من الماء.

أغلقتُ عيني ورأيت لوحات، هي غيبوبة أم حلم غريب؟ رأيت نفسي - مختلفاً. بصورة أساسية - صغيراً ومحلّقاً.

وزعوني ودفعوني إلى الخارج.

- ما هذا؟ سألت بلغة غير مسموعة.

- تسخينفالي!

جلست على أغلفة الطلقات المغطاة بالغبار.

كان عيد يوم النصر فقط - ما إن كسروا جورجيا، بدأت جورجيا تتراجع.

لم يكن هناك طعام في المدينة، الماء ليست كافية ولكن كان هناك نبيذ، حلو وقوي، هو انساح غاسلاً الدم. في مركز المدينة تُرِكتْ ثلاث دبابات مفجّرة دخانَ الوداع. من نافذة سوداء فنانة أوسيتية من المسرح المحلي المشتعل، رسمت لي بطريقة مسرحية موت الطاقم. قريباً من الضاحية، في منطقة «غابة البلوط» تحلل جنود جيورجيون ميتون. «زنجي!» - أكد واحد من المليشيا عن الميت. وربما يكون قد غمقَ لون الجيورجي بأن خبزته الشمس وأصبح أفريقياً؟ كان واضحاً في الميتين أنهم ركضوا إلى الأمام وإلى الأمام. كان الهجوم

الانتصاري مطبوعاً في أجسادهم المبتردة. المسلحون الذائبون بشكل لا يُصدّق، كانوا كما لو أنهم أجساد قادمة من الفضاء. «ربما يمكن التصوير؟» - سألت نفسي . وما بدأتُ.

رجعت إلى مركز المدينة. تمشيت في الفندق المعفّن طابقاً وراء طابق، نظرت في المربعات السوداء للغرف والمفحّمة برمايات الدبابات.

المستشفى، سرتُ في قبوها البارد الذي لا نهاية له، بالممسحات الدامية، بين المقاعد المقلوبة والأرائك المثقبة، ولكن في العلوي الشمسي في الغرف المضيئة، المذكِّرة بمعسكر التخييم، اضطجع الجرحى، الذين سحبوهم إلى الضوء. بين الآخرين تذكرت واحداً جورجياً بوجه غير مُميز. بدا، ودون ذاكرة، عرف أنه أسير.

يوم تغلّف بالرائحة، الحلوة - المرة والمقرفة للجثث... جوع، نقصُ مياه، سجائر لا نهاية لها، حرارة عالية، يدان مدخّنتان لجندي ميليشياوي، قطع مكسّرة من الخبز الأسود... أتذكر كيف اقترب السكان المحليون وعانقوا: «أنتم من روسيا؟ شكراً لكم!» - وكيف جفل منهم بعض الصحفيين، شاب - متطوع من رستوف أشع ملوحاً بالندقية الآلية...

مشيت متثاقلاً بشارع ستالين المدخَّن، خرج رجل للقاء ودعاني وراءه... دخلنا في فناء البيت. هكذا وقعت على سرية المتطوعين.

ازرقّتِ الجبال، من حيث أطلقوا النار، وقبل هذا من هناك أطلقوا النار نهاراً وليلاً. أحد البيوت بسقيفة من طابق واحد كان مقتلعاً لإصابته بقذيفة واحدة، هناك اسودت الزبالة المفحّمة. بيت آخر أكبر من الأول من طابقين، حجريّ، مقسّم إلى شقق، وقف مكتملاً، ولكنه مدخّن. في المدخل اختلط

طعام التأبين والعيد. كان المدخل طافحاً بالرجال. - لدى كل واحد بندقية آلية بين رجليه. امرأة عجوز جهوريّة نزلت إلينا أحياناً للتواصل. جميعهم تحدثوا بين بعضهم بعضاً بلغتهم الأم.

أذكر فتىً واحداً شُدِهَ من النبيذ والأخوة، إذ فجأةً امتقع، وكشر وجذب المغلاق. هشّوا عليه [أن يسكتَ]. بعد ذلك الرجل الأكبر الأشيب كث الشعر، هذا الذي دعاني إلى هنا، اقترح إليه حفر قبر للجارة. امرأة حامل قُتلتْ بشظية في الحقلة، حين فجرتْ طلقةٌ العنبرَ. يجب أن ينقلوا الجثة من غرفة الموتى - هو سأل: «من يساعد؟». - ووجه إلي بعينين منتبهتين سكرانتين.

- لا حاجة للذهاب إلى مكان، وإلا سوف يصورنك! تدخلت المرأة العجوز.

- من سيصورنا؟ - انزعج الرجل - اهدأ الآن، أحقاً لا تسمع: اهدأ تماماً؟

- يوجد قناص، قالت بعناد.

- القناص الذي ضرب ليلاً، ينام حتى يستعيد قواه.

- ربما يكون قد استيقظ الآن تحديداً...

- لكن لا تنعق!

تشاتموا بلغتهم الأم.

أين زوج المقتولة وهل القريبة على قيد الحياة، ما عدت أعرف. هل حقاً كانت الجارة حاملاً وكان عليهم نقلها، وهكذا لم أعرف. انفصلتُ عن زجاجة النبيذ البلاستيكية، التي تناقلناها بيننا واحداً إلى الآخر، نهضت من

على درجة مدخل البناية، رجلاي ثقيلتان خرجنا في الهواء الساخن. جلب الرجل رفشين، وبدأنا نحفر.

لقد توقفنا سريعاً عن التحدث بعضنا مع بعضٍ. مبتلّين وعُمْياً من العرق حفرنا، حفرنا وحفرنا، وأحياناً هززت بوجهي أو جسمي متضجراً من الذبابة، دون أن أترك الرفش، وبدون شك هكذا كنت اختلجت في الثانية الأولى، كما لو كانت لدغتني رصاصة من الجبل القريب. غير أنهم بدلونا، ورجعنا إلى برودة المدخل، فجلست على درجة السلم وشخصياً لم أفهم كيف انفصلتُ. استيقظت إما خلال دقيقة أو خلال نصف ساعة، نفضت رأسي وبقوة الإرادة نهضت. أخذت بلعة خمر. تآخيت مع كل واحد، خرجت (وما زالوا يحفرون الحفرة) وذهبت من الفناء إلى الأسفل في شارع ستالين المرشوش بالرصاص.

يداي نقذتا. تحسّن المزاج. لم يصوروني «بكل الأحوال هذا شيء حسن جداً، بأني حيّ!» - فكّرتُ في داخلي.

أظلمتْ. في أركان حرب الجيوش الروسية مضغتُ اللحم المطبوخ المعلّب. الشيشانيون من كتيبة «الشرق»، ذوو الذقون، تقدموا بالدور إلى الأنبوب الضخم الدافق وغسلوا أجسامهم العارية، وذهبوا إلى أمكنتهم في عربة القطار الحديدية. لتوّهم رجع الشيشانيون من المعركة.

ابتردتْ بلحظة خاطفة. ذهبت لأنام في مكان ما بمنزلة قاعة رياضة. اضطجع الناس جنباً إلى جنب. كانت الأرض جليدية. انضغطْتُ، الركبتان إلى أسفل الذقن تغطيت بالكنزة الصوفية، الحقيبة تحت الأذن، لكن في كل الأحوال رجفّتُ طوال الليل. القشعريرة أيقظت. دوي السلاح - وتمطّق القناص. صرخت العنزة. جادلتْ الضفدعةُ بشكل دَبِقٍ.

حلمت كل الليل بابني فانيا. كما لو أنه يقفز على الأريكة الكبيرة ويصرخ بشعاراته القتالية المحبوبة: «تارين - تاتارين! تاريتتارين - تارين! ديندليا! بومبليا! توتسيك!» في الصباح لسبب ما تحول الطفل إلى قط صغير.

صباحاً دفنوا من جديد الأموات في الفناءات، في الخضرةِ، في الزهور. جاءت الطمأنينة، ولكن نادى العماء.

موجة متقلبة اندفعت إلى الأمام - من أوسيتيا إلى جورجيا.

لقد رغبت برؤية ماذا هناك على تلك الأرض. خرجت بصعوبة من تسخينفال. عند ك. ب. ب [نقطة مراقبة الدخول] وقف داغستاني صانع سلام، الذي انضغط من المستعجلين. لقد ضيّف بيرة جورجية مُغْتنمة. ك. ب. ب [نقطة مراقبة الدخول] هي علبة إسمنتية فيها نقرات من الرصاص، وبدون زجاج. طوال الليلة السابقة أطلقوا عليهم الرصاص. قهقه الداغستاني بعصبيّة ضاحكاً. هو أخبر كيف بدأت الحرب وذهب زحفاً، مندغماً مع الحشائش الطفيلية تحت وابل من النار.

- صديقي - قلت - أريد أن أتابع بعْدُ!

- رجاء الصديق - قانون، - غَمَزَ بعصبيّة.

وخلال خمس دقائق أوقف سيارة «جيغوليه».

- هذا صديقي شبانياتا! هكذا وجدت نفسي في سيارة ملأى بالشباب، وهو بعمر كبير الصف. طرنا إلى جورجيا - للاحتفال بالنصر، جلست في مكان مبجّل، من الأمام قرب القائد.

- الجبل... أريد الجبل... وأنا لم أرَ جبلاً أبداً كهذا...

- زفر أحد الحالمين وولَدَ شعاراً ـ جبالٌ، جبالٌ!

جورجيا لاقت راحةً داعرةً. روضات خضراء. مزارع كرمة. ملاعب تنس. مطاعم.

زخارف كالصفصافة، كتابات تمّ تكرارها باللغة الإنكليزية، فاحت من الدقائق الأولى برائحة الحريق. أخرجت رأسي من النافذة، وأخذت بالتقاط المشاهد بالهاتف النقال.

وكلما مشينا أكثر، غبّرت بشكل أسمك، وكلما كان عدد السيارات أكبر، نتأت جذوع الأشجار من السيارات أكثر، وهذا هو رمي الرصاص سُمِعَ. وكل عربة جرّ أصدرت إشارة، و من كل واحدة صدرت كلمة السر نداءً مبتهجاً.
- لقد كان علامة: لكل واحدة خاصتها. انسكبت حالة انتظار في انحباس الهواء: متى حقاً سنهب ضدّ الغرباء؟

انطلقنا، وكنت حينذاك راقبت بانتباه وصوّرت، عجوزاً ميتاً وهو في لباس رياضي على عتبة متجر. صورتُ وفكرتُ: منحوس. بعد ذلك فكرت: هل نجحت الصورة. نظرت. لا، تشوهت. ها هم الرجال يدخنون في محطة البنزين. صورة. قفز رجل في اللباس المموه من حقلة الكرمة، ضاغطاً البندقية الآلية، ومن تحت الرجلين تفرقت وراحت وجاءت الدجاجات البيضاء كالثلج. صورة.

صوّرت، نظرت لأرى ماذا تحصّل، ووقعتُ على صورة ابني في ذلك الهاتف النقال عينه، وفي المرة التي تولّع فيها. حافظتُ على صور فانيا من العيون الغريبة، ولكن صورت فانيا باستمرار. هذا هو هنا يقف في بيجاما بيضاء - زرقاء

داخل السرير، يده اليمنى ممسكة المشبك الخشبي. الفم مفتوح في ابتسامة، الشعر محلوق بشكل ساحر، نظرة مدقّقِة لصغير راوٍ للحكايات الشعبية. هو في كنزة صوفية بنية، مندفعاً إلى الأمام، ينتظر الإشارة للهجوم، أسنان مكشرة، عينان متوجهتان إلى مكان ما في البعيد، الشعر مشعث مثل الحشائش، مرشوش بـ «نستور ماخنا». هذا هو في معطف شتوي وقبعة شتوية، بسيط، ينظر بمكرٍ وبشكل لعوب ودون حرص مولع بالآخرين. لديه رغبة بنشر الثلج والركض من كومة إلى كومة: «مرحباً أيها الدب!»، «مرحباً أيها الجمل!».

زعق القائد. أصدرت الكوابح صوت صريفها.

برزت دبابة في الدخان، بالقرب من سيارات مرمية. على الإسفلت متوترة بشكل غريب، تجمدت أجسام. كان هناك انطباع أن المتمددين قد تجهّزوا للطحن. من جديد صرت أصور عبر الزجاج المقابل. بدون توقف التقطّت الصور على الهاتف النقال، كما لو أني ضيعت البصيرة قليلاً. لقد بدا لي أن هذا التصوير الذي لا يعرف انقطاعاً، يبني جداراً بين حياتي وما يحدث.

- لماذا قتلتَ الناس؟ - صرخ أحد ما.

- أنا لم أقتل...

أحاط بنا حملة البنادق الآلية. أنا خرجتُ بهدوء.

- روسي؟ بارتياب نظر الضابط من المدرعة. - هاتف نقال؟ نوكيا؟ أيها القاسي! اسمع، إلى أين تخابر؟ لا أحد ليساعد... أبعد من ذلك ممنوع، اسمع.

وضعوا رفقائي في الطريق على الإسفلت إلى جانب الآخرين.

كان الضابط شبيهاً بالمغنّي غاريك سوكايفيتش.

- نحن الخيرين دافعنا عنهم. نحن هنا نتحارب مع أمريكا. اسمع، اللعنة لك!

محدودباً خرج من الدبابة رجل أسمر بقميص داخلي أزرق.

عبر سمرة الوجه شق مرض الخوف طريقه. هو مدَّ إليَّ ورقة معجونة. فيها مكتوب «من محق / مذنب؟ الروس؟ الجورجيون؟ الأوسيتيون؟ لا أعرف؟»، أجرى مسحاً.

- من أين؟

رفع حاجبيه السوداوين على طريقة السيد بِنْ.

- وير يو كم فرام - من أين أتيت [قالها بلفظ إنكليزي].

- برازيليا! برازيليا!

- من جورجيا رجل غريب الشكل عبر راكضاً - قال أحد ما من الجنود.

قفز شاب إلى الدبابة جاذباً وراءه صبية صغيرة. بحرارة شديدة بلا هوادة ضغطها بشدة على نهديها، موضحاً بهذا، أنها تخصّه. ثنائي جورجي، سمح لهما الضابط بالدخول للاتجاه إلى الجبل.

في مكان ما قريب منا دار إطلاق النار. الروس واروا أنفسهم في دبابة. الأوستيون قفزوا. إطلاق النار اختفى.

قصة منفصلة، كيف كلانا أنا والبرازيلي غطينا طريق العودة إلى تسخينفال.

خلال ساعات، فاقدين صوابنا من الدخان، النار، والإطلاقات النارية، التقطنا ذوونا من القوات الخاصّة إلى مدفع مغتنم بالحرب.

كان لديهم الكثير من الفرح - هؤلاء الشباب المجيدون.

وعلى جناح السرعة أنزلوا الزجاج الأمامي بكعوب البنادق.

أنا تغطيتُ، ولكن البرازيلي لاحظت، أن خدّه انشقّ.

... الحرب - هذه طبيخة. مقتنع، أي حرب، حتى الأكثر عدالة، تُشعرُ بالخجل، كما لو أنك مذنب. أنت ترحل، ولكن هم، كل من رأيت، يبقون.

حول الحرب الحالية لا يمكنك قول كلمات كثيرة.

كيف طردت صديقاً

لم أستطع أن أبقى في مكاني. لقد فهمت طبيعة الأمر. مثل بطل الحكايات الشعبية الخرافية بحثت عن الحقيقة. أردت أن أعرف شيئاً ما مهماً، من أجل أن أتابع حياتي.

وهكذا من جديد سافرتُ. وراء نافذة القطار امتدت روسيا الشمالية التي لا دم فيها: مستنقعات وصلت حتى فروع الشجيرات. على مواقف الباصات أغارت كلاب بيضاء شمالية بأضلاعها الناتئة، ونبحت ممزقة الوجوه الاستشهادية.

وصلت إلى سيفيرودفينسك وقت الغروب. لاقاني صديقاي أندريوخا [تحبب من اسم أندريه] وصديقه إيديك. أندريوخا - شاب وئاميٌّ أزرق العينين بوجه هادئ بارز العظام. إيديك - تقريباً أبهق، طويل القامة، وثّاب طوال الوقت. قفز بنشاط، منتظراً على الرصيف، وثب في طريقه إلى السيارة، كما لو أنه منجذب إلى الجنّة.

جلسنا في خمارة وهممنا إلى دورق فودكا، لحم وسمك مملح. بدأ إيديك يرسم كوابيس أعماله الاستثمارية البنائية.

- سرغون [تسمية مداعبة لاسم سيرغي]، لقد أدركتَ أخيراً: يجب السفر - انحنى إليّ عبر الطاولة - استمع إلى الناس، اكتب ما يقولونه... أنا قارئك! أتذكر الرسالة التي أرسلتُ عندما أخرجوك من الانتخابات! «لينين سلوفكي» - أنا كنت هذا.

- هو ولد في سلوفكي - قال أندريه.

- ولكن لماذا أنت لينين؟ - سألتُ.

- لو أنك قطعتَ كل روسيا، لا أحد ولا شيء سيوقفك - تابع قائلاً إيديك - ولا أية وشاية. لقد رأيت في الشبكة العنكبوتية: كيف يحتدون، بأنهم لا يملكون سلطة عليك! يكتبون، أنك مدمن مخدرات، ها - ها. لقد قرأت كتابك «أورا!» هناك على العكس - هناك مكتوب من أجل حياة صحيّة. أنا بعد «أورا» أقلعت عن التدخين، وبدأت أمارس الركض.

- هذا حقيقة - أومأ أندريه برأسه.

- وكما عرفتُ، أنهم أبعدوك عن الانتخابات - من جديد عدت إلى التدخين. - إيديك في توكيد، أخرج سيجارة من علبة الدخان وبرمها بين أصابعه. - سرغون، هم في الحقيقة لا يستطيعون أن يحظروا اللقاءات معك. هذه لقاءات القراء والكاتب... - رمى السيجارة. متدحرجة على الطاولة، وقفت على الحرف.

- لينين؟ - من جديد سألتُ. - ولكن لماذا أنت لينين؟

- سابقاً كنت ألثغ بالكلام وأنا في روضة الأطفال. بعد ذلك كففتُ، ولكن اللقب بشكل ما علق! في المدرسة لم ألثغ، لكن بكل الأحوال سموني لينين. أنت نفسك تعرف: واحد قال، والجميع كرر! - هو صفق براحة كفه على الطاولة، والسيجارة راحت إلى الضياع.

- عندنا المدينة صغيرة - وافق أندريه بشكل غامض.

- والآن ها هو الأصلع... مسّد رأسه.

بعد العشاء تفرقنا: ذهب إيديك مشياً إلى زوجته وطفلته التي مازالت في الرضاعة. في حين أنا ذهبت إلى بيت أندريه. وقد انتظرنا وأيديك في الطريق، رغم أننا ذهبنا من جهات مختلفة، العتمة والريح، البحر الذي ليس بمكنته أن يمتدّ بالماء - هبّت في الشوارع موجات جبارة من الرياح.

- عموماً بشكل ما، كان لدى أندريه ابنة، ولكن حتى الآن عاش نصف سنة وحده. الزوجة ذهبت طبيبة مقيمة اختصاص أمراض الفم، وأخذت معها الابنة ذات السنوات السبع.

جلسنا في المطبخ على غطاء مشمّع أصفر أزرق وأخذنا نشرب الشاي. تحدّثنا عن الأدب. أندريه - ناقد وناشر. يكتب كثيراً ويُطبعُ. أمضى نصف سنة عمل في خدمة - صحفية لنواب الشعب المدينيين، وهو اعتاش من هذا. في ذينك اليومين اللذين كانا لي في المدينة أعطوه عطلة، الرئيس-الفاهم يهتم بالكتب. «سأعرف بعضكم بعضاً غداً» - قال أندريه وانتقلنا إلى مصيبة أسرية.

- هي لم تعشقه، كامرأة له... أنا أيضاً لست شحاذاً، ولكن من أين لي أن ألحق بطبيب أسنان؟ ليكن الشيطان معها. مؤلم أنها خبأت الابنة الصغيرة. أنا لم أرَ ابنتي كاتيا منذ شهر. ببساطة لم يتيحوا لي الرؤية. وحين تأهبتُ للذهاب إلى المحكمة، فجأة ألتقي الزوجة وهذا القذر... نحن لدينا فعلاً مدينة صغيرة. التقيتهما في المطعم - حدّث أندريه بصوت حليم. بقي الوجه لطيفاً ولا متحركاً. - دنوت وأقول: «انهضْ»، نهض، وانتزعت أسنانه بضربة.

- كل أسنانه؟

- كثير... كثير من الأسنان - أندريه لأول مرة يضحك. - خمن، أسقطت أسنان طبيب أمراض الفم! من ضربة واحدة.

بلحظة خاطفة نظرت إلى يدي الرفيق: كبيرة وناعمة، هما بدماثة وشجنٍ على نحو ما استلقتا قرب فنجان الشاي، الذي خرج منه البخار.

- أنت قوي...

- لا، أنا وهو من تكوين جسدي واحد. الغضب أمدني قوة. أنا أردت أن أدفعه لمرة واحدة، ولكن أنظر ماذا حدث. تأتّى أن أدفع له ثمناً لأسنان جديدة.

- المثير، أنه هو نفسه وضعها لنفسه؟

أجاب أندريه بشتيمة متواضعة مستخدماً لفظة الأم. - بمعنى، أنه لا يعرف.

- نقلوا الابنة من أسبوع مضى. إلى غاتتشينوا، ضاحية بيتر. هم انتقلوا إلى هناك. سآخذ إجازة - سأسافر لأزورها - عبَّ من الفنجان

وسكت لبرهة في تفكير عميق، كما لو أنه متلذذٌ بالمشروب المغلي -
وعندك كيف؟ هل ترى ابنك؟

- أرى.

- ومع آنيا أَلَمْ تُحلّ المسألة؟

- ليس بشكل صحيح.

- مفهوم.

في صباح اليوم التالي ذهبنا إلى المصنع. رافقنا إنسان دحداح قليل الكلام. هذا الرجل من إي. إف. إي.إس. ب. إي. كان يجب أن يراقب تحركنا في المصنع. هو تَتَبّعنا كيلا نعمل أي صورة. السر الأساسي للمصنع كان بأنه يعيش بعون الله، بنصف قوة. وفي كل الأحوال كان الأمر بخير وفخامة! على أية حال عمل هنا العمال - في مصنع الآلات الشمالي هذا، المُنْشَأ ذات مرة من قبل السجناء، في مكان ديرٍ قديم وسط أراضٍ مستنقعية.

مشيت في حرفة من ثلاثة طوابق، تحت رجلي تزحزح لوح. وعاء ضخم ارتفع، محصوراً بممرات خشبية، في ضجيج وطنين، بين وهج من اللحّام الكهربائي، المذكِرّةِ بمواظبة المصورين. انتظرها في الهواء الطلق رصيف السفن، إلى حيث ستخرج زاحفةً، قبل أن تندفع بعْدُ في البحر الأبيض.

في ميناء المصنع، عُلّق أيضاً قاربان كان يداعبهما ماء البحر. لقد بنوهما من أجل الهند. إ. ف. إس. بيست. تمتم: «لا حاجة للمشي أبعد»، ولكن خلال لحظة خاطفة ملأت الكآبة وجهه، لوّح بيد جافّة، ونحن اقتربنا متلاصقين.

تحول الهيكل الحديدي إلى اللون الأسود على خلفية يوم مشمس بارد وممل.

أسرع العمال في أرواب زرقاء إلى الكتلة. شباب وبنات سمر وشقر، بحميمية، وبوقاحة تجادلوا وبشكل صداقي قهقهوا. دم مع الحليب! في ابتهاجهم كان التورّط في الأسرار: «ربما يكون إلى الموت السريّ؟» - سألتُ نفسي، وأجبت: «من المشكوك فيه!».

لفتُّ الانتباه إلى فتاة واحدة: وشاح أرجواني، خصلة سوداء، جريئة وسعيدة، مشبعة بشعاع ذري، هي فرحت وأسرعت مع الجميع. فجأة أحسستُ بتفوقها، وبضَعْفي من أنني لا أستطيع أن أوقفها، والدعوة إلى لقاء معها. هي كانت بعيدة المنال، ماشية بخطوات سير إلى هناك، بطويّاتٍ سرية، وبواطنَ حديدية. محاطة بالرفاق... ولكن ماذا يعوقني؟ لماذا لا أستطيع أن أتعارف معها، إذا كانت جيدة؟

- إي! مرحباً!

- نظرتْ عبر كتفها، مهتمّةً، دون دهشة. الرائع أنها فَهِمتْ، أنني أصرخ لها.

- ممنوع التحدث مع شخصية رسمية. الرجل إ. ي. ف. ي. س. ب. س. ت. مَسَكني من كوعي. اندهش العمال.

في الشارع عند المصنع انتَظَرَنا أنا وأندريه إيديكَ. كان عفوياً وأكمل أكْلَ المثلّجة. جلسنا في العربة.

- حسناً ماذا، لينين، النشط؟ - سألتُ.

- هل تعرف من أنتَ؟ ابتكرتُ! البارحة لم يأتِني النوم، لأن ابنتي توعكت باكية، وابتكرتُ اسمكَ. فعلاً لديك الاسم نفسه مع قافية الكنية! ألم تعلم؟ سيرغون شرغون! كيف الأمر؟ - هو انفصل عن المقود وصفق على كفه - أليس كذلك؟

- أنتم هنا فرحون في سيفيرودفينسكي، - قلتُ. - ربما من قلة الأكسجين؟

- لدينا حالتان اثنتان: إما ننام، أو نضحك بحمحمةٍ - أكد أندريه.

- أحياناً في المنام نحمحم، قال إيديك.

وصلنا إلى الصحيفة الرئيسة للمدينة، حيث بحذر شديد وفضول حيّاني رئيس التحرير، القصير المتورّم، الذكي. في الجمع كانت كل هيئة التحرير، وبصورة رئيسة - النساء الضخمات والفتيات النحيفات. صورونا جميعاً. «أنتم تعلمون أن مدينتنا سُمّيَتْ سابقاً ملتوفسك» - أخبرني رئيس التحرير بثقة.

بعد ذلك أعقب لقاء في جريدة أخرى أيضاً، أكثر حريةً. ولكن ملاكها تبيّن مثل ذاك في الجريدة السابقة: نساء ممتلئات وبنات نحيفات. رئيس التحرير كان شبيهاً بالخنزير البري. ملقياً نظرة اكتشفتُ أن الشعر القصير الخشن، يقَنِّعُ آثار الجروح، في حين أن عيناً واحدة تحت نظارات زجاجية معتمة تشدّها قشرة جلدية زهرية.

- لماذا هو هكذا محطّم جداً؟ - همستُ لأندريه.

- هجموا عليه في مدخل البناية - أوضح الصديق همساً - قطعوا كل شيء...

عندما بدأ الخنزير البري الكلام تحول إلى زغلول، بشكل مؤثر، ساذج، وتائه. لقد عانقته بعناية عند الوداع.

بعد ذلك ذهبنا بالسيارة إلى الموقع. إلى كوخ قرميدي، سجلت على الفيديو لأجل الموقع الإلكتروني للمدينة. التي كانت البارحة قناةً تلفزيونيةً، تحولت إلى موقع. المالك رجل ملتحٍ اسمه فلاس، كان مكتئباً. من أعماق الكوخ خرجت زوجته المكتنزة التي اسمها مارتا، شقراء متوترة بشفتين لامعتين وأظافر. حدّثوا، أنهم خنقوا القناة، وعدد الحضور إلى الموقع الآن مئة إنسان في اليوم، وكل الحياة من الصفر. شربتُ مع صاحب اللحية كأساً من الويسكي، انضم أندريه وإيديك، ومن العبث أن يكون المرء وراء المقود.

- أنا دائماً دون ثلج. - أي ثلج؟ أحقاً الرجل يشرب مع الثلج؟

فقط هنا، قاطعتُ، إنه منغمس بالإدمان الكحولي.

- أنا رجل أشرب مع الثلج وماذا في ذلك؟ - سأل بوقاحة إيديك.

نظرت الشقراء بعينين حارتين، كما لو أنهم الآن سيتعاركون ليس بسبب الثلج، بل بسببها هي. ولكن مرّ كل ذلك بسلام.

المحطة التالية كانت المعهد. قسم فقه اللغة. المعلم (صديق حميم لأندريه وإيديك) شاب شجاع بشاربين صغيرين سوداوين مائلين للبني، جمعَ قاعةً مليئة. تقريباً كلهنَّ طالبات.

حدثتهم عدة حكايات عن مهنة الأدب. تذكّرت كيف في أحد الأيام شاهدت في شريط التلفزيون جائزة «مشاركة لأول مرة»، أرسلت إلى هناك قصة طويلة في ظرف أصفر كبير وفزت متفوقاً على أربعين ألف منافس. وقبل هذا تذكّرتُ، وكنت حينئذٍ لا أعرف القراءة، وحينئذٍ كتبتُ. أخذت كتاباً وأعدت رسم الحروف. بل قبل ذلك، كان عمري سنتين، قفزت مساءً

إلى السرير، ونثرتُ كجواب على الضوء الأصفر، الذي يتلامح بين الستائر: «في نافذتي يعيش قمر، كم هو قاسٍ وعِر!».

واقترحت على الجميع الصداقة بين أبناء الصف الواحد، في التواصل، والفيس بوك. عرفت: إنه السبيل الأفضل لتجنيد حلفاء جدد. العديد بسرعة أخرجوا الهواتف وانحنوا فوقها، واضح أنهم دخلوا الشبكة العنكبوتية ووجّهوا طلبات الصداقة.

- هل يمكن أن أسألك... - حين الحشد الشاب انساح مبتعداً مع الضجيج، تقدمت إليّ فتاة. - أريد كتابة حكايات شعبية خيالية، في الرأس توجد فعلاً، ولكن على الورق، حتى الآن لا. - كانت في قميص رياضي نصف كم أسود، ذات شعر أسود، مع شفتين غامقتين، كما لو أنها أكلت حب الآس الأسود.

- هل أنت «غوت»؟ ـ غمزتُ.

- كلا، أريد أن أصبح «إيمو» - تريدين؟ هذه بستوخوفا لوبا - قال المعلم - هذه هي النسخ الأصلية الموجودة لدينا! قرأتْ من عندنا بوريس شرغين راوي القصص الذي لا يُنسى، وعشقت الحكايات الخرافية الشعبية.

- وهل يمكن التواصل معكم؟ - نظرت الفتاة إليَّ بإمعان وثقة.

جذابة رقيقة البشرة. عجزها مباشرة أكدته هاتان الشفتان السوداوان.

- تعالي مساءً إلى الخمارة - قال إديك، - «البحر الأبيض» [مقهى] هل تعرفينها؟ ها هي. هناك في الثامنة.

- ولكن هل ستحدثونني عن الحكاية الخرافية؟ - نظرت إلى مباشرة في العينين.

- ونتحدث ونُري - نطق أندريه مع ضحك غائم.

- انتبهي، لا تشربي كثيراً - المعلّم غيور، كما بدا لي، بحركة شعّث لها شعرها: وبرزت من أجمة سوداء خصلة زرقاء.

أندريه، إيديك وأنا قررنا أن نتمشى حتى المساء. قويت الريح. رفعت الريح ورمت ناثرةً القمامةَ.

هبّت الريحُ - تقاطعاً على تقاطع، صفاً على صف.

- جمد بلحظة خاطفة، ولكن بعد ذلك طار على نحوٍ ما شذراً من وراء الزاوية، قوياً وقالعاً، مثل فرسان الأشباح. الأبنية الحجرية المكونة من خمسة طوابق، المتداعية، الكثيرة مع دهان متسلخ (لسبب ما أخضر)، بدت موحشةً. جدرانها وزواياها حكوا عن مداعبات الرياح البحرية الفظة التي لا تتوقف.

بدت هذه البيوت الفقيرة منذرة بالشؤم! لاطفوها وعذبوها، خطفوها بالأكف وقطعوها. أشباح تقاتلوا مع أشباح من أجل كل بيت. مسكينة - مسكينة هذه البيوت، التي تعود للرياح وليس للبشر!

في «البحر الأبيض» كنا ظهرنا في السادسة والنصف، لسنا على ما يرام بسبب الريح.

على هذا في الثامنة مساءً كانت طاولتنا مدفّأة ومشؤومة. لقد وحدنا اليأس، الذي لم يعرف من أين تأتّى. إيديك حدّث عن الفوضى الشاملة البنّاءة،

بعد ذلك عن النساء، شاتماً مستخدماً لفظة الأم مع كل كأس صغير من الخمر بشكل متزايد أكثر وأقسى. أندريه لم يتحمل ودخّن سيجارة، رغم أنه آخر مرةٍ دخن فيها كانت من عشر سنوات مضت. غير متحمل دفق الحسرة، لذا دخّن.

أتت لوبا تماماً في الثامنة. كانت مرتدية ردةً سماويةً منسوجةً بدون قبة، نعم وشفتان ليستا سمراوين، بل هما عاديتان، ورديتان.

أوه، مرحباً أيتها الهيبيّة! - إيديك مسكها بكتفيها وأجلسها.

- لا تؤذِها - ترجّى أندريه.

- أخذت توجه أسئلة لي حول الحكايات الخرافية الشعبية، غير ملاحظة أندريه وإيديك. هي لحست شفتيها بتمهل وبشكل واسع، من المحتمل، للتغلب على الانزعاج. أي حكايات قرأتُ في الطفولة، هل أحبُّ الحكايات الآن، هل أؤلفُ حكايات لأجل ابني أم إنني أقرأ له حكاياتٍ غريبةً؟

- غداً عليَّ أن أسافر - قلتُ - هل تعرفين أندريه؟ وحقاً هو يفهم بالأدب جيداً، وأنكما تعيشان في مدينة واحدة، تواصلي معه...

- أنا أضفتكَ إلى أبناء الصف الدراسي الواحد، هل يمكنني الكتابة لكَ؟

- هل أنتِ تكتبين الحكايات الخرافية الشعبية؟ - سأل أندريه - إيه! - وخزها بإصبعه... - أنا أقول: حكايات خرافية شعبية؟

- نعم - هي طرحت ومن جديد التفتت إليَّ مرفّفة بعينين حريصتين.

تصورت: أسافر، ولكن سيتبع منها هجوم برسائل الكترونية SMS وإبلاغات، بالإنترنت، ولاحقاً سوف يغلي استياؤها... بالنسبة لبنت تعيش هنا في هذه المدينة المعصوفة بالرياح، من المشكوك فيه أن نلتقي مرة ثانية.

أدرت عينيّ إلى الصديق. الصديق قلب الكأس في فمه، مسحَ شفتيه بقبضته، ممرغاً، كما لو أنه مكررٌ الضربة المسقطة للأسنان. إذا كنت الآن سأستجيب لها بالانتباه، وأننا سننام عند أندريه في الشقة التي لا يقطنها الآن زوج وزوجة حقيقيان، في حين من وقت ليس بعيداً رنّت أصوات زوجته وابنته، سوف تكون في هذا دناءة ما دافئة ومعتمة. الصديق بحاجة لها أكثر - هكذا.

- أندريه، هل يعجبكَ؟ مطّت لوبا القول بنغمة المتوسّلة.

- أسألي هيا أندريوخا [أندريه] - نهضتُ من وراء الطاولة باحتداد وذهبتُ إلى الحمام.

عندما عدتُ، كان لديهم شكل مسرور وحائر، كأنهما منذ برهة قبّل بعضهما بعضاً. الصديق أحمر الوجه، قميصه مفكوك بثلاثة أزرار، ضم قاصّة الحكايات الشعبية الخرافية ذات الوجه المتورّد، وتمتم ليس بصوت عالٍ عن شيء ما وهي ضحكت مقهقهةً، متنحّيةً بشكل خفيف، وتحركت عائدة مباشرة إلى ما كانت عليه. هي لم تنظر إليَّ، وبثانية أطلقت بعين مخضرّة - بطلقة احتقار - ومرة ثانية ضحكت مقهقهة، مكررة «نعم؟»، «حقيقة؟»، «ماذا أنت تقول...» التبديل الحاد الحاصل معها، حين كنت في الحمام، جرحني بعض الشيء.

- لوبا هل تذكرين عند أندريوشا - قلتُ عابثاً - «البنت، التي داست على الخبز»؟

هي تابعت الانتباه إلى صديقي، كما لو أن هناك الأصوات أخرى بالنسبة لها قد اختفت.

- لوبا...ا ! - رفعتُ صوتي.

- قالت بغضب: لا.

- ماذا - لا؟

- ما المطلوب. اسمع، كُفَّ.

أندريه بغبطة مبتسماً، ضغطها بحسم أكبر.

«راقصة، فتّالة» - مررتُ تمتمةً إلى الكأس الصغيرة وعبَّتْها بجرعة واحدة.

- لوبان [غير في اسمها للتحبب]، ماذا عنكِ: استأتي؟

- لا تَغَرْ يا أُخيَّ . - إيديك انحنى إليّ عبر الطاولة: - دعهم يهدلون، اللعنة. -

هو خفض صوته: - الآن صعب بالنسبة لأندريه، لديكَ في موسكو هؤلاء النسوة متوفرات دفقاً، ولكن عندنا...

- عندنا المدينة صغيرة، - قال أندريه بنغمة عن شيء ما خاص به، لوبا ضحكت مقهقهة، وإيديك، صدئاً، نظر إليَّ من أعلى إلى أسفل نظرة حماسية:

- هو ذا!

- أوي، - أصبح أندريه صارماً، وسحب يده التي كانت ملقاة بين الأريكة والفتاة، وبدأ بالنهوض: بوريس ستيبانوفيتش...

الرجل الطويل في الطقم الرمادي كشر، بانتباه وبلا تبصّر ناظراً الطاولة بإمعان، وسأل بصوت متصدع:

- هل نحتفل، أيها الشباب؟

هم تعانقوا مع أندريه. الصديق فتح حضنه وارتمى على السترة كما لو في البحر.

من جهة السترة اشتغل كف أصفر صغير، طبطب على ظهر أندريه.

بعد ذلك هذا الكف الأصفر كان ممدوداً إليَّ، وبصوت متصدع قال:

- سعيدٌ كثيراً - كثيراً لهذا التعارف. أنا رئيس أندريوشا، كثيراً سمعت عن حضرتك.

صمتَ إيديك عند رؤية شخصية جديدة. ربما عبر حالة سُكرٍ متصاعدة، بأن لا داعي للعربدة في حضور رئيس صديقي.

- حسناً، سأضرب الأرض برجلي [سأمشي]! الابنة الصغيرة تبكي. بدون الأب لا تغفو. - هو رمى على الطاولة ورقة مالية وذهب يتأرجح.

- لينين، - نطق أندريه، ولوبا قهقهت.

خلال بعض الوقت أضيف ثلاثة إلى الطاولة: زميلا أندريه في الخدمة، واحد أتى مع الزوجة. كانوا متواضعين.

- شيء جيد أنكم تسافرون [خاطبه بضمير الجمع]. إلى أين ذهبتم سابقاً؟ - سأل متعاطفاً بوريس ستيبانوفيش.

- كنت تقريباً، في كل مكان. في الشيشان. في أوسيتيا.

- ممتع جداً. لكن كيف انتهت أحكام الإعدام المصرية؟ ألا تضغط عليكم؟ أنا أيضاً عانيت في أيام الشباب. كتبتُ شعراً. هناك حالة كانت في تلك الأيام أسخن! حين أرادوا طردي من اتحاد الشباب.

- هل يمكنني أن أصورك؟ - سأل شاب دائري حليق، خلى الزوجة، الشقراء الممتلئة الملمّعة، التي أفسحتُ مكاناً لها.

نقر الكاميرا.

- أقرب! - صاحَ.

زوجته لامستني بثديها عبر بلوزتها. لأمر ما ضغطتُ ركبتها. هي لم تنفصل مبتعدةً. لعبت بركبتها بأصابعي.

- أكثر تلاحماً! يا شباب! - صاح شاب - ج ب نة [جبنة بلفظ ممطوط، المقصود: رائع]!

لقد رغبت بالأكثر - بالتقاط زوجته من ثديها.

ابتسم أندريه بغبطة وبشكل أوسع من الجميع، كمحتفى به. صمت مزرراً عينيه، أما لوبا، فجأة، ومن المحتمل كانت سكرانةً، أخذت تداعب وتلمس له أذنه بلسان حثيث.

- ألا يضغطونك؟ - عزم بوريس ستيبانوفيتش - ألا يشددون قبضتهم؟

- إنه يبدو كل شيء على ما يرام - قلتُ. - آمل أن الأمر طبيعي. وماذا؟

- أندريوشا شاب جيد. سوف يذهب إلى الترقية التي عندنا. كم هو ممتاز! ها هو دعاكم! هل كانت حقاً لقاءات؟ في الجرائد؟ كيف طلابنا؟

- طالباتنا، - نطقتُ ونظرت إلى لوبا.

هي أيضاً نظرت إليَّ: مالت وتابعت تقبيل ولحس الشحمة الناضجة لأذن صديقي الشمالي. لا لن تكون عداوة. أندريه أحمرَّ وجهه، وأذناه، وصدره

في كوة القميص المفتوحة - إما من عدم الإحراج، أو من اللذة، أم من المشروب - أو من كل هذه الأمور معاً.

حولت نظرتي وشربت أيضاً.

- هي - غوت [من قبائل ألمانية قديمة] - لفظتُ بصعوبة - تعرفون الغوتيين - إنهم عينهم أولئك الذين يقفزون... [الذين يصدرون الصوت التشجيعي هوب أثناء القفزة]... «غوت - ستوب» هيا - قف...

بوريس ستيبانوفيتش الفاهم حدّق بعينيه.

- أوي... ليست غوت - تذكرت فجأة - إيمو!

- الشباب يلعب، هذا تناهى صداه إلى أقاصينا - أجاب بوريس ستيبانوفيتش، بشعرية مع صريف وتضييق العينين.

في ذلك المساء هو لسبب ما لم يشرب ولم يأكل شيئاً.

كان الجو معتماً وعاصفاً وقد بقيَ منا ثلاثة - لكن هل أنت طبيعية أيتها الفتاة الصغيرة! فكّرتُ، يسارية ما - تمتم أندريه - في حين أنت نقّارة...! اعتقدتُ - أنكِ ذاك الإنسان، في حين أنت عادية! - التفت إليَّ وقال بصوت مبحوح: - دون إساءات؟ - وغاص بوجهه في وجهها.

قبل بعضهما بعضاً، مغامرين بالسقوط.

- نسيت الهاتف النقال - تذكّرت - انتظروا.

- رميت نفسي راجعاً، مذللاً الهواء. دخلت راكضاً إلى المطعم. صوت الموسيقا صار أقوى بخمس مرات مما كان من قبل قليل.

طاولتنا الصغيرة كانت مُنظَّفة.

- الهاتف النقال! ضيعته! - صرخت في مستودعات المطعم، قافزاً إلى البار [المشرب].

المرأة وراء منصة المحاسبة، عريضة العظام، فاتحة اللون، في قميص أبيض، هزت برأسها نافيةً، وفي المستودعات مطّت شفتيها:

- ليس عندنا...

أنا دون صوت مططت فمي بكلمات سيئة.

الهاتف النقال مع كمية كبيرة من الصور، مع الحرب الأوسيتية، مع ابني الصغير، سرقوه...

ليأخذكم الشيطان. «من المحتمل، هم شغلوا الموسيقا بصوت أعلى، كي يكنسوا الآثار» - فكرت على سكرٍ وبقصدية ذهبت من البار إلى المخرج. لكن ماذا لو فجأة ذاب صديقي مع لوبا في العتمة؟ وماذا يكون؟ ما العمل بدون هاتف؟ البحث عن فندق؟ هل تكفي النقود؟ كل هذا دوّرته في رأسي، خارجاً إلى الظلام، رغم أنه لا مكان ليختفوا.

اثنان ترنحا، تلاصقا في قبلة، مبلَّلين بنار زرقاء من يافطة المطعم.

- لديّ هاتف، صفّروا.

- عبئ! طفا أندريه على السطح من القبلة، لكن لوبا قهقهت، كما لو أنها قاقتْ كالدجاجة.

قرب البيت عرّج أندريه إلى المتجر الليلي واشترى زجاجة شامبانيا. دار في الشارع طويلاً. سدادة الفلّين تأوهت في الظلام وطارت بعيداً.

هو قام برضعةٍ طويلة ونقل الزجاجة إلى صديقته. لوبا ابتلعت شربة ونقلتها إلي.

- نعم حسناً! - قلت.

في الشقة نحن مباشرة انقسمنا... أندريه استلقى في مكانه، لوبا أخذت تروح وتجيء إلى الحمام.

أما أنا فقد جلستُ في غرفة أخرى وانطمرت في الشبكة العنكبوتية. غير ناهض عن الطاولة وغير منقطع عن جهاز المراقبة - الهاتف، نضيتُ عني ثيابي. على الموقع «طلاب الصف الواحد» أرادوا أن يتصادقوا معي، تسع عشرة طالبة من سيفيرودفينسك وأربعة طلاب.

حين كنت أوافق فيه على الصداقة ووصلتُ إلى لوبا ذات الشعر الأسود الداكن، كان مسموعاً: إنها هي كانت تأخذ حماماً (دوشا)، وبعد ذلك ذهبت مسرعة إلى أندريه.

- هل لديك واقيات ذكرية؟ - سألت بصوت قوي.

«مرحباً! أنت يا لك من لطيف! شكراً! لهذا! إلى لقاء قريب!» - كتبتْ لي في الشبكة العنكبوتية.

كان الإبلاغ مرسلاً في ١٩، ١٩، كان أقل من ساعة تبقى قبل مجيئها إلى المطعم، إذ تحصل على أندريه.

من خلف الجدار صوّتت نشيجها وتنهداتها.

لكن أليس هي بشكل مخصوص تئن بصوت قوي؟ لكي أسمع! لماذا تفعل هذا؟

نهضتُ، خطوت من النافذة ذات الستائر إلى الباب. وراء زجاج الخزانة وسط طقم المائدة تناثرت مربعات ورقية: التي داخلها تهنئات فتاة صغيرة إلى الأب بعيد ميلاده ورأس السنة. من الواضح، أنها مكتوبة حين كانت ما تزال العائلة لم تنهَرْ. «بابا أنا أحبك! لتكن بصحة وأحبّ ماما وأنا!» - حروف مربعة متعددة الألوان بالقلم الرصاص، وبعضها مدارة ليس إلى الجهة المناسبة.

أستكتب هذه البنت مثل هذا الآن؟

أطفأت الحاسوب. نضضّدت ثيابي واضطجعت ووجهي إلى الجدار الذي بسببه بكاءات الطالبة مثل كلب صغير طويل الشعر، ما زالت تستمر في التصويت، وهي أنغام رتيبة وكئيبة. غفوتُ بلحظة خاطفة.

أيقظني الضجيج. قفزت من الأريكة، بطريقة الجندي طويت البياضات في رزمتين متساويتين، وخرجت إلى المطبخ بالسروال الداخلي. جلس أندريه على الطاولة، طقم أزرق غامق، ربطة عنق وردية.

- أوه، أيها المتأنق - صَفّرت - جهزتَ نفسك للذهاب إلى قصر عقد القران؟ لكن أين العروس؟

- ذهبتْ منذ برهة. وأنا إلى العمل.

- اليوم عندك عطلة...

- عندي مشاكل.

- ما الأمر؟

- اتصل رئيسي منذ لحظة، قال: «عندك مشاكل». - رشَّ الصديق في الفنجان بقايا الشمبانيا من الزجاجة، شرب قليلاً وتجعّدَ: خارت قواه.

- هراء، قلتُ، - رئيسك في العمل شخص محترم.

- أنا البارحة ما تواقحت معه؟ كان كل شيء جيد؟

- جيد - قلتُ، وهذه الكلمة الخشنة ذكرتني، أني أرغب بشرب الماء.

- لكن اعذرني، يا أغبر، ألم تشتمهُ؟

- لم أشتمه. أندريوخا هل يوجد ماء؟

- هناك في إبريق الشاي وهي باردة، - قام الصديق: - سأذهب بالسيارة، لأعرف، لكن أنت انتظر.

- كيف لوبا؟ سَحرتكَ؟

لوّح بيده بخمول صفقتِ البابَ. بالعاً الماءَ بتعطّش، في النافذة ومن مسافة الطابق الخامس، شاهدت قامته المسالمة، التي انحملت بِمَيْلها من قبل الشارع الرمادي، مُستَحَثّةً ومسبوقة بالريح، بشكل متزايد أكثر وأكثر...

رجع خلال ساعتين. ذهب عابراً إلى المطبخ، جلس. وجه شمعي خامد.

رفع فنجان الشاي، ثرثر، بلا اكتراث، صبّ بداخله شمبانيا ميتة.

- طردوني.

- من أجل ماذا؟

- يقول: كان هناك اتصال.

- من أين؟

- يقول: كان هناك رنين: «لدينا شرغونوف في المدينة؟ أنتم تستقبلونه؟».

- أي هذيان هذا، - قلتُ متعباً، - من أجل ماذا هم يكرهونني هكذا؟

- الآن يكرهونني أنا - تنهّد أندريه. - أنا لم أرَ الرئيس كما هو الآن. العينان كما لدى الصرصار المجنون. «هذا أنت الذي دعوتَ شارغونوف؟ أنت على الأقل تعرف من يكون حقيقةً؟ ودّعْ وظيفتك!» هو حتى يده لم يمدها لي. نادى كوليان، الموظف عندنا. هو هذا الذي جاء البارحة مع الزوجة. يقول: «أين آلة التصوير؟» - «في البيت». - «امشِ إلى البيت. احضرها إليَّ في المكتب، وسوف نمحي كل الصور مع شارغونوف بحضوري، بحيث أرى». وقد مدَّ إليَّ ورقة وقلماً «ضع التاريخ والتوقيع على بياض»، - ولم ينظر في العينين «لتذهب إلى الجحيم» - قلتُ. «[انتهزت الفرصة] رضعتَ، أليس كذلك؟»، قلتُ. وقّعتُ، وخرجتُ. حقاً تبّاً له، لهذا العمل...

خلال عدة ساعات أندريه، إيديك - لينين، وأنا جلسنا على قارب مقلوب على شاطئ بريّ لسيفيرودفينسك وشربنا فودكا. بيننا على القاع المقلوب كان رفاقنا - كؤوس بلاستيكية وعبوات ممزقة مع قطع.

كانت ساعة جذر. في البعيد صار البحر غامقاً، الشمس بكآبة أضاءت كثبان الرمل، الصنوبرات والنجمة الحمراء لقبر بطلوليٍّ مجهول، متوضّع مباشرة على الشاطئ.

- أتمنى لو أنهم يقبرونني عند البحر - قلت - في الرملِ. من المؤكد أن هذا ليس جيداً للجثة، فالحفرة تمّحي، وبالمقابل هذا جميل: قبر على شاطئ البحر.

- كل شيء سيكون على ما يرام مع القبر - قال إيديك. - كما الأمر مع هذا القارب. صار له عدة سنوات هنا. من الرطوبة يتعفن طبعاً. ولكنه تملّح. مع ذلك يتقوّى. هذا، يا للعنة، هو الديالكتيك...

هو نظر إلى لوح الخشب الأعوج.

ابتسم القارب بحكمة مع كل شق وصدع.

- تباً له! - قال أندريه - صبّ الخمر!

- ألا تريد أن تتصل بـ لوبا - سألتُ!

- تباً لها، لـ لوبا... وأنت؟

- لقد سرقوا مني الهاتف النقال، أنسيت؟

يجب المحاصرة - قال إيديك متبصّراً.

- يجب - قلتُ.

- شكراً لك سيريوجا! - قال أندريه - فكرتُ: فقط في الخريف سوف أرى كاتيا. لكن هذا سيحصل: خلال أيام! طردوني يا سيريوجا، بسببك، لا تقلق يا أخي. بالمقابل أنا حرٌّ الآن! حرٌّ، هل مفهوم هذا لك؟ أنا الآن سوف أسافر إلى ابنتي في «غاتشينو»! أنا حقيقة لست أحمق: حين كان لديَّ عمل، جمعت نقوداً. سأصل من السفر، وأستأجر بيتاً، وسأذهب لأصبح معلماً في المدرسة وكما ترى سأعلم ابنتي كاتيا...

سافرت في ذلك المساء، غروب باحمرار عنب البقر امتد فوق المستنقعات.

كان المرافق في عربة القطار عجوزاً سكّيراً، سافر بالرحلة مع قط أسود شبعان من وفرة الطعام. في المحطات قرب القطار تجمهرت كلاب نحيفة بيضاء. شاهدتُ من الرصيف القط الذي نظر في النافذة. نظرت الكلاب من الأسفل إلى الأعلى ونبحتْ بأسى، كأن القط كان سائلاً عن المساعدة.

نظر القط إليهم عبر الزجاج منتفخاً قليلاً.

سافرتُ إلى موسكو وعرفت: غداً سيترك صديقي سيفرودنيفسك.

بحضوري اشترى بطاقةً إلى مدينة بيتر، من حيث سيتوجه إلى غاتتشينو.

ثورة في آسيا

أنا لم أرَ ثورةً قبل هذا. يمكن العيش كل الحياة دون رؤية ثورة.

مضى الوقت، وأنا ببطء، ولكن بشكل موثوق، قد اصطلحَ وضعي... من جديد نشرت لي جرائد مختلفة ومجلات. بيسر ولكن بصورة مرغوبة أكثر فأكثر... صدر لي كتاب. دار النشر أبرمت اتفاقاً على الكتاب التالي. أخذت تتجمّع النقود.

عندما قالوا في الأنباء إن ثورةً في قرغيزيا - فوضى وإطلاق نار، اتصلت مباشرة بـ سيفا. كان أوروبياً متقدماً. هيّباً.

لقد عُدَّ موظفاً على موقع الشبكة العنكبوتية الثقافي، وكان يكتب مقالة صغيرة مرةً في الشهر. في الوقت المتبقي، مضيعاً حساب الساعات، غرق في السديم الدافئ للنادي، سعى وراء الشاي وزرر عينيه على المصدر الوحيد للضوء - شاشة حاسوب محمول مع شريط التويتر.

حمل معه دائماً آلة تصوير ضخمة. وهي من كل بُدّ معبأة بشرط فيلم أبيض - أسود. خرجت الصور مُعاقة - ملطّخة من الجوانب. سيفا اعتقد أنها جميلةً وغير عادية. التقط الصور، كقاعدة، من الأعلى: السماء، الأغصان، الجدران والأسطحة.

الحياة الرخوة لم تعِقْهُ من السفر إلى آسيا. هو زار قرغيزيا وأوزبكستان، لقد زار تلك المنطقة طويلاً، عرف الأعراف. وعرف أين يتوقف. لذلك عندما حدث الاضطراب الصاخب خابرتُه بالهاتف:

- أنطير إلى قرغيزيا، يا سيفا!

- نطير إلى قرغيزيا... - أجاب بتواضع.

لم يكن سيفا جباناً. لو اقتُرح عليه التوجّه في تحليق إلى المشتري، لأجاب بالموافقة، بلا شك وبدون توتر عصبي. لكان أغلق الكومبيوتر المحمول على مضض، وعلّق على رقبته آلة التصوير، المفوّتة، طنَّ ومشى متثاقلاً إلى المركبة الفضائية. بدون خوف وذبول هو في الجوهر كان ببساطة، هادئاً جداً.

ولكن قرغيزيا وثورتها كانت ضرورية لي كتوكيد أخير على أنني ما أزال ضرورياً في هذه الحياة. قررت للمرة الثالثة أن أَخْبَرَ قدري. ولكن طرتُ راضياً تماماً، عارفاً لسبب ما بدقة: إذا لم ينتهِ وقتي - فلن يقتلوني - فسأرجع.

وبالطبع كانت بي رغبةٌ مخيفةٌ في رؤية: كيف يحدث هذا، كيف انتصرت الثورة.

كان سيفا محزّماً بقميص مبرقش موسّع، وسروال جنز ضيق، وحذاء رياضة خارج القياس. انسدلتْ على الجبين جديلةٌ بنية - فاتحة طويلة.

- أنت في مثل هذه الهيئة أزمعت الذهاب إلى هناك؟ سألتُ.

- وماذا؟ -

هو نظر بدون تفكير. - هناك يوجد بشرٌ مثلي.

- وأين الكاميرا؟

- أشار بانحناءةٍ من رأسه إلى حقيبة قماشية برتقالية، معلقة عبر الكوع.

حطت الطائرة عبر العتمة. تدحرجت طويلاً متقافزة على أرضية غير متساوية، بلا مصباح، ووقفت أخيراً.

الناس في المطار في سترات عسكرية، تفرّسوا بانتباه. العيون الضيّقة حفظت جليد التبصّر، الحركات كانت حادة وشحيحة.

من المطار سافرنا بالتاكسي إلى مدينة بشكيك، حيث معارف سيفا حضّروا لنا شقة.

الطريق كانت في حفر. سيارة «الفولغا» القديمة تقافزت مع اهتزاز، انبسطت حولنا حقول فجريّة ضبابية.

- تان - قال سيفا - تان باللغة القرغيزية: فجر.

التفت السائق:

- إننا نتصادق مع الروس، نحن دون الروس - كما لو إننا دون آذاننا.

- أنت تسوق بسرعة - قلتُ. - ألا تخاف من شرطة المرور.

- دعهم الآن هم يخافون. عندنا العملاء اختبؤوا. هل سمعتم ماذا فعلوا مع الشرطي الرئيس؟ كان هذا في تالاس. هو اختبأ في حفرة

محفورة. لقد مسكوه، ضربوه، حولوه إلى عجينة. أسقطوه مرتين من الطابق الثاني.

دخلنا بالسيارة إلى المدينة، التي تظهر مع الأبنية السوفيتية الفيليّة من السديم الليلكي.

أسقطت الشمس أول شعاع ناري. مرحباً أيها الطرف الضائع من الإمبراطورية!

في الضوء الصباحي، من نافذة السيارة، قرأتُ اللافتات الشارعية السابحة: صالون حلاقة «النخبة». مشرب - مقهى« ريترو - مترو». متجر «لحم وخبز»، باللغة الروسية.

- الجميع! الجميع عندنا يتحدثون باللغة الروسية! - حزر السائق أفكاري. - لا يمكن التهرّب. كونغانتييف - هل تعرفه، على ماذا تحصّل أيضاً؟

- من؟

- حسناً، شرطينا هو المسؤول، غرزوا عصاً ميليشياوية في مؤخرته. ثورة [باللغة القرغيزية]...

- ماذا؟

- القدر، - ترجم، سيفا بشكل سويدائي.

الثورة القريزية - الثورة الثانية حدثت خلال خمس سنوات بعد الأولى.

وقفنا تحت الشمس مع سيفا قرب البناية البيضاء للحكومة مع زجاجها المكسّر. البناء محترق حتى الطابق السابع. نافذة واحدة كانت متميزة: سخام طويل في أعلى الجدار، يبدو أن اللهب نتأ عالياً.

على قاعدة تمثال حجرية لوّح شاب يرتدي سترةً جلدية بعلم أحمرَ كبير ثقيل، ولاهثاً، صرخ بشكل ممزّق. «هذا بيتنا، - ترجم سيفا - هيا أيها الشباب، هذا سوف يكون قصرنا!».

في الأرجاء حولنا تقلقل حشد، مئتا شخص. قفز الشاب. اشتغل صوت حلْقي بالصلاة انطلق فوق الناس، وهم جلسوا القرفصاء لتذكّر المقتولين.

صور المقتولين كانت ملصقةً على حاجز أسود كلهم شباب تقريباً. تلاقت أيضاً وجوه روسية. وهنا - كانت وريقة. شعرٌ مكتوب باليد لذكرى صديق: «رصاصات طارت، كزوبعات نارية... حسناً لماذا، حسناً لماذا هذه الزوبعات ظهرت في جسدك؟».

وسط الناس كانت هناك خيمة رمادية - ممتقعة ممزّقة. جلستُ مثل الجميع على القرفصاء ونظرت. جلست الفتاة التي يصعب تمييزها، جلست في شفقٍ لبّادي.

- هنا الآن أنا... - قالت الفتاة بشكل مكتوم وكما لو أنها معتذرة - أنتَ من أين، من أوشا؟

- كلا، من موسكو.

انتهت الصلاة، خرجت الفتاة زاحفة. كانت منمنمة في كنزة لامعة، مع فم كبير، وقاربين صغيرين لعينين ضيقتين. كان عمرُ آيانا تسعة عشر عاماً. وصلت سفراً من مدينة أوش.

«آيانا في قرغيزيا، آما في الشيشان، آنيا في روسيا» - تفكّرتُ.

زهور على الأرض، قالت آيانا، تعني أجساد من سقطوا البارحة. «انظر إلى البوابات!». بوابة بيت أبيض كانت مقوسة بشكل طلائعي. «هذا من انفجار قنبلة يدوية!» غطى خشب معاكس البوابات المشوهّة مع اللوحة الكلاسيكية المرسومة بالزيت - جبال، سماء زرقاء فاتحة، شخصية أبيّة على الحصان.

- بشكل جميل! - صوّرَ سيفا البوابة.

الأُولُ الذين دخلوا البوابة راكضين وقعوا بسبب الرصاص.

- ها هنا، أشارت آيانا، طوال اليوم استلقت عين رجل عجوز. الجسم منفصل وحده، والعين منفصلة وحدها.

هي أشارت إلى رأس وردة قرمزية بهيّة، مفصول عن ساقه.

- حيث وضعوا زهرة كانت هناك عين. عندما ركضوا تحت الرصاص، قفزوا فوق العيون. عندما انتصروا ورقصوا، حافظوا على العيون. هكذا هو اضطجع، كيف هذا... هيا... يا لهذا الأسبوع الضعيف...

- القديسة - ترجم سيفا. - هل مضى على قدومك زمنٌ طويلٌ؟

رفّت آيانا جفنيها كثيراً، علامة على الصدقيّة:

- البارحة بعد العاصفة. عندي أخوة حاربوا هنا، سافروا إلى البيت للاستراحة. كانت منها إشارة! الشعب من كل البلد. شوونا. أخذوا ابتزازات. على كل خروف كان يجب شراء رخصة موافقة. نهبوا البلاد. الشعب طارد العملاء. حينها أخذ القناصون يطلقون النار. هم من جميع البيوت العالية أطلقوا. لكن فهم الناس أنهم يتعرّضون للقتل، حنقوا وصاروا مثل السكارى. جرّوا القناصين وقطعوهم إلى لقمات. وركضوا إلى الأمام وليس إلى الوراء. أخذوا البيت الأبيض، البرلمان،

التلفزيون... أظهر شاب في التلفزيون صورة زوجة باكييف، واستدار يقول: «الكلبة!». كله لوحدنا! لم يكن هناك قادة... وبعد ذلك فكرنا، ماذا نفعل بالسلطة... لقد أعطيناها للمعارضة... لكن هذه السلطة الجديدة تفسد الآن. لماذا سمحوا لباكييف بالهرب؟ والقنّاصون لم يكونوا قرغيزيين. يقولون، هم شيشانيون. أو سلافيون. - هي انقطعت، متفحصةً إيايَ وصديقي. - ألستم شيشانيين؟

- هيا لأصوركم - دعا سيفا.

آيانا فوراً نسيت الهلع. وقفنا على خلفية البوابات الملوية. حضنتُها من كتفيها.

- أنت صحفي؟ - اقترب شاب رقيق برأسٍ أجعد.

- دعنا نصور - نادى عليه سيفا بصوت منخفض.

وقف الشاب أمام العدسة حاجباً إيانا. قائلاً بصوت المتَّهِم المكسور:

- أنا من الدونغاين. نحن صينيون، ولكن مسلمون. سجّلوا، من فضلكم: دون - غا - ني. الآن ممنوع مخاصمة الشعوب. الدونغانيون، طيبون، الإيغوريون، طيبون. الأوزبيكيون ليسوا سيئين. الآن يحرقون الأوزبكيين، يُحرَقونهم أحياءً.

- سين يمنيدين كوركوسون؟ سألت آيانا بتعالٍ.

- ما الذي تخافه؟ ترجم سيفا لأجلي.

سؤال غريب، فكّرت، ولكن دوغانين لم يلحق ليجيب، لأنه في تلك اللحظة مرّ طائراً فوق الحشد صوتٌ بمكبر الصوت كما العقاب.

- كذبوا علينا! - صرخ شاب ضيق العيون باللغة الروسية، ولكن حامل الراية لوّح بالقرب منّا بالراية الثقيلة عينها. - يريدون الحرب؟ سيحصلون على الحرب! لنذهب إلى التلفزيون! لقد أطلقوا باكييف! الموت الباكييف! الربط إلى الشجرة! الرمي بالحجارة! - هو عَمِل وقفة، وكان مسموعاً بمكبر الصوت: يبلع ريقه. - باكييف!

- أسلون! [الموت] - انفجر الحشد.

- باكييف.

- أسلون!

- الموت لباكييف، - قالت آيانا.

- دعه يمت، - دقّقَ سيفا.

- إلى أين؟ - لم أفهم.

- إلى التلفزيون... آيانا أطلقت ضحكة بإغراء.

مسكتها بيدها، بدقيقة صار الحشد عاموداً. متقلقلة، تحركت، وها نحن قد مشينا مع الحشد بهدير حثالته.

أغلق الحشد الجادّة. في كل مكان ابيضت القبعات الحادّة من الأعلى [هذا يعكس جانباً من الخصائص الثقافية للثورة]. في أطراف الشارع تشكّى مواطنون. ولكن أحد ما، قافزاً، انضم على مسافة معتبرة من الخلف حيث ثبتت السيارات.

«نحن مع الشعب!» - حروف بيضاء على واجهة المتجر. ضرْبة بحجر. حجر طائر آخر. وقع الزجاج منخلعاً مع دوي. ارتمى قسم من الحشد إلى المتجر، نحو الثلاثين شخصاً.

- سوف يسرقون، - قالت آيانا، التي نَديَتْ يدُها الصغيرة.

ضغطتُ أقوى.

انتقلنا إلى الركض.

- سوف يقتلوننا جميعاً. سيحطمون الجميع، الجميع، - صدر صوت برتابة من الجهة اليمنى. امرأة بشكل مضنٍ راحت تخطو بجموح ووساعةٍ. حديث مضجر اقترن بشكل غريب مع مشيٍ سريع.

- أنت من أين، كأنك روسي؟ مواطنوك ليسوا هنا... انظر، لا يوجد مواطنوك. جميعهم اختبؤوا... هم يخافون، أما أنت فماذا عنك، شجاع، أليس كذلك؟

- لا تُخِفْهُ، - قاطعتْها آيانا بغيرةٍ.

أمالتِ المرأة نظرها، مثبّتةً رأسها إلى الأمام:

- سوف يطلقون النار على الجميع... لنذهب إلى التلفزيون، لنكسر الزجاج، وهم سوف يطلقون النار... بالرصاص في الرأس... عمري خمسة وعشرون عاماً، عندي ثلاثة أطفال، أعمل في سوق الخضار، لا يوجد لدينا مال... قفلت على أولادي، أتيت إلى هنا... سيقتلونني، الآخرون سوف يذهبون جثثاً... والآن حتى أنت سوف يقتلونك، وأنا يقتلونني... سنكسر الزجاج ويطلقون النار علينا جميعاً... أما أنا فأريد... أريد رصاصة في الرأس...

نحن التففنا وراء الزاوية، وحين شاهدنا الناس، انطلقوا إلينا من جهات مختلفة.

- أواه! ركض الروس! - انتعشت المرأة الهستيرية خلال خمس دقائق، والحشد كان مُبعثَراً وقت الحركة، ملأ حديقة مركز التلفزيون. لم تكن هناك شرطة، ولا حراس. ضغط الحشد على الأبواب الزجاجية، وحقيقة زجاجية، وظهر، أنه في ملاقاتنا تدفّق حشدٌ مثل حشدنا. زعيق عن الموت لـ باكييف وقف في هواء منتصف النهار وتردّد: اهتز الزجاج وجلجل.

- يجب الحرق!

التفتّ إلى الصراخ. رأيت عدداً كبيراً من الوجوه المذهولة من الغيظ... كان وجه سيفا هادئاً، هو حمل الكاميرا فوق رأسه، موجهاً إلى السماء المشمسة.

مرةً ثانية خلال خمس دقائق خرج شاب قرغيزي في طقم رمادي وربطة عنق وردية معوجّة. ممتقع، ومثير للسخرية بشكل ملحوظ ، سأل: «من هو المسؤول فيكم؟».

- لا ينظر في العينين - قالت المهسترة - يجب فَقْءُ العينين.

- كيف هذا «العينان»؟ - سألتُ.

- كويوزدري - قالت آيانا.

أيضاً خلال عشر دقائق أخرى أخرجوا الكاميرا.

تراجع الحشد عاوياً. بدأ الخطباء: هذا مع راية وهذا مع مكبر صوت. نُظّفِت الساحة الصغيرة، ألقى الشباب خطاباتهم بالدور، بإسهابٍ واعتباطٍ، مرتبكين وغاضين، في مكبر صوت ممدود من شركة مشهورة. تم التصوير.

- متى سيعرضون؟

- صاح بشكل اختراقي ذاك الذي معه العلم.

- مساءً في الأخبار.

- تكذب! - قالت المرأة الهستيرية بترهيب، وخرجت إلى مكبر الصوت.

- هاتِ لأتكلم. بسرعة سيقتلون الجميع. في الرأس. مساءً رموا بالرصاص ثلاث نساء في محطة الباصات. سيحلُّ المساء، مع المساء سيكون الطقس بارداً. الرصاص سيتطاير...

تنبؤ ثوري بالطقس.

- إيوك. - آيانا أرجعت رأسها بالنفي كما لو أنها طفل نامٍ، بأنها لا تؤمن بعدُ بالحكايات الخرافية الشعبية.

«إيوك» - باللغة القرغيزية «لا».

إطلاق نار. مرة، مرة أخرى، فوق الرؤوس. قلقَ الحشد، غلى، ركضَ الناس هرباً في الجهات. الشيء الأخير الذي شاهدته: يقع عامل تلفزيون بربطة عنق ورديّة، ماسكاً رأسه من الجانب. من الخوف؟ أو أن رصاصة أصابته؟ أنا أيضاً تابعت الركض، منجذباً إلى الركض الجماعي.

على طرف الميدان التقينا من جديد مع آيانا وسيفا. انقطع إطلاق النار.

- من أطلق النار؟ - سألتُ.

- من أراد هو الذي أطلق! - قالت آيانا بفرح.

- يجب إظهار الفيلم - قال سيفا. - يبدو أني صوّرت قنّاصاً.

- بكل الأحوال أنت لن تشكّل آلة تصوير آليّة - أجبتُ - تحصل اللقطة المزاجية. منظر طبيعي وشيء ما.

على التقاطع فتاة في بلوزة بيضاء كالثلج وجّهت السيارات. حلّت محل شرطة المرور المعزولة. هي انتشتْ بجمال إشاراتها. لمعتْ مثل المثلجات. وجه حنطي فوق نسيج أبيض بدا كالشوكولاتيّ.

- أعجبتك؟ - أعطتني آيانا صفعة مازحة إلى قذالي.

- توجهنا لنتمشى في البرلمان. قادتني وسيفا آيانا، قائلة كلمات سحريّة للحارس، الطفل في اللباس المموه. مثل هؤلاء الأطفال نفسهم في اللباس المموّه داخل البرلمان كانوا جيشاً عرمرمَ. هم استبدلوا النواب بأنفسهم. جلس شباب مموه في المكاتب. سمع طرق المطارق، نكّلوا بالأبواب، مخلوعة من العرا. في الممرات وقفت عمودياً لسبب - ما الأغطية الأرضية الملفوفة.

- لكن أين قاعة الاجتماعات؟

مررنا. كانت القاعة مقلوبة أعلاها إلى أسفلها، فوق الرئاسة عُلّق على الفتحة تلفزيون.

- أنا أخذت الحكومة - أخبرني في أذني شجاع مجدور، وابتسم باحتيال. سنّه فولاذي - أيُظهره؟ ليس لأحد.

نقل إلى جهة أخرى، ملتفاً على البوابة، كما لو أنهم لم يسيّجوها، وأخذ يقلب اللوحات في الهاتف النقال.

- حرس باكييف. شاهدتَ كم يحبوننا! - هو بغبطةٍ وخز بإصبعه.

- ولماذا هم؟ - دققتُ النظر في شخصيات العرض [كتبها باللفظ الإنكليزي].

- تبين أنهم ليسوا رجالاً، - قلتُ بشكل سرّيّ وأطفأتُ الصورة.

قائد الثورة روزا جلست في وزارة الدفاع. في الطريق إلى روزا وقعنا على مؤسسات محروقة: النيابة العامة، الضرائب. في أعماق البناء الأخير ما زال يتدفق الدخان وانطفأ الحريق.

لقد اقتربنا من المشبك الحديدي للباب، الذي وقف وراءه جندي. عند المشبّك انتظر عدد من الماشين: رجل بنظارات سوداء، امرأة عجوز دائرية الشكل. عجوز بتجاعيد عميقة.

- لـ روزا، - قلتُ.

ركض ناظرٌ خفيف الحركة، سأل من نحن؟

- صحفيون.

اختفى.

- وأنت ذاهب إلى روزا؟ - ناديتُ على العجوز.

- قال: ماذا سأقول مع امرأة! - انحنى وخطا ضارباً الأرض برجله.

- أنا إلى الوزير المعني بشؤون الأرض. أنا احتاج إلى أرض...

وراء المشبك ظهر إنسان طويل نحيف جذاب، بابتسامة ساطعةٍ غير متلائمة مع وجهه الممطوط.

- يا للدهشة! حقاً أنتم هو شارغونوف؟

أصدر المشبّك صريفاً، ونحن صرنا في المدخل.

- وأنا إيديل، رئيس جهاز الحكومة الجديدة. اليوم رجعتُ من الهجرة.

قادنا إلى الطابق الثاني. جلسنا في الردهة قرب الباب إلى مكتب روزا. عُلّقتْ على الجدار صور وزراء الدفاع السابقين. الأخيرة - فراغ في الإطار، اليوم صباحاً هذا الذي كان البارحة مالئاً الفراغ، كان معتقلاً.

أخيراً قادوني إلى روزا. وجه منفتح، سترة حمراء، نظارات. بسيطة في التواصل، ولكن هذه بساطة التشوش العقلي، سحر الحبوب المنومة. أنا مضغت زبيباً، روزا انحنت فوق فنجان الشاي.

- لا وقت للنوم هذا شاي ثقيل غلوه، كيلا أنام. ولكن إذا أبدأ الاسترسال في القول أو أغفو - لا تتكدّر... - صرّ البابُ، مرّر أنفاً لأحد ما. رفعت روزا صوتها: - إي! ستحضِرون شاياً ثقيلاً أم لا؟ نفخت؟ - سألتْ. - تنفخ في الظهر [حين يذهب المعني بالقول].

- سألتُ: أنتم انتظرتم الثورة؟

- ما اعتقدتُ، أن كل هذا سيحصل. الثورة عينها سُرِقت، مثل الريح أخذت البعض بعيداً، ونحن رفعتنا... قالتْ، أليست حقيقة؟

اقتلعت روزا نفسها من وراء الطاولة، دنت من النافذة، صَفَّقتْ، رجعت بسلاسةٍ إلى المكان.

- من هم في الأعلى لم يستطيعوا، ولكن من هم في الأسفل لم يريدوا، كما قال لينين. قادنا البورجوازيون. إذا كذبنا - سيحاسبنا الشعب بقسوة. أنا التقي مع الناس طوال الوقت. أخرج إليهم.

- الموت [قالتها باللغة القرغيزية] لباكاييف؟

لم يحضروا الشاي نهائياً؟

- الموت لباكاييف. - روزا أخذت رشفة - يطالب الناس بهذا. ولكن أنا تركته يخرج من البلد، لكي أوقف المجزرة.

- سمعتُ عن المذابح.

هي أجابت بشيء ما.

- «كونديتر» - صانع حلوى؟ لم أفهمْ.

- «بانديتر» - قاطع طريق.

- وكم تستطيعون بلا نوم؟ يومان؟ ثلاثة؟ من أين القوى.

- أنا «يوك» [لا].

جلبوا لي الشاي. أخذتُ رشفة صغيرة ونهضتُ. دخل إلى المكتب لدقيقة إلى القائد [روزا] قرغيزيّان: سيفا وآيانا. أخذ صديقي صورة.

- أوي، يا لها من آلة تصوير غريبة! - تيقّظت روزا. - هذا الذي عندكم أليس قنبلة؟

- الرفيقة روزا، اقتلي باكييف! - قالت آيانا مستغلة المقابلة الرسمية.

ذهبنا إلى الغداء.

- لا تُرى عندكم بنات في أغطية رأس، رغم أنكم مسلمون - قال سيفا مستغرقاً في التفكير على الغداء. - في الجمهوريات الجارة - الأغطية

في القفقاس، أغطية، حتى في قازان كل شيء مغاير... عندكم النساء حقاً متحررات جداً.

أكلت شورباء هو- مانتي [أكلة قرغيزية]، آيانا طلبت مثلجات وقهوة تركية.

- نحن لسنا مثل الآخرين - هي عبّت من سيجارتها.

- القرغيزية. امرأة خاصة. بفمها لا تأخذه، لكنها تقبّل الجسد، - باح سيفا بقولة سريعة.

- أوي، من أين تعرف هذا؟ - آيانا اتخذت كلماته على أنها ضرورة. ضحكت مستهزئة قليلاً، أخفت وجهها بشعرها المتموج.

- ولكني عشت في قرغيزيا. أنتم عجيبون - كيف تكون كلمة «الحب»؟ - سألتُ - مخابات، - هم زفروا في وقت واحد. - كلمة كَثّة - قلتُ- حلوة.

كأنها نحلة كبيرة انغرزت في وردة تحت لهيب شمس حارق.

آيانا نظرت إليَّ عبر شعرها، المسال على وجهها. عيناها سخنتا بنار الإغواء.

خرجنا إلى الشارع. قرب الجدار جلست امرأة عجوز كبيرة، كما لو أنها عجوز من صهرة حديد، الكف مغرفة، يدٌ ممدودة بدون حراك.

- روسية؟- انحنيت إليها.

بحّتْ: نعم، عزيزي. ثمانون عاماً، لا شيء لديّ للأكل أريد أن أموت خنقاً. دسست لها نقوداً.

تقلّصت، أخفت وفجأة غمزت بنشاط:

- الروس لا يستسلمون.

- تريدون رؤية اللصوص عندنا؟

- استَعْلَمتْ آيانا بشكل ساخر. نحن نريد رؤية قطّاع الطرق.

نقلنا سائق التاكسي من المدينة. التاكسي (كما كل شيء آخر) رخيصة بشكل مخيف بالمقارنة مع موسكو. وحتى بالمقارنة مع الشيشان.

على حدود المدينة في الحقول تجمّع قطاع طرق الطرق، واللصوص. في هذه الليلة انتزعوا أرضاً غريبة. الأرض لا تكفي في هذه المناطق الجبلية. بالنسبة للكثيرين إسقاط السلطة - ذريعة لسرقة الأشياء الهشة الثمينة.

سافرنا بالسيارة على طريق ريفي ضيق. من اليسار واليمين تسكع وجلس اللصوص في الحقول بالعتمة. نتأتْ من الأتربة الرخوة الرطبة أوعية بلاستيكية على أسافين، - كانت مساحات الأراضي المحتلّةِ مُقسّمة إلى مربعات.

- دعني أجرّب - طلبت من سيفا.

خرجت من السيارة، هيأت آلة التصوير الضخمة، شقشقتُ.

لا حظوا، زاعقين بعشر حناجر مع صراخ مدوٍّ، ركض إليّ فصيلٌ. هم لوحوا بعصيٍّ حديدية. لسبب - ما لم أشعر بالخوف. في ولولتهم وركضهم كان شيء ما عِيدياً احتفالياً. اقتربت وجوه سعيدة، بيّضَتْ تكشيراتها، نضَحَ دفءُ الابتهاج.

جلست في السيارة سرنا. تيوك! - ضرب حجرٌ الواقيةَ. لفظ السائقُ شتيمة الأم. كل هذا كان مضحكاً لآيانا.

غداً يبدؤون يقطّعون ويطلقون. سيدخلون إلى المدينة ويأخذون بتدمير كل من يقابلهم.

- اقترب الغد، حين ستطير إلى العالم الأخبار عن الخرابات المحلية والأموات الجدد. الآن حلت الظلمات. وصلنا منهكين إلى بشكيك، وانسكبت مع العتمة الشعارات الجدارية.

«باكييف - قط». (كيوت - يعني بابا»، - ترجمت آيانا بلطف). «المعوقون ضد النهابين». أوه يا لهذا!

إطلاق نار. بوخ، بوخ! أين؟ بوخ! في جادة قربنا؟ تابعنا تقدمنا المتثاقل.

عرجنا إلى النادي. الذي يلعب بالضوء النيوني. هنا كانت وفرة إطلاق مع الصديقة آيانا، وأيضاً مع تلك، الواصلة اليوم من أوشا إلى بشكيك، التي سموها ماليكا. هي بدت أضخم من آيانا، الثديان ثقيلان، الثوب أصفر، شفتان مزينتان بشكل استعراض مسرحي.

- في الجنوب يدهنون الشفتين، وفي الشمال، العينين. - نوّرت ماليكا، محتسية النبيذ الأبيض.

عند البار استوى في مكان الجلوس قرغيزي واسع الحجم في بدلة رياضية زرقاء، شربَ، سَكِرَ، لوّح بيدين ضخمتين.

- نحن بـ «الأديداس» جئنا، باختصار. يا لها من بائعة، باختصار، أنتم لن تكسروا شيئاً، باختصار. ارتدوا ما يعجبكم، باختصار. نحن تركنا هناك مباشرة ثيابنا القديمة، مع الجبل وضعناها.

الولد الصغير - عامل المشرب كان كله في حالة انتباه حاسدة.

- لكن هيابنا نندفع إلى الجبال، - اقترحت ماليكا.

في الزاوية فوق المشرب تلألأ بث تلفزيوني ثوري. على الشاشة توجد صورة.

- قتلهم باكاييف. هنا مخلوق ملعون - قالت ماليكا - بقناعة، شيء ما ممل، قليل بالنسبة للشعب، أن يميل الجميع للحرق. في الجبال جمود.
- صدَمتْ بكوعها آيانا: - قولي أليس كذلك!

خرجنا واصطدمنا مع موكب الشارع. شباب يافعون، في المقدمة - قائد معه عصا. في حركته ضغينة إرادية. لافتة من ضوء نيون أضاءت نظرته الزجاجية. وهنا فهمتُ: هذه ليست عصا، بل هي بارودة كسر طويلة [بارودة كسر - كتبها بالحروف الروسية وفق لفظها بالإنكليزية] - دخل إلى النادي، وخلفه كل المجموعة.

- فو - و [ياللقرف]، أفعى [أو فوق طبيعية] ، شجبت ماليكا.

الفتيات الصغيرات انفجرّنَ ضحكاً.

وراء البيوت قريباً جداً رعَدَ إطلاق نار. صوت مدوي - بوخ! هدوء. من جديد إطلاق نار.

حملتنا سيارة التاكسي عبر المركز، متجاوزين البيت الأبيض. الشموع عند الحواجز. تملّمل الناس - وهم في وضعية القرفصاء حول الخيمة.

مساءً خرجنا إلى الجبال. هنا مصّحةٌ توضّعت مجمّدة مع الحياة في العام ١٩٨٥. إعلان مطبوع بالإستنسل [طباعة آلية بطريقة غير متطورة]. «الرفاق المصطافون!» «الجمهورية القرغيزية الاشتراكية السوفييتية». مررنا إلى المسبح،

إضاءة باهتة، بخار كثيف، مياه الينابيع الساخنة. على الجدران المبلّطة - لوحات متعفنة منتفخة متقشرة للصحة السوفييتية.

لا يوجد أحدٌ غيرنا. كان المسبح عظيماً، ونحن في اثنينيتنا سبحنا في أطرافه المختلفة. آيانا رمت رأسها إلى الوراء. مشهدٌ لطيف: عينان ضيقتان مغلقتان جفنان أحولان...

مسدّتُ رأسها المبلل. وحركتنا المياه من هناك إلى هنا ومن هنا إلى هناك بقوة متزايدة، وتحولت إلى مغلية.

- لنسافر غداً إلى «نارين» - تمتمت الفتاة.

- ماذا؟ هيا.

- أنتَ تريد إلى «أوش»؟

- إلى «فوش»- القملة؟ معكِ حتى لو إلى البرغوث.

بعد ذلك وقفنا في الهواء، مدينة بشكيك، كانت في مكان ما تحتنا أظلمت الجبال في كل مكان. بالقرب منا كانت النجوم وفيرة. آيانا التصقت، وقليلاً - قليلاً قبلتني في رقبتني، وفي وجهي إلى أعلى حتى شحمة الأذن، كما لو أنها كررت بشفتيها رسما نجميّاً.

بدا لي بأني واحد - وحيد تماماً وأني أستطيع الآن قراءة المستقبل.

خلال ساعة، على سبيل المثال، سأكون على شعرةٍ من الموت، وبكل الأحوال سأُنقِّذُ الآن، ولكن في يوم ما لن يحصل هذا.

قرأت المستقبل بدون أسف أو اهتمام، وما أمكن، فقد حدث.

كما لو أني لست تافهاً ميتاً، بل نجمةً مخضرّةً فوق الجبال.

أصدرت السيارة زموراً. ارتجفت.

جلسنا في التاكسي وسافرنا من الجبال.

إلى لقاء الفجر و الهزائم.

القائمون من الموت

وماذا يعني، إذ تكتب آلة التصوير: «لوحة الذاكرة خطأ» [كُتبت بالإنجليزية]؟

واضح: أني مازلت فتياً. نعم أم لا؟ هيا وافقوا معي: مازلت فتياً.

وفي كل الأحوال، ناظراً إلى الوراء، مراجعاً لوحات الحياة، صرت أفكر: كانت هناك غلطة في مكان ما. أريد أن أحزر الخطة؛ هي مهمة حياتي الخاصة.

أين الغلط؟ أم كل شيء كان نزيهاً وصحيحاً. ولوحات الحياة تتشكّل مع الزمن؟ كانت مندفعة، حارة، ولكن هكذا كما يجب. التضاد الطفولي البعيد - ابن خوري بين الطلائعيين [منظمة الأطفال التابعة للحزب الشيوعي] - كان صحيحاً. وحنيني المباغت إلى السوفييتي وسط زمن غارات السّكْرِ - كان صحيحاً. والسير في الأدب كان وفيّاً، في «العالم الجديد» مع القصص، لكن ليس في الصحافة التلفزيونية. الزواج مع آنيا الناشزة والمسعورة كان صحيحاً - لأنه بناء على طلب العاطفة، ولأن البنت الوهاجة أهدتني ابناً لامع العينين. والذهاب إلى السياسة، في العاصفة الثلجية في الشوارع تحت الأعلام إلى أقراني الغاضبين والمرميين، كان ذهاباً صحيحاً. والخسارة كانت مؤلمة، ولكن بل بكل الأحوال كانت قيمتها عالية، هي حتى الآن تصبُّ السعادة في القلب، إذ إني لم أُكسّرْ، لم أُكسّرْ، لا لم أكُسّر. والرحلات الحربية... والوحدة. وهذا الألبوم الخاص بي مع الصور غير المرئية مهم لأحد ما غير حاضر الآن.

أعيش قرب المترو «محطة الشباب». أستأجر شقةً من غرفة واحدة في بيت مركب من كتل إسمنتية طويلة، محاط بعشرات من البيوت مماثلة له. عملي - الكتابة. أكتب في عدد كبير من الأمكنة. في أيام العطل آخذ ابني ونتمشى. هو يبيت عندي السبت إلى الأحد. نحن نذهب إلى الحديقة، والسيرك، وأحياناً إلى الكنيسة.

يميل فانيا إلى الكنيسة أكثر مني عندما كنت في سنّه. هو هناك حليم ومفتون.

الخبرات الحياتية لم تُقَسِّني. لكن أصبحت شكّاكاً. قليلاً ما أثق بالناس. أثق فقط بأولئك النزيهين منهم - القراء. رفاقي الجدد هم القراء، والقارئات؛ أولئك الذين يحتاجون مني كلمات مكتوبة، رغم أن القراء أحياناً تبرد هممهم.

«من هو القريب مني؟» - ضد هذا السؤال الإنجيلي، أنا نفسي أجيب لنفسي: «الأكثر بعداً». من هو أبعد - هذا هو الأقرب. فيّ رغبةٌ أن أثق بالأُولِ الذين ألاقيهم، الذين لا يريدون عموماً مني أي شيء. بكل حال يبدو لي أن الشخص البسيط الذي ألاقيه مصادفة يمكنه أن يكتشف شيئاً ما مهماً جداً. دائماً يبدو لي: قريباً - قريباً سوف تنفخ الريح، تقلب الصفحة - وينفتح انقلاب جديد، يصعق الصور ببريقه. من المحتمل، يقولون، إن هذه بقايا فيَّ من الشباب.

بالمقابل أنا أعرف من مكانٍ ما، وحتى أيضاً لا أشك، بأن أمامي حتماً سيكون حبٌّ قوي.

في النهاية سأحدثكم عن الفلاح الأخير. لقد تعرفتُ عليه بفضل ديمون.

ديمون طوال سني حياتي هو قارئي من دزرجينسك، يشرب بقوة، يفعل أفعالاً. إما هو قاطع طريق وإما رجل أعمال، على الأصح - هذا وذاك.

قرأ كتاباً واحداً لي، بعد ذلك قرأ آخر، كتب رسالة شربنا الخمر في سفره إلى موسكو، في اليوم الثاني استسلمت للإقناع - أخذني بالسيارة ليُريني قلبه الآخر، قريته.

كان صيفاً خصباً، ومع الصيف كانت قرية «فاسكريسنكي» [القائمون من الموت] في واحدة من المناطق المركزية الروسية. يكون هناك ديمون في سيارته الجيب مع زياراته الخاطفة. هو يزور بيتاً صغيراً، حيث عاشت جدته يوماً. في نهاية الأيام وقعت في النعيم، وعندما كانت جالسة عند النافذة الضجرَة، التي وراءها منحدر مائل إلى النهر، والماء يتقلّب، وتُظْلِمُ الغابة على الضفة الأخرى، سألتْ بصوت غير عال: «أية محطة هذه؟» ومتأنيةً قليلاً مع أنفةٍ: «وما هي التالية؟».

وقفتُ على المصطبة مفكراً: ها أنتَ في القرية، ثم إن أباك من القرية، والجدّة، والجدّ، وجد الجدّ، وجدة الجدّة، وقبل القبل... هل قرية أجدادك القبليّة كاملة؟ أم إن أدغال التايغا أطبقتْ عليها؟ يجب أن تبحثَ عن الجواب في القرية. هنا يصبح واضحاً لكَ: كيف يمكن العيش بَعْدُ. هيا؟ كيف تشعر؟

لم أشعر بشيء باستثناء لدغات ذبابات الخيل الدنيئة.

كانت القرية فارغة تقريباً، بقي عدد من النساء العجائز. قرأت على العامود قرب المخزن عن واحدة منهن، وتذكرت كلمة بكلمة: «ذهبت من البيت ولم ترجع يغروفا زويا بور فيرييفنا. ٨٨ عاماً». من البيت - هذا يعني الكوخ الفلاحي المتهالك. لم ترجع - هذا يعني، داخ رأسها أو التوت رجلها، ووقعت المرآة العجوز في مكان ما وضاعت: في حفرة أم في غابة.

صيفاً أكثر الناس هم سكان منازل استجمام، أوضح ديمون. ولكن الارتباط مع العالم الخارجي معوّق: يمكن فقط بالسيارة.

في الصباح التالي مبكرّاً، بعد شراء فودكا من المتجر، معلبات، زُجاجَتيْ بيرة، ووجدت مثلجات، تحركنا بالسيارة إلى المقبرة.

في المقبرة القروية لاقاني القروي الأخير.

في البداية رأينا الجرار الذي دبّ إلى سياج المقبرة، وجرَّ في المقطورة كومة من جذوع الأشجار.

جلسنا على مقعد معفّن قرب أول قبر، طنّت النحلات، لعبت الفراشات، اللواتي شاهدنَ من على الحجر من البيضات المكوّرة مع الحواف الذهبية، الحكواتيين، الجد والجدة، اللذين لا تكفيهما الدجاجة الذهبية [في الحكاية الشعبية].

قفز ديمون.

فولوديا! فوفتشيك! عزيزي - ملوحاً بيديه إلى جهة الزجاج الأمامي للجرار الأعمى من الشمس.

وقف الجرار دون التوقف عن الاهتزاز وبعث الدخان، وطار مرفرفاً من مقصورته رجل فظ مع وجه مجعّد سعيد.

- مرحباً، عمي فولوديا - وباحترام أكبر قال ديما، عندما اقترب الرجل.
- هل نصبُّ [الخمر للشرب]؟

صافَحَنا الرجل ضاغطاً أيدينا بقوة - الكف خشن بسبب الجُسآت.

- أنا قبل الساعة الثانية عشرة لا أشرب - داهنَ بخبث بعينه الزرقاء الباهتة.

- كيف هذا... يا بسمارك...

- دخن بسيجارته ومهتزاً في سعال مختلط بالضحك، صائراً مباشرة مثل الجرار، مرتجفاً عن بعد - نعم أنا في العمل. إنك ترى أجرّ القضبان.

- لماذا القضبان؟ سألتُ.

- نعم المدينيون يبنون منزلاً صيفياً.

- إذن مرَّ نهاراً - قال ديما - نضيّفك. اسمع، أرِ سيرغي المقبرة.

- هذا ممكن، هذا ليس لوقت طويل... احتضنني من كتفي، شدّ رأسي إليه، وفحّ:- هنا أولادي الصغار جميعاً... أنا حقيقة أستطيع أن أقودك بنزهة. كثيراً ما أوجَدُ هنا. بعيون مغلقة أستطيع أن أسمّي لك الجميع... تعمّقنا في أدغال المقبرة، وشواهد القبور المتينة حلت محلها المتداعية، كلما تقدمنا أكثر، كانت هناك المهملة منها، وكانت عَلَتْ عليها الحشائش الطفيلية بانتصار أكبر، وكلما تزاحمت عليها الحشرات بوفرة أكبر وأقوى طنيناً.

مشينا، ومرشدي قلّب أمامي صفحات مجمع صور الموتى.

«انظر هذا - مثلي سائق تراكتور. وقعت الشجرة وسحقته» - أشار إلى الوجه الصارم المضغوط بالقبضة. «وهذا، المقتول غرقاً - العم غريشكا. أبي أكلته الجراح، قاتلَ، الأم كادحة، ليرحمها الملكوت السماوي. هذه المرأة فروسيا، لطيفة، تحملتنا جميعاً، جدي إغناتي كوزميتش، عامل مصنع... ها هو مهرّج!

أحاط بنفسه عَلَماً سرقه في أعياد أيار ومنه صنع سرواله الداخلي... يطلق غناءً، ينطلق جرياً على الطريق فقط بسرواله الداخلي الأحمر ويرقص...».

من جديد خطفني من كتفي، حقاً بقوة وحشية مخيفة، وأظافر طويلة انغرزت عبر القميص: «هناك، انظر...» اندفعنا برقص أخرق إلى الطرف الجانبي الأكثر بعداً للمقبرة. «هؤلاء هم الأبناء، تمتّع بالعشق!». بين الأعشاب بشكل غريب وموحش ظهرت هضبتان صغيرتان، كلتاهما في الحشيش، لكنه محصود، وليس عالياً. أرخى قبضته، مال جانباً ودهن بقبضته في وجهه ماسحاً عينه.

- فاسيا وليشا. كان عمر فاسيا تسعة عشر عاماً، مصاب بعدوى... عمر ليشا ثلاثة أعوام - التهاب رئتين...

- والأطباء؟

- لم تصل سيارة الإسعاف. قالوا السفر بعيد.

- لكن هل توضع الصلبان؟

- وأي صلبان...

- ولكن أين صورهم؟

- لا ليس عندي صورهم. وليس عندي صوري الخاصة بي. ذلك لأنه ما زال من المبكر لنا أن نموت. العنِ المصورَ - دعه يلتاط. حينئذٍ يمكن الذهاب إلى الأرض [الموت]. ألا أقول الصحيح؟ لمن حقاً صورك ضرورية؟ الورود تنمو في الحقل، أمشي - وأتذكرُ الأبناء. الحشيش ينمو، كما لو أنه شعرهم. مرة في الأسبوع أحصد هنا، كيلا ينبت طويلاً. حين يكون لدينا الوقت - نفعل كل شيء كما يجب أن يكون.

- وأمهم أين؟

- شنقت نفسها. كانت سكّيرة. ذهبت تركتني وأولادي. شمشمتْ فتعارفتْ مع سكيرة مثلها، وشنقتْ نفسها في مركز المنطقة. عندي أيضاً أخي شنق نفسه. والابن الأكبر، هو في الحقيقة ليس هنا، بل في منطقة ريازان.

- هذا يعني أنكَ وحيد؟

- حسناً، أنت نفسك متزوج؟

- افترقنا.

- لماذا هكذا؟

- لكن...

- هل يوجد أطفال؟

- ابن.

- يجب صونه.

- ألديك كثير من الأعمال يا عم فولود؟

- أسخن الحمّام في أيام الآحاد. أفلح الحكورات بالجرار - همهم بشكل مضحك. - لقد كنت بحّار غواصةٍ، إنساناً عسكرياً. قطعت سباحة بالقارب نصف العالم. لكن متى كان هذا... فيما بعد في المزرعة هنا - جمعنا الفحم النباتي. كان عددنا كبيراً، كنّا أصحاء محبين للعمل. وكان

المعمّرون مشغولين: سابقاً كان عندنا بقرات وغنمات، نأخذها لترعى. كان لدينا مدرسة، نادٍ، مصحة استجمام. وعبر الغابة تمددت سكّةُ حديد ضيقة. كثرٌ من ذوينا القرويين، عملوا في المدينة - كنت تستطيع أن ترى إذا جلست في الغابة، أن العربة تتحرك، في الصباح تكون في مكانها. بعد ذلك، عند انطلاق الهراء(١)، كفّت القطارات عن السير. حتى إننا إلى اللقاء الريفي خرجنا، يقولون، القطارات سترجعونها...، ضجوا فيما بينهم، وبعد ذلك، إذا بنا ننظر: استوحشتْ سكة الحديد الضيقة، نحن بأنفسنا الذين جررناها بعثرناها. الآن إن تذهب إلى الغابة، فسوف تلمع بشكل ما في مكان ما، كما الأفاعي. بقيت قضبان السكة الحديدية هذه، ليست كثيرة، ولكنها توجد.

حسناً، بشكل عام، كيف تعيش، آ؟ - سألتُ فجأة بأمل ما بلا حساب.

- صيفاً أكون في حالةٍ جيدة - هناك كثير من أهل المدينة، يمكنني الحصول على قروش. هناك مصيبة مع الشتاء. الذئاب في الشتاء تعوي. هم يكثرون عاماً بعد عام. في احتفال رأس السنة اعتاد واحدٌ... وقح ركض في الحواكير. أنا قصفته بشكل ملعلع، عندي بارودة كسر مزدوجة، ولو كان غير ذلك لكان خنقَ نساءنا... - تهلّل العم فولوديا من مزحته الشخصيّة، وبلحظة تنعّمت تجاعيده، وهو من جديد أخذ يدخّن. - هنا لدى امرأة مصطافة صبي صغير جيد. هو شبيه لابني الصغير فاسيا.

---

(١) [المقصود: بدء الحديث عن البريسترويكا وعن الثورة والتغيير في الاتحاد السوفياتي]. [المترجم].

واسمه أيضاً فاسيا. يخاف جميع أصوات الرعود، وها أنا أعلمه أن يكفَّ. بوخ - بوخ، أقول هذا أنا - العم رعد! أمه تعرض نفسها للشمس، تتمدد لتعرّضَ جسمها للشمس، وهكذا نلعب... حسناً هيا نذهب. يجب أن نفلح الأرض أيضاً.

مشى الرجل معي أمامي بخطوة من الحشائش الطفيلية إلى المخرج، إلى البوابات الحديدية للمقبرة، كانت في وقت ما سماوية، والآن حمراء مع نجمة بنهاياتها الخمس الصدئة. محدودباً، وهو يعرج قليلاً استدار.

- وهل أنت لوقت طويل هنا؟ - سألَ مضيّقاً عينيه مُستَشعِراً النار الزرقاء فيهما.

- لا.

- آ - آ - آ... أحتاج إلى مساعد، لكنت ربّيتُ بعض الماشية. أنا على الجرار، وأنت مع العنزات. النساء لا يردن السفر إلى هنا. كانت هناك بقرة، ضربتها. لو كان أحدٌ ساعدَ، لكنت انتصبت على قدمي ... أما هكذا - فيكون الندم وحده... ولكن لا مكان للهروب إليه. مثل الغواصة تحت الماء! نيخت مستسلم! ليس هناك إلا المقدرة والقوة! أليس صحيحاً ما أقول؟ أنا أنصح ديمكا: انتقل إلينا، انقل عائلتك، وسنعيش بشكل آدمي...

- كيف يمكن العيش عموماً؟ - سألتُ - كيف يمكن العيش عموماً، كيف، آ؟ حسناً جدّياً...

فولوديا فتح فمه بابتسامة،إذ نصف الأسنان لم يكن موجوداً:

- شد عضلاتك! اعصر نفسك. اركض. اجلس مُدَّةً قصيرة. ها أنا أتأرجح مع مزرعتي: هناك سأعزق، هنا سأكمل الحصاد، والقلب يفرح!

- وهذا كل شيء؟

- هذا للبداية!

الفلاح الأخير من قرية القائمين من الموت أدار ظهره، وذهب إلى مخرج المقبرة.

فهرس

الصفحة

ألبوم سرّيّ ٥
طفولتي السوفييتية ٧
كيف كنت خادم المذبح ١٨
المدارس ٣٠
عنكن، أيتها الفتيات ٥٣
الجدة وكلية الصحافة ٦٥
البلباسيون ٧٩
عصيان عبر الفرار ركضاً ٩٤
مجازفات الرعاع ١٠١
فيما بعد ١٢٢
إلى الشيشان، إلى الشيشان ١٣٨
في الحرب ١٦٥
كيف طردت صديقاً ١٧٦
ثورة في آسيا ١٩٨
القائمون من الموت ٢١٨
فهرس ٢٢٩

سيرغي شارغونوف

(١٩٨٠- ...)

- كاتب روسي، صحفي، ناشط اجتماعي.

- رئيس جمعية اتحاد الكتاب.

- عضو مجلس الدوما الحكومي للاجتماع الفيدرالي لروسيا الاتحادية.

- نال عدد من الجوائز من الدولة الروسية على مدى عشرين السنة الأخيرة.

- من أعماله المؤلفة:

■ أورا.

■ الصغير مُعاقب.

■ انفلونزا الطير.

د. مقداد عبود

- مترجم سوري.
- دكتوراه بالفلسفة من جامعة كييف الحكومية - الاتحاد السوفييتي سابقاً ١٩٩٠م.
- درس علمي الفلسفة والاجتماع في جامعة سرت الليبية من عام ١٩٩٧-٢٠٠٠م.

- من أعماله:

- بين القطعية والخلق - الحقيقة في الخطاب العربي المعاصر، دار الحداثة، بيروت، ١٩٩٩م.
- الربيع السوري... أفق مختلف أم استحقاق كارثي؟، دار أرواد، طرطوس، ٢٠١٢م.
- حرب الأمركة على العالم... من الربيع العربي إلى الفاشية الراهنة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٧م.

٢٠٢٢م